Norbert Gstrein

Handwerk des Toetens

رواية

حرفة القتل

نوربرت جشتراين

ترجمة عن الألمانية: سمير جريس

نوربرت جشتراين

حرفة القتل

رواية

الكتب خان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

تذكارًا لجابرييل جونتر

(١٩٦٣-١٩٩٩)

الذي لا أعرفُ عن حياته وموته إلا القليل جدًا -

أقل مما يُتيح لي

أن أرويَ قصته

الفصل الأول
حرفة القتل

كنت أعتبر باول ثرثارًا مترددًا لا يعرف كيف يقضي أيامه؛ فهو شخص يتربّص بي ويلازمني كظلّي لأسباب لم أستطع أبدًا سبر كنهها. منذ فترة طويلة وهو يعمل في الصحيفة، لكنه لم يستقر في المدينة إلا منذ شهور قليلة. فيما بعد تذكّرت بالتفصيل كيف ظهرَ في قسم التحرير عصرَ ذات يومٍ، كنتُ أعمل في أثنائه بالصحيفة أيضًا، ليقدّم نفسه، ولم يكن أحد يعرف كيف يدير معه حديثًا، ولهذا انصرف مسرعًا. بعد ثلاثة أيام بادرني بالحديث في المقهى الذي أتناول فيه فطوري في "أوتنسن"، ولمدة أسبوع أو أسبوعين كان الفزع يصيبني كلما ألقيت نظرة عبر النافذة واكتشفت وجوده - يبدو أنه زبون دائم - فأواصل السير وأتناول قهوتي في مكان آخر، أو كنت أعود بعد نصف أو ثلاثة أرباع الساعة، آملاً أن يكون صبره قد نفد. ولكن هذا الأمل - كما أدركتُ سريعًا - كان سرابًا. كان يجلس دائمًا في المكان نفسه، مصوبًا بصره على الباب، في المنفضة سيجارة يتركها بعد أن يشعلها تتحول إلى رماد دون أن يسحب منها نفسًا واحدًا. وعندما تخلّيت في النهاية عن لعبة التخفي التي وجدتها طفولية، سلّم عليّ كإنسان يعرفه منذ فترة طويلة، ثم أشار إلى كرسي بجانبه.

كان يكتب لقسم السفر والرحلات ريبورتاجات ويبيعها لصحف أخرى أيضًا. ولأنني لم أقرأ أبدًا شيئًا

من مقالاته، فلم أكن أحتفظ باسمه في ذاكرتي. ربما كان التشبيه أعوجَ، إلا أن هناك نوعًا من التراتبية بين أقسام الصحيفة، كما هو الأمر في السجن، حيث يتم ترتيب السجناء تبعًا للجريمة المرتَكَبة. وفق هذا التشبيه كان يحتل مكانة مغتصبي الأطفال، أو فوقها قليلاً. ليس معنى ذلك أن وضعي كان أفضل كثيرًا، باعتباري من أولئك الذين يعملون بالقطعة بصورة شبه دورية. كنت أتنقل في العمل بين قسم وآخر، ولكن هكذا هو الإنسان - وعلى حد تعبيره هو - إذا كان في استطاعته أن ينظر إلى غيره من علٍ، فإنه يفعل.

لم يفتني الانتباه إلى لهجته النمساوية، ورغم أنني في المعتاد لا أذكر ذلك، فقد حكيت له أن والديّ من فيينا، ثم سألته عما أتى به إلى هامبورج. بالتأكيد ليس العمل، إذ لم يكن في الأفق أمل في الحصول على وظيفة. أتذكر كيف هزّ كتفيه، وكأنني أريد أن أعرف سبب وجوده في هذه الدنيا أصلاً. كل شيء فيه بدا لي مؤقتًا بطريقة مفزعة، هو نفسه بدا وكأنه في انتظار أن يبدأ من جديد، أن يعاود الكرّة مرة أخرى، وكأنه يتشوّق إلى الخلاص، لذا بدت إجابته دراماتيكية لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يدونها من غير أن تساوره الشكوك حول صحتها.

"ملاك موتي".

صحيح أنه انفجر في اللحظة نفسها ضاحكًا ضحكة

احتضرت سريعًا، إلا أنني لا أعرف حتى اليوم ما إذا كانت إجابته قد تخلّلتها مسحة من الجد، فطريقة نطقه للكلمة أوحت لي بأنه يستخدمها يوميًا.

"لا تجهد نفسك في تجميل الأمر وتزويقه"، هكذا أكمل كلامه دون أن تتاح لي أي فرصة للرد عليه.. "لقد فهمتني على نحو صحيح".

أعجبني أن ينجح إنسان بكلمة واحدة في إظهار نفسه بصورة المخبول. ولكن سواء أعجبني ذلك أم لم يعجبني، لقد أجبرنا بطريقته في الحديث - وبعد أن قال عدة جمل أخرى - على أن نمثّل معًا دور "مقطَع السمكة وديلها"، وأن نخوض في حديث عن البديهيات والمُطلَقات، وكأنه لا يعلم أن مثل هذا الحديث لا يمكن أن يفضي إلى أي شيء ذي بال، وأن كثرًا يضلون طريقهم - بكلمات كهذه - عبر حكم جوفاء لا تُسمن ولا تُغني من جوع.

لم يكن بحاجة لأن يبوح لي بأسراره، ولكنّ شروده وضياعه جعلاني أظن أن زوجته هجرته، وأنه يحاول أن يشق طريقه وسط بحر الحياة، كما يقولون، وكأنه يستطيع الاختيار بين المضي قُدمًا والرجوع، وكأن الاتجاه ليس محددًا منذ البداية وبشكل نهائي. شيء ما به كان يذكّرني بالأطفال الذين يضعون على أنوفهم نظارة سميكة جدًا، والذين كنت أشعر حيالهم بتعاطف غريزي؛ طفل يستطيع بالكاد ربط حذائه، لكنه يقع في

حيص بيص إذا طُلب منه شيء آخر. كنت أنظر إليه باعتباره واحدًا من أولئك الذين يشرعون في سن معينة في التفكير بالطرق المتشعبة الملتوية في الحياة، ويقومون بمحاولات يائسة للمضي في هذا الطريق أو ذاك، ثم يفقدون القدرة على فهم العالم عندما يجدون أنفسهم فجأة، مرة أخرى، أمام أبواب مغلقة. الحكاية التي حكاها كانت قديمة لا تثير لديّ سوى الملل، لأنني سمعتها في دائرة معارفي بكل تنويعاتها الممكنة، وكانت تنتهي دائمًا بأن يتسلل الشخص في أثناء وجوده لدى أصدقاء، وينزل إلى الشارع ليذهب إلى عاهرة، وكأن هذا هو البديل لكل الثورات التي فاته الاشتراك فيها؛ أو أن تظهر فجأة بجانبه فتاة، ولأسباب مجهولة تعبده عبادة، ويعتقد أنه سيتمكن معها من تمديد المهلة الممنوحة له قبل إعدامه.

الفتاة الجديدة التي قصدها باول بملاحظته التهكمية كانت تدعى هيلينا، وبالطبع لم يكن الأمر بسيطًا مثلما كان في الحقيقة، وطبعًا كانت هناك قصص ونوادر عن ذلك حكاها لي، وكأنه يريد طوال الوقت التأكيد على فرادتها في كل شيء، حتى في أسخف الأشياء الصغيرة التي لا بد أن تترك عندي انطباعًا.

بسرعة، وفور حديثنا الأول، أصبح من عاداتنا أن نلتقي صباحًا في المقهى حتى دون أن نتواعد، وكنت أهيئ نفسي لأن أظل جالسًا معه أحيانًا أطول من المعتاد، إذا لم يكن لديّ شيء مُلحّ يجب إنجازه، أو كنت

أستجيب لدعوته بأن ننتقل إلى مكان آخر، متأكدًا من أنه سيأتي لا محالة على ذكرها في لحظة ما. ذات مرة سرنا إلى ضفة النهر، ومشينا على مهلنا على شاطئ ميناء الصيادين، ثم مررنا بجسور المعدّيات، ووجدنا أنفسنا في نهاية المطاف وسط البلد دون أن تقريبًا عن الكلام عنها. ولربما يكون صحيحًا ما قلته لها فيما بعد، أنني بدأت أهتم بأمرها وسط مزيج من الشعور بالخفة والثقل من جرّاء حكاياته.

على ما يبدو كان قد قابلها أول مرة قبل خمسة عشر عامًا، ولم يرها بعد ذلك ولا سمع صوتها، باستثناء بضعة أحاديث تليفونية عندما كانت الأقدار ترمي به بالقرب من المنطقة التي تعيش فيها. البداية كانت في قريته فوق الجبال، وكان مما يمس شغاف القلوب، ومما يثير الضحك في الوقت نفسه، ملاحظة كيف كان يجمع الآن الشذرات التي لديه مكونًا منها ضرورة حتمية؛ إذا لم نقل إنهما مخلوقان لبعضهما البعض، فلا بد، على الأقل، أن القدر قد وضعهما في طريق واحد، مع أن ما يعرفه عنها كان قليلاً: تمشية وسط الثلوج، دون أن يستطيع تحديد ما إذا كان تمشّى معها هي بالفعل، أم مع فتاة أخرى من فتيات تلك الفترة اللاتي كان، يدًا في يد، يشق معهن طريقه عبر الظلام. في البرد تطير ضحكة، جُمل قليلة، والعبارات كانت عمومًا هي هي لا تتغير. النهود العفيفة لفتاة في السادسة عشرة، تعريها أصابع عصبية في غرفة تحت السقف، حزنها لكبر

قدميها، ولخوفها من أن يكون الدافع إلى رغبته الغريبة هذه مجرد المرور بتجربة حب. لا بد أنها احتفظت في ذاكرتها بأشياء أكثر، أو على الأقل هذا ما تدعيه. كان باستطاعته أن يقضي ساعات وهو يجعلها تستعيد كافة التفاصيل وتكررها، وكأنه بذلك يقتنص شيئًا من السعادة الزائلة، ثم يسألها عما إذا كان يثقل عليها بخططه، بكل ما يحلم أن يفعله عندما يهجر أخيرًا قريته البائسة ويسافر حول العالم، أو عندما يصبح كاتبًا، وكأن هذا مثل ذاك، وكان يلح في سؤالها عمّا إذا كان قد حاول بحكاياته أن يترك لديها انطباعًا ما. وفي النهاية كان يريد دومًا أن يعرف ما إذا كان قد اعترف لها بحبه، وهي تنفي هازةً رأسها، ثم تنفجر ضاحكةً وتقول إنه أجبن من أن يفعل.

لا أعرف ما إذا كان اهتداؤه إليّ مجرد مصادفة، بدلاً من أن يختار شخصًا آخر يبدي تجاهه مقاومة أقل. هل يتعلق الأمر بأصلي النمساوي الذي كان في عينيه رابطًا بيننا؟ أم أنه كان يشعر حيالي بالثقة لأنه كان يحدس أنني مثله مُصاب بالآفة نفسها، أي أحلم بأن أكتب يومًا ما رواية تجعل الحياة محتملة، وتعوّض كاتبها - دون أن أستطيع القول: تعوّضه عن ماذا.

إنها بالطبع فكرة نمطية أن نرى في كل صحفي كاتبًا معاقًا، ولكنني كثيرًا ما صادفت أشخاصًا يبوحون لي فجأة، بعد عدة كؤوس من النبيذ، بدواخلهم ودوافعهم الأصلية، وبالكاد أسيطر على نفسي وأعضّ

على شفتي، شاعرًا بالارتياح أنني لم أكن البادئ بالبوح. هكذا وجدت نفسي متورطًا في حديث مستفيض مع باول عن كل تلك العبقريات المقبورة في أقسام الصحف.

حدث ذلك في الصباح بعد أن قضيت ساعة كاملة في قاعة "رايخسهوف" منتظرًا إحدى المخرجات لأجري معها حوارًا، ثم دخلت مسرعة متعجلة، وأزاحتني جانبًا بإشارة من يدها لن أنساها أبدًا. حاول باول أن يخفف عنّي، مُستقبلاً إياي في الدائرة المريبة.

"أنت بالتأكيد لا تريد أن تضيع حياتك في مثل هذه التوافه"، بادرني بالقول عندما حكيت له ما حدث.. "إذا دقّقت النظر، فستجد أن المسألة كلها مسألة ثقة بالنفس".

كان يعني ما قاله فيما بعد، إن لم يكن كنوع من التكريم، فعلى الأقل كحكم بالبراءة، ولكن وفق نبرات الصوت كان يمكن أيضًا تأويل ذلك على أنه لعنة.

"أنا شخصيًا أعتبرك كاتبًا".

ولم يزد حرفًا. ولأن الوقت كان قد حان للانصراف، لم أجرؤ على القول إنني في معظم الأحيان أجلس بعد لقاءاتنا في المنزل وأدوّن ما حكاه. كنت أنتظر الكثير من وراء محاولاتي الجريئة المتهورة حينًا، والمترددة الوجلة أحيانًا. ولكنني لم أجد شيئًا يمكن الاستفادة منه، وسأكون كاذبًا لو ادّعيت أنني تركته يتقرب مني

لأنه كان يثير لديّ انطباعًا باليأس، ولأنني اعتقدت أنه بغض النظر عما يفعل أو يقول، فسوف أربح في النهاية شيئًا. ورغم أنه كان يظهر لي أحيانًا بمظهر المقامر الذي لم يأتِ دوره بعد، أو الذي يلاحقه سوء الحظ، لذا - وبمجرد أن تواتيه الفرصة - يظل يضاعف من رهانه إلى أن يخسر كل شيء. تكفيني ملاحظاتي عن بداية تعارفنا حتى أدرك أن النتيجة لن تكون أكثر من ميلودراما.

على كل حال، لقد قابل هيلينا في أثناء رحلة إلى لندن قبل ستة أشهر. مجرد الطريقة التي قال بها إن الأمر لم يكن مصادفة أبدًا، أوضحت لي مرة أخرى أي نوع من القصص يتمناه. أفزعني احتياجه إلى مثل هذا الهراء. ما قاله عنها كان قصيدة عشق بكل معنى الكلمة، وكأنه لم يسمع في حياته أن الناس في كل مكان في العالم، في الطرق المطروقة أو المهجورة، يقابلون إن عاجلاً أو آجلاً أشخاصًا كان يعرفهم المرء يومًا، دون أن يفقد الإنسان توازنه بسبب لقاء كهذا. كان عليه أن يصغي إلى نفسه حتى يفهم هزة رأسي وتعجبي لما قاله. في البداية لم أفهم، لم تصدر عني رد فعل عندما قال إنها ظلت واقفة أمامه في محطة "بادينغتون"، امرأة شابة تكرر اسمه، ثم أخذ يحملق فيها، ولم يستطع أن يصدق أنها هي عندما جلسا في مقهى قريب، مادًا يديه على المائدة وممسكًا براحتيها، وكل منهما ينظر في عيني الآخر. ثم شرعا يستعيدان شيئًا فشيئًا

ذكرياتهما المشتركة.

ربما شعرتُ بالحسد، ولذلك لم أتقبَل هيامه بها وتحمسه البالغ وهو يصوّر جمالها. لم أحب النظر إليه وهو يغلق عينيه بمجرد أن يبدأ كلامه عنها؛ لم أرد أن تنزلق قدمي في طريق سعادته، في لعب العيال الذي يحكيه، لم أرد مشاركته اللعب، وأن أحملق فيه وأجد نفسي مُجبرًا على تخيل كلامها المحتمل.

"خمسة عشر عامًا يا باول، شيء لا يصدق".

كانت هذه إمكانية، النطق بجمل غير ملزمة لعبور فترة الارتباك الأولى، الصمت الأول، بينما قد تكون هي قد بدأت تمعن النظر فيه.

"ماذا فعلت طيلة هذه المدة؟".

لا أعرف إذا كان قد تردد، إذا كان يعرف الفيلم الذي أجاب بطله عن سؤال كهذا بالقول إنه كان ينام مبكرًا، واستنادًا إلى ردّه كان باستطاعة المشاهد أن يرسم صورة عن حياته كلها - لكنني أعتقد أن صاحبنا كان أقل شاعرية.

"كنت أنتظرك".

وكان لا بد أن تصدر جملة كهذه:

"ما هذا الذي تقوله؟".

ترتيب المدن التي التقيا فيها خلال عطلات نهاية الأسابيع التالية اتخذ شكل البرامج السياحية التي تُنظم

للأمريكيين للطواف بمدن أوروبا؛ وكأنه لا يشبع من جمع تذكارات الانتصار، وكأنه مجبر على قطع الكيلومترات تلو الأخرى كي يصل في النهاية إلى البداية - البداية المُفتَقدة معها، التي لم تقريبًا لحظة عن الاعتقاد بأنها تسللت من بين أصابعه وضاعت. كانت لديه الحكاية المناسبة لكل موقف، ولكن المهم بالنسبة له لم تكن الحكايات، بل إحصاء الأماكن التي كان موجودًا بها، وكأن البرهان على عشقهما هو الجهد المبذول فحسب، وكأن وقع أسماء المدن على الأذن وما أحاط بهما من هرج ومرج يكفي كإثبات. ومع ذلك كان يأتي دائمًا بعد الأوان، على الأقل هذا ما يدّعيه، فهو لم يعد شابًا. وكنت أشعر أنا أيضًا بالألم عندما أسمع كيف عذّبته إمكانية أن يكون مكانٌ ما جمع بينهما في السنوات السابقة دون أن يعرف، أن يكون قد سار في أحد الشوارع جيئةً وذهابًا، بينما كانت هي تسير في الجانب الآخر مارةً به، أو أن تكون عدة دقائق قد فرَقت بينهما. كان مهووسًا بتعداد كل تلك الفرص الضائعة، وبالتالي لم تكن ثمة جدوى في مساعدته. تولّد لديَ انطباع وكأنه في سباق لا بد أن يخرج منه خاسرًا، ليس فقط خاسرًا، بل كشخص يسير سيرًا متعرجًا، يخط شخبطة تائهة على إحدى الخرائط، خطوطًا ينبغي لها أن تمحو كل شيء كان، وبحضورها الدائم تحل هي محل ما كان. عندما يبدأ بالقول إنه دخل المدرسة في عام مولدها، ثم ينظر إليّ متعجبًا لأن كلامه لم يترك

لديَ أي انطباع، فقد كنت أصمت، إلا أن صمتي لم يكن يوقفه قبل أن يصل إلى الفندق الباريسي. لم يكن تقريبًا عن الكلام دون أن يروي لي حكاية كهذه، ويفيض بحماسة مفرطة في وصف عشائه معها في حي "ماراي"، وكيف أنه لم يحوّل نظره عنها طوال الوقت، لأنها بدت له غريبة كل الغرابة. ويتناسب مع تلك الحكاية السيجار الذي دخناه معًا، وكيف ضبط نفسه متلبسًا بالاستمتاع بنظرات الخدم في المطعم، دون أن يشعر بنفحة خجل، أو كيف أوقفته بعد ذلك في السرير، وأزاحته تقريبًا إلى الطرف، كتفاها قويتان؛ وحتى إذا كانت طريقته في الحكي غارقة في الإكليشيهات والصور النمطية، فقد كنت أستطيع تخيّل كيف وقف في نصف الليل عند النافذة ناظرًا إلى الخارج، كنت أسمع صوت المطر المتساقط، وخطوات امرأة متعجلة فوق أحجار الشارع وهي تبتعد إلى أن تتلاشى، كنت أرى الرجل في المنزل المقابل الذي كان يجلس على حافة البانيو مرتديًا الفانلة الداخلية، وكنت أعرف ما الذي يقصده بكل هذه الصور التي يستدعيها: كان لا بد للزمن أن يتريّث في تلك اللحظة تقريبًا وألا يستأنف السير، أنفاسها في عمق الغرفة فحسب، الشهيق والزفير الخافتان، يكاد المرء يسمعهما، وكيف نادت عليه، خيال أبيض وسط الظلام، على حد قوله.

المحطة التالية كانت هامبورج لأنها تعيش هناك. ربما يرجع ذلك إلى الولاء الذي يبديه تجاهها بلا أدنى

مقاومة، وعجزه عن اتخاذ قرار. إنه يترك التيار يأخذه كل مأخذ، حتى أنني تساءلت عما يفعله طوال اليوم بعد أن نفترق. لا يبدو أنه يعمل في شيء، وأنا لم أستفسر أبدًا، إلا أنه على كل حال لم ينشر شيئًا في الأسابيع التي كنا نتقابل خلالها، أو على الأقل لم تلفت نظري مقالة له. كما أنه لم يسافر مرة واحدة خارج المدينة. ولكن كل هذا لا يعني بالضرورة شيئًا، لأنه شرح لي ذات مرة أنه منذ فترة طويلة أصبح يجمع مادة تقاريره دون أن يسافر، لأنه سئم من الكلام المُعاد الذي يسمعه: من أن ما يكتبه كئيب ولا يريد أحد أن يقرأه. لذا فإنه يقتصر فيما يكتبه على المعادلة المألوفة: أناس لطفاء، بلاد مشمسة، وبعض الغرائبية، وبعض الفولكلور؛ هذا ما راح يكتبه في كل تقاريره، حتى لو كانت نهاية العالم غدًا.

ومع ذلك لم أُفاجأ عندما غاب بضعة أيام. قلت لنفسي: هذه هي نهاية الحكاية، لقد اختفى فجأة كما ظهر، ومن الآن فصاعدًا يمكنني قراءة الصحف في الصباح دون إزعاج. لكنني ضبطت نفسي وأنا أتطلع إلى الساعة متوقعًا أنه ربما يأتي بالرغم من كل شيء. لم أكن أفتقده فعلاً، ولكن عندما اتصل بي، قبلت دون تردد اقتراحه أن نتقابل في الأمسية نفسها، وعندئذ رأيت هيلينا لأول مرة.

تواعدنا في مقهى في ساحة اسمها "سوق الخيل". وصلت قبلهما، واخترت مكانًا جوار النافذة، ومن هناك

اكتشفتهما على الجانب المقابل من الشارع. على الفور لفت انتباهي التشابه بينهما، وكأن شقيقًا يسير مع شقيقته، وهو انطباع لم يتأكد مرة واحدة فقط عندما كنت أسير معهما وسط آخرين، بل مرات ومرات، نفس العينين، هكذا كان الناس يقولون، نفس النظرات، نفس الوجه المفتوح، أيًا كان معنى هذه الجملة. ورغم أن السماء بدأت تمطر رذاذًا، فقد بقيا واقفين، في حين غيرت إشارة مرور المشاة ألوانها مرات عدة، والناس يمرون بهم يمينًا ويسارًا. كان لديّ الوقت لأتأملهما. لم يكن واضحًا: هل تشاجرا؟ ولكنهما على ما يبدو لم يتبادلا الحديث، والانطباع المتولّد لديّ أن سلوكهما كان رافضًا، هو ينظر إلى الساعة، وهي تبدّل باستمرار القدم التي ترتكز عليها، إلى أن خطت عدة خطوات مبتعدة، ولحق بها وتحدث معها. لم تكن أكثر من غضبة سريعة. حملقت فيهما طويلاً، لذا انتابني الخوف من أن أكون قد تباطأت قبل أن أشيح بوجهي عنهما، وأن يكونا لاحظا حملقتي فيهما عندما اقتربا.

ربما لهذا تراءت لي عصبيةً طوال الأمسية. لم تفتح فمها إلا نادرًا، أما هو فكان يثرثر أكثر من المعتاد، متنقلاً على الدوام بين الموضوعات، لا يبدأ موضوعًا إلا وينتقل على الفور إلى آخر. لم يدع لها فرصة لتتحدث، والأسئلة القليلة التي وجهتُها إليها أجاب هو عنها. وعندما رنّ هاتفها المحمول وراحت تبحث عنه في حقيبتها، رمقها بنظرة واحدة، فأغلقته. عندما تحدثَت

معي مرة أو مرتين استخدمت كلمة "حضرتك"، ولأن صاحبنا كان منذ البداية أقل تكلفًا بكثير، فقد فاجأتني كلمتها حتى إنني فزعت، ونظرت إليها، ناسيًا للحظة وجوده، ومنعت نفسي من أن أتتبع نبضها وأمسك براحتها.

لا أعلم، هل كان صوتها ينم عن استهزاء، أم أنها كانت تشعر بالملل؛ على كل حال كانت تمطَ الكلمات مطًا، وكان استمتاعها بذلك واضحًا.

"حضرتك صديق باول؟".

عندما أجبت بنعم، بدت إجابتي إجابة تلميذ، ولكن كان من الممكن أن أجيب بلا، فهي لم تنتبه تقريبًا إلى ما قلت.

"إذن، حضرتك تعرف منه كل شيء عني"، أكملت حديثها.. "آمل ألا يكون كل ما قاله عني أشياء تافهة".

لم يقل صاحبنا في يوم من الأيام حرفًا عن أنه كان يشركها في أحاديثنا، لذا فوجئت، فضحكت مرتبكًا، ورحت أتطلع إليه إلى أن كررَت المحاولة.

"هل أنا كما تخيلتني؟".

لم تتح لي فرصة الرد، لأن باول قاطعها بخشونة قائلاً، إن عليها ألا تزعجني بدلالها المِغْناج، ثم عمل على ألا تبادرني بالحديث مرة أخرى. كانت أمسية تعيسة لأنه كان متوترًا، ولأنني كنت بالفعل أعرف عنها أكثر من

اللازم، كما أزعجني أن تقابلني الآن كبطلة حكاية لا أستطيع السيطرة على سيرها. على الأقل ضايقني اتهامه لها أنها تحاول أن تثير الإعجاب لدى كل من تقابله، وأنها كانت في كل مرة، بمجرد أن يخلو بها، تسأله بعد أن يقضيا عدة ساعات في حفلة مثلاً، كيف كان سلوكها، وأنها كانت دائمًا تقابل اقتراحاته بأن تفعل هذا أو تدع ذلك، بكلمة "طيب" أو "طيب، خلاص"، تقول ذلك بصوتها البريء، وعندما يتحدث عن امرأة أخرى، فإنها حتمًا تسأله، وبهذا الترتيب: هل هي شابة؟ هل هي جميلة؟ هل هي ذكية؟ لم أكن أريد أن أستمع إلى هذا كله، لم أكن أريد أن أسمعه منه هو تحديدًا، ولا كنت أريد أن أسمع كيف أنها بعد الدُش تلف المنشفة حول شعرها المبلول مثل عمامة، وتتمشى عارية في الشقة، ثم تدهن يديها بالكريم، وتسير كالنائمة، أمّا حركات فمها فتشبه كاتبة مستغرقة في الكتابة، كيف أنها تنعس وهي راقدة على بطنها، وقد مدت ساقًا وثنت الأخرى بزاوية قائمة، ثم تستيقظ وهي راقدة على ظهرها، مشبكة يديها فوق رأسها، وكأن ثقتها بالعالم ثابتة لا تتزعزع، لذلك فلا يمكن أن يحدث لها شيء. ربما قالت له ذات يوم: افعل معي ما شئت، لم يُخفِ عليّ ذلك، إلا أنني تمنّيت عندما رأيتها بفستانها الأبيض أن يكون صاحبنا "فَشارًا"، اختلق هذه الجملة كي يترك لديّ - بطريقة ملتوية - انطباعًا ما عن رجولته، ولم أستطع أن أخرج من أذني تلك الجملة الطريفة التي

سمعتها ذات مرة، أن على المرء ألا يخلط بين الأطفال والملائكة.

تعامله معها كان ساخرًا إلى حد أنني كنت أودّ لو أمسكت بخناقه وهززته قائلاً إنه يتعامل مع إنسان لا مع شخصية في إحدى المسرحيات. عندما قرع كأسه بكأسها للمرة العشرين، أو عندما كان يشعل سيجارتها، بدا لي وكأنه يقلد بطل فيلم أو مسرحية، وكأنه يريد أن يظهر لي أنه يعرف أن تصرفاته لا تختلف عن أي مخبول، وأنه يتصرف كما ينبغي عليه أن يتصرف عندما يساعدها على ارتداء الجاكيت أو عندما يفتح لها الباب ويرافقها إلى البيت. حيّرني أنها تركته يعاملها على هذا النحو، وفي كل مرة كان بصري يتجول بينها وبينه، دون رد فعل منها، وكنت أتساءل: هل يتسلّى بي؟

في النهاية، لم يتبقَ الكثير من تلك الأمسية: عيناها الرائقتان، شعرها الأسود الناعم الذي كانت من وقت لآخر تزيحه عن جبهتها، كركرتها وهي تضحك، والطريقة التي ودعتني بها بصوت عالٍ ينمُّ عن حماس بالغ:

"آمل أن أرى حضرتك مرة ثانية".

كانا قد نهضا، وشعرت أنا بالضيق عندما رأيت باول يومئ برأسه. وضع إحدى يديها على كتفه ولفّ يده على خصرها، ثم قادها ناحية الباب، وهناك التَفتَت مرة أخرى تجاهي، وكأنها لم تحسم أمرها: هل تضيف شيئًا

أم لا. بالتأكيد توهّمت ذلك، ولكن قبل أن يمضي بها بدت لوهلة قصيرة وكأنها تتوسل إليّ بنظرتها.

قالت له: "خلاص، خلاص، أنا ماشية".

بالكاد صرت أسمع صوتها.

"لماذا تلح هكذا؟".

لم يعد ثمة شك، إنهما يتشاجران خارج المقهى. تتبعتهما بعينيّ وهما يبتعدان، وهي تسير جانبه بكتف متصلب، بينما راح يتحدث معها مستخدمًا إشارات يديه. توقّف المطر منذ وقت طويل، والإسفلت - على امتداد البصر - كان قد بدأ يجف. بدا اختفاؤهما في غسق الغروب مثل صور تتلاشى في شريط سينمائي؛ تتوقّف الصور للحظة، ثم تتحرك قليلاً، ويمدّ هو يده إلى ذراعها ثانية، ثم يتركها مرة أخرى. لم تكن تفصلنا إلا أيام عن الاعتدال الشمسي، عندما يتساوى الليل والنهار، ولم أستطع أن أصد موجة من الكآبة والأسى هاجمتني عندما فكّرت في أنهما سيتصالحان قريبًا، وعندئذٍ سيتحدثان عني، أو لا يتحدثان، وسيعيشان حياتهما، وسأظل بعيدًا عن تلك الحياة. لم يعد ثمة زبائن في المقهى، ولم أكن بحاجة إلى النظر ناحية الخادمة لأعرف أنها تقف خلف البار وتراقبني. ولكن إذا مشيت فستنتشر الرائحة في الجو، الرائحة التي انبعثت يوم خُلق العالم، رائحة الربيع والبحر. كنت أود لو أستطيع ملاحقتهما، والسير خلف ظلهما إلى أن أصل إليهما، وبأنفاس مبهورة أقف أمامهما، دون أن أعلم ما

أريده.

فيما بعد لم أتحدث معه ولا معها عن شجارهما، وخصوصًا في المرة التالية عندما رأيته، بعد ثلاثة أو أربعة أيام، عندما امتلأت كل الصحف بتقارير عن وفاة ألماير. أتى مضطربًا إلى مقهى "أوتنسن"، ثم وضع كومة أمامي على المائدة، وقلب فيها ثم أشار إلى صورة له. لم أفهم قصده في البداية، إلا أنني نظرت إلى الصورة التي كنت أعرفها، يدفعني شعور بأداء الواجب؛ صورة لوجه ضاحك، نصفه في الشمس ونصفه في الظل، لقطة سريعة خاطفة لا تبوح بشيء عن مصير صاحبها، ومع ذلك بدأت أتفحصها وأتمعن فيها وكأن قصةً بأكملها مكتوبة فيها، دون أن يحول هو عينيه عني. همّ عدة مرات بقول شيء، لكنه لزم الصمت، وعندما وضع يده على الصحيفة وغطى الرأس بالكامل، أرسل نظراته متجاوزًا إياي، مكررًا الجملة التي لم يغيرها.

"انظر إلى الصورة"، هكذا كان يردد، وفي كل مرة كانت نبرات صوته المضطربة تعلو عن المرة السابقة.. "انظر إليها، من فضلك، انظر إليها".

على طول الصفحة كانت المفردات تتقافز أمام وجهي، بالمعنى الحرفي للكلمة، قرأت تعابير تتناسب مع مطلع القرن لا مع نهايته، ولم يزد على ترديد جملته في أثناء محاولتي لملمة أشلاء العنوان من تحت أصابعه.. *"خبير البلقان يلقى مصرعه في كوسوفو"*. لم أكن

متأكدًا بعد ما إذا كنت قرأت كلمة "مراسل حربي".

.. "انظر إليها".

لديه حق، لا بد أن يشعر الإنسان بالبؤس عندما يحاول التخيل كيف حدث ذلك، طلقات من كمين، لكنني لم أفهم لماذا لا يستطيع أن يهدّئ من روعه، إلى أن باح لي أخيرًا بالسبب.

.. "كان صديقي"، قال فجأة بصوت خافت.. "تكلمت معه بالتليفون قبلها بقليل".

حدث ذلك بعد ثلاثة أيام من بدء دخول القوات الدولية إلى المنطقة الصربية، الناس كلهم يتحدثون عن الكارثة، أمّا هو فكان يقف واضعًا يديه على كتفيه، ويسحب نفسًا بصوت مسموع، ثم يزفره مخنوقًا، ويفتخر بأنه كان قريبًا من ألماير. لم أرد تصديقه في البداية.

.. "صديقك؟".

لا بد أن صوتي كان أكثر سخريةً مما أردت.

.. "كنا على معرفة جيدة"، استدرك.. "هل تقصد أنني أدّعي ذلك، لمجرد أنه ميت؟".

يبدو أنه كان مهتمًا بتأكيد الفارق.

.. "ثم ماذا تعني كلمة صديق؟".

حكى لي أنهما معرفة قديمة، وأنه طيلة عام كامل كان يقابله بين الحين والآخر في أثناء فترة الدراسة في

إنسبروك، وبعدها - وقبل أن يأتي إلى هامبورج - لم يره إلا مرات معدودة؛ قلت لنفسي ها هو يحكي مرة ثانية حكاية تدور حول لقاء يتم بعد سنوات طويلة. كنت أحترق شوقًا إلى أن أسأله ما إذا كان متخصصًا في هذا النوع من الحكايات، إلا أنه لم يعطني فرصة للكلام.

.. "هو من نفس المنطقة التي نشأت فيها"، قال لي.. "ربما لا يفصل بيننا عبر الجبال سوى عشرين كيلومترًا".

دون تمهيد، عاد للحديث في اللحظة التالية عن اتصاله التليفوني الأخير معه، وكنت أراقبه في أثناء ذلك وهو يشد بيدٍ أصابعَ اليد الأخرى إلى أن تصدر عن المفاصل طرقعة. يبدو أنه أراد أن يقابله، ثم تمكّن من الاتصال به في سكوبيا، وتحدّث معه قبل أن ينضم حشد الصحفيين المتجمع في قاعة أحد الفنادق على الحدود بين مقدونيا وكوسوفو إلى القطار العسكري الذي سيقلهم إلى منطقة الصراع. كنت سعيدًا لأنه لم يحاول ادّعاء الأهمية، ولم يضف إلى كلامه المعلومات التي عرفها لاحقًا بعد وقوع الحادثة. في الحقيقة لم يعد يتذكر تمامًا عن أي شيء تكلّما، بالتأكيد عن أشياء تافهة لا تستحق الذكر، على حد تعبيره. لاحظت أنه كان يتعذّب لأنه لم يستطع أن يحكي المزيد عنه، سوى أنه اشتكى من الملل المنتشر بين زملائه الذين كانوا ينتظرون التحرك، العصبية والتوتر في الغرفة المختنقة بدخان السجائر، حيث يلعبون الورق على كل الموائد، والرهانات على بدء التحرك والخلاص من الانتظار

تتزايد بمرور الوقت. أثّر فيّ أنه كان قد اقترح عليه أن يسافرا معًا ليقضيا يومًا على شاطئ بحر البلطيق، وأنه لم يتكلم عن موضوعات تشي بالأهمية ناقشها معه، موضوعات تمنح معنى شاذًا لنهايته الوشيكة، لم يتحدث عن إحساس غامض بالخطر الذي يهدد صاحبه، ناهيك بالخوف ألا يعود.

الملاحظة العاطفية الوحيدة التي سمح لنفسه بها أمامي كانت أنه لم يستطع أن يتخلّص من الاعتقاد أن ألماير كان ينوي التوقف عن العمل بعد هذه الرحلة، وأنه لم يعد راغبًا في أن يرسلوه حول العالم إلى مختلف مناطق الحروب، مثلما حدث خلال السنوات الأخيرة، وأنه كان يستعد لاقتناص فرصة عمل في صحيفته تتيح له القيام بشيء أكثر هدوءًا، أو أن ينكبّ على شيء آخر تمامًا لفترة ما.

"يبدو أن الكيل طفح به"، نطق هذه الجملة بخشونة لم أعهدها منه.. "لو كان الأمر بيده، لتوقف منذ مدة طويلة".

وقعت تلك الجملة على أذني موقعًا رخيصًا حتى إنني رفضت أن أقبلها ببساطة: أن يموت تحديدًا في آخر مهمة له. بدا لي ذلك كأنه سيناريو فيلم مبني على حدوث المصائب لكي يغزو قلوب المشاهدين. حاولت أن أشرح له ذلك.

"ربما يصبح الإنسان مدمنًا، ولا يستطيع بعد مرور

كل هذه السنوات التي يرى خلالها أبشع الفظائع أن يعود إلى حياته القديمة، وكأن شيئًا لم يكن".

أنا شخصيًا لم أعد أهتم كثيرًا بما يُكتب في الصحف يومًا بعد الآخر، وما يرد بها من إحصاء لمواقع الهجمات في صربيا، حيث بدأ القذف بالقنابل قبلها بشهرين ونصف الشهر. وأعترف بأن التقارير المكتوبة عن المذابح في كل أنحاء كوسوفو لم تعد تهزّني، ولم يعد تكرار تلك التقارير يترك لديّ أي انطباع. ربما يبدو كلامي وحشيًا، ولكن بمجرد أن تُقصف بناية عامة في بلجراد أو عندما يُضرب جسر في نوفي ساد، أو مصنع أو معمل تكرير في أي مكان آخر، وعندما يذكرون القرى حول برشتينا أو في غرب المنطقة على حدود الجبل الأسود، وعدد الأشخاص الذين ذبحتهم فرق حكومية خاصة في منازلهم أو في أثناء الهرب، فإنني كنت أقاوم شعورًا حتى لا أرى في كل هذا مجرد لعبة مرعبة يفوز فيها الحاصل على نقاط أكثر رعبًا.

عندما ألقي نظرة على خريطتي الألبانية اللغة التي صورتها في مكتبة الجامعة، وعندما أقرأ أسماء أماكن مثل كروشا إه ماده، أو هوتشا إه فوجول، أو ماليشفا، أفكّر على الفور أنها من الممكن أن تكون أيضًا أرقامًا مكتوبة بالأحرف، تشير إلى عدد القتلى، هنا كذا، وهنا كذا، وهنا لا يعلم إلا الشيطان عدد المقتولين.

لكن هذا كله كان عديم الأهمية اليوم، لأن باول كان

يعود دائمًا إلى موضوع ألماير محاولاً ترتيب المعلومات القليلة التي كتبتها الصحف، الشذرات المنشورة عن الهجوم عليه وعلى مرافقه المصوّر الذي نجا بعد أن أصيب برصاصة اخترقت أعلى فخذه.

"الموضوع لا يريد أن يدخل رأسي، لماذا وقع ذلك تحديدًا لشخصين متمرّسين مثلهما"، كان باستطاعته النطق بهذه الجملة في كل لحظة.. "لا بد من أنهما كانا في طريقهما من كوسوفو إلى سكوبيا، ثم اصطدما بالحواجز التي تسد الطريق".

على ما يبدو قفز الاثنان من سيارتهما، وفي أثناء محاولتهما اللجوء إلى مكان آمن وقعا في مرمى النيران المتبادلة. راح يشرح لي ذلك كأنه خبير، وكأنه يعرف أكثر مما قرأ، أو ربما يرجع سلوكه هذا إليّ، وإلى صمتي الذي جعله يبدأ في الشرح والتوضيح المرة تلو الأخرى.

"يُقال إن الرصاص أصابهما من الخلف في أثناء الجري"، أضاف.. "ربما ما كان ذلك سيفيدهما في شيء، ولكن مما يثير العجب أن سيارتهما لم تكن مصفحة، وأنهما لم يرتديا الصدرية الواقية من الرصاص".

على حد علمه، كان السير في ذلك الطريق مسموحًا به، إلا أن الأمر لم يخلُ من تبادل إطلاق النيران في المنطقة، وكانت الشائعات تنتشر عن فرق تشن حربًا استنزافية، كما أن الطريق يقع على حافّة منطقة انسحاب كانت العناصر الموالية للحكومة ستُخليها بعد

عدة أيام. اكتسى وجهه بسمات المُحاضِر وهو يشرح لي هذه المعلومات، إلى أن قاطع نفسه في النهاية.

"كل هذا ليس مهمًا".

نظرت تجاهه وتجاوزته ببصري عندما أمسك بفنجاني وهزه - دون أن يلاحظ - فانسكب قليل من القهوة، وكنت متأكدًا أنه لم يقصد أن يترك لديّ انطباعًا معينًا عندما راح يكرر أن ألماير لم يعش بعد الحادثة إلا عدة ساعات. الاستماع إليه وهو يتحدث عن صراعه مع الموت، تكفي الكلمة في حد ذاتها، كاد يصيبني بالاختناق، لأن الطريقة التي كان يشكو بها عبثية ما حدث وعدم جدواه، خلت من أي افتعالية مسرحية. فريق من الأطباء ظهر في مكان الحادث في الموعد المناسب تمامًا، وكما يقضي منطق أغبى سيناريوهات الأفلام، على حد تعبيره، الإسعاف على حافة الطريق، النقل بهليكوبتر إلى مستشفى عسكري في مقدونيا؛ تحدث عن ذلك كله وكأن هذا ما يزيد النهاية عبثيةً وخلوًا من أي معنى، وكأن الأمر قد قُضي، ولذلك فإن الجهود المبذولة لا تعدو كونها تهكّمًا، مثلما يبدو السؤال عن كيفية العثور على ألماير بمثل هذه السرعة كاللكمة في الوجه، أو أن ممرضة بلجيكية، إذا صدقنا التقارير الصحفية، لم تفارقه لحظة واحدة.

بدا كل ذلك وكأنه يؤكد الصورة النمطية القديمة عن البلقان، أن على المرء أن يتقبّل هذه المنطقة كما هي، وأن ينظر إلى الكوارث هناك باعتبارها شيئًا طبيعيًا

يعجز المرء عن تفسيره تفسيرًا مقنعًا. تذكّرت فجأة - ولا أعلم لماذا - أنني سافرت بالسيارة في أثناء فترة الدراسة مع صديقة إلى اليونان. لفت انتباهي اضطرابها وقلقها في الطريق كله على طول الشاطئ، من ريبكا وحتى وصلنا إلى مكان ما خلف كوتور، اضطراب مصطنع تجلى في ربط شريط أبيض على الهوائي، وكأننا من العشّاق الذين يقضون شهر العسل ويريدون من كل الناس أن يعلموا ذلك، سلوك طفولي، وتذكرت الشعور بالانقباض الذي أصابني ولم يفارقني؛ شعور لم أستطيع أن أهتدي إلى سببه. ثمة صورة حفرت معالمها في ذاكرتي، شرفة فندق سيئة الإضاءة، هذا هو كل ما أستطيع قوله، موسيقى عاطفية مبتذلة تندفع مصلصلة من مكبرات الصوت، لا نزلاء غيرنا، وحولنا فرقة من خادمات المطعم ثبتنَ عيوهن علينا. كنّ في أحذيتهن الصحية وكأنهن حارسات في إحدى المصحات النفسية المغلقة. شعرت بأن هذا التخيل في محله، لكنني لم أدر آنذاك من أين أتيت به، وما الذي دفعني إليه.

حكيت هذا كله لباول، بينما أخذ هو ينظر إليّ دون أن ينطق، وكأنه يتعجب من أنني أتطرق إلى موضوع كهذا، لذا حاولت أن أبدو لطيفًا، وبدأت أكلّمه مرة أخرى عن مكان الحادث.

"لا أعرف أين هو بالضبط"، قلت له.. "ولكن إذا لم يختلط علي كل شيء، فقد مررت بالتأكيد قرب هذا المكان".

وكما توقّعت ابتلع الطعم.

"أنت كنت في كوسوفو؟".

طبعًا، لم أكن بحاجة إلى الإجابة عن سؤاله. دون أن ينتظر كلمة واحدة مني، رفع يديه وكأنه يحمي وجهه، ثم قهقهه عندما هممت بتقديم تفسير. عندئذٍ كان يريد أن يعرف متى كنت هناك، ولكن قبل أن أنطق حرفًا، قال وهو يمعن في التفكير، إن ذلك لا يمكن أن يكون إلا قبل الحرب.

"إذن المقارنة مستحيلة".

استراح عندما توصّل إلى هذه النتيجة.

"كوسوفو في السابق لم تكن كوسوفو"، واصل كلامه بعد برهة.. "كان من الممكن أن يحدث ذلك في أي بلد آخر تمامًا".

أخذته الحماسة إلى حد البكاء، وراح يتفاخر ويتباهى بقلب القارة الأسود. وعندما سألني عن صديقتي، حدّثته عن تلك الفترة، وأننا سافرنا من دون استراحة بعد أن تركنا الشاطئ، وأنها غدت فجأة هادئة تمامًا، ووضعت يدها على فخذي، ناظرةً إلى الأمام تجاه الشارع وكأنها تشعر بالخوف. وكلما مضيث في الحكي، تذكّرت أكثر فأكثر ما حدث، وكيف غرقت هي شيئًا فشيئًا في مستنقع الخوف بمجرد وصولي إلى مشارف الطريق المارّ بين القرى، وأنني كنت أقود السيارة شاعرًا بأن المسألة مسألة حياة أو موت، في حين كانت سحابة

من الغبار تهبط ببطء شديد خلفنا على التلال. ربما أزعجها الناس الواقفون على حافة الطريق، هكذا فكرت آنذاك، ولهذا طلبت مني - كلما أردتُ التوقف - أن أواصل السفر. حاولت أن أصف له تلك الأشكال التي ظهرت وسط المناطق المهجورة والمقفرة، الذين كانوا يطلعون من خلف الشجيرات دون أن نرى على مدى البصر أي تجمع سكني؛ أشكال لا يراها المرء إلا في الصور التي التقطت في بداية عهد التصوير الفوتوغرافي، الكآبة نفسها، والطريقة نفسها التي توحي بالازدحام وكأنهم مجبرون على شغل حيّز ضيق حتى لو كانوا وحدهم، الانطباع ذاته، وكأنهم خلعوا لتوّهم قبّعاتهم، ووضعوها بخنوع أمامهم، حتى لو كانت أيديهم فارغة.

كان من العسير مقاومة أفكار كهذه، وفي الوقت نفسه كان في هذه النظرة - التي يمكن أن نسميها صوفية - ما يثير خوفي. كنتُ سعيدًا لأنه لم يطلب توضيحات عن هذه النقطة، وأنه عاد للتحدث عن ألماير. أوشك النهار أن ينتصف، وكان عليّ أن أذهب إلى الصحيفة، إلا أنني بقيت وأصغيت إليه وهو يحكي كل شيء من البداية مرة أخرى. زبائن مشوا وحلّ مكانهم آخرون، وأمام المقهى، على الرصيف، كانت كل الأماكن مشغولة. كانت الشمس ساطعة، وعندما تحدّثَ تولد لديّ الانطباع وكأنه قضى حياته كلها في انتظار اليوم الذي يجلس معي فيه هنا حتى يستطيع أن يترك

بكلامه أثرًا فيّ. شعرت بالدوار من جرّاء ذلك، وكنت أودّ لو قاطعته، وكنت أتمنى لو أهملت مونولوجاته مثلما يهمل المرء غمغمة طفل، وعندما شرع يقول إنه سيكتب شيئًا عن ذلك، وإنه متأكد تمام التأكد أنها ستكون روايته الأولى، عندئذٍ شعرت بأن الحقيقة تختلط تمامًا بالخيال.

"هذه قصتي"، قال وكأن عليه أن يدافع عنها حتى لا أستولي عليها.. "مَن غيري يستطيع أن يحكيها؟".

وقعت جملته على أذني وكأنه يريد أن يشجّع نفسه، ورغم أن الأمر لم يكن يخلو من سقامة الذوق، أن ننظر إلى موت ألماير بهذا الشكل، وأن نتأمل حادثته من منظور الاستفادة الأدبية اللاحقة، حتى قبل أن يُدفن، فلم أعارضه إلا معارضة واهية. تنحنح، كأن الأمر ليس مريحًا بالنسبة له، وانتظرت لحظات متابعًا بعينيّ رجلين خارج المقهى يفرغان القمامة في عربة زبالة واقفة، وكيف أن الريح حملت معها بقايا ورق ورماد مُلقيةً بها على الدكك الخشبية، وكيف هبّ الجالسون وهم ينفضون ملابسهم. عندما لاحظت أنه يتتبع نظراتي، حملقت فيه، ورغم أنه هز رأسه موافقًا، فقد أدركت أنه لن يتعجّب إذا كنت قد نسيت عن أي شيء تحدّثنا.

"أنت بالتأكيد لا تصدّق ما يُقال عن الحبكة في الرواية"، قلت في النهاية.. "لو كان الموضوع موضوع

حبكة فقط، لكان الأمر سهلاً".

الضحكات التي كبتُها أصابتني أكثر مما لو كان قهقه عاليًا، وأخذت أنتظر تعليقًا منه يبيّن لي أنني شطحت كثيرًا بما قلته.

"هل قلت فعلاً حبكة؟".

كأنه ضبطني متلبسًا، هكذا شعرت، فلذتُ بالصمت.

"عندما أسمعك تتحدث عن حبكة، يبدو الأمر لي وكأنك تتحدّث عن فتات من الخبز بقي محشورًا في حلقك مانعًا عنك الهواء".

لم أكن قد حكيت له بعد عن الملاحظات التي أدوّنها فور اختلائي بنفسي، وكنت أودّ لو أستطيع لفت انتباهه إلى فقر المادة التي يستند عليها كاتب يدّعي أنه ألّف عملاً مستندًا إلى حكاية حقيقية، أو - وهذا أسوأ - أن الحياة هي التي سطرت هذه الحكاية، أيًا كان معنى هذه العبارة؛ بدلاً من أن أقول له هذه الملاحظات رحت أقول عبارات مبتذلة، من نوعية تلك العبارات التي يفتخر المرء بها لحظة قولها، لكنها تظل تطارده فيما بعد حتى يتمنى ألا يكون قد نطق بها يومًا ما؛ قلت له: "شخص ميّت لا يصنع رواية".

لحسن الحظ، لم تبدر عنه سوى هزة رأس متعبة، ولم يرد عليّ. وبدا عمومًا أنه فقدَ فجأة أي اهتمام بالتحدث في هذا الموضوع، وشرع يتصفح الجرائد ثانية، متعمدًا على ما يبدو أن يقلّب الصفحات بصوت

عالٍ، ومحاولاً ألا ينظر تجاهي، ولم يُنعم عليّ بين الحين والآخر إلا بنظرة عبر الصفحة. لم يصدر تعليقاته المألوفة في أثناء قراءة الصحيفة، ولكن قبل أن ينهض ويودعني، لمحت في وجهه - على ما أعتقد - تلك الابتسامة التي تنمُ حتمًا عن تفوق، ذلك الارتفاع الذي لا يكاد يُلاحظ في زاوية الفم التي تتهدل في المعتاد لديه عندما أُبدي أقل قدر من الشك تجاه ما ينوي فعله.

كان على كل حال مهووسًا بالرغبة في صنع شيء من القصة، لدرجة أن عائلة هيلينا أصبحت تلعب الآن دورًا في القصة. ورغم أنني لم أعد أعرف متى قال لي لأول مرة إن والديها من كرواتيا، فإنني أتذكر تمامًا أنه بات يذكر ذلك بمناسبة ومن غير مناسبة، وكأنها - إذا انتفت عنها هذه الصفة - لن تكون موجودة بالنسبة له. كان يستطيع أن يتكلم من دون مقدمات عن الأراضي الدالماتية، عن كارست أو فيليبت، وكأنه يتحدث عن أشياء غاية في البديهية، محاولاً إيجاد سلسلة من الأسباب والنتائج القهرية تبدو لي اليوم غريبة إلى أقصى درجة، أسباب ملفقة اصطفته هو وحده حتى يهتم بمنطقة البلقان. لم يكن ليخطر له على بال قبل ذلك أن يتحدث عن مثل هذه الأمور، أما الآن فإنه يطلق عليها بكل جدية "يوجو"، محولاً الشتيمة إلى اسم دلع لها. كما أنه جعلها تُهديه جواز سفرها القديم الذي فقد صلاحيته منذ مدة، بطاقة الهوية الاشتراكية، على حد قوله. كان يصفها بأنها ابنة مهاجرين، وكلما أبدت

تحمسها لشيء من الحياة اليومية، كان يبدأ - حتى يغيظها - في الكلام عن الجيل الثاني من المهاجرين وعاداتهم الغريبة، أما إذا عارضته مرة بحدة، فإنه يتحول إلى السخرية ويتهكم على عصبيتها قائلاً: أنتم شعب من المحاربين، هكذا سمعتُه يثرثر مرات ومرات. وربما كان هذا كله هذرًا لا طائل منه، إلا أنني كنت أتضايق لأنني لم أتدخل بصورة أكثر حسمًا وأدافع عنها، رغم أن الأمر لم يكن يأتي بنتيجة عندما أحاول بفتور أن أوقفه عند حده، إذ إنه كان يواصل كلامه ببساطة تحت عباءة السخرية، أو ملتمسًا العذر بأنها ستفهمه على النحو الصحيح. الغريب أنها كانت طويلة البال معه، وإنْ لم أكن مخطئًا، فقد لاحظتُ مرة يتيمة كيف ضيّقت من عينيها وقطعت ضحكتها، وكيف توقّفت وسط الحديث موجهةً إليه نظرةً أرعبته. حدث ذلك عندما أمسك عظمة خدها بين إبهامه وسبابته، ثم قال محولاً رأسه تجاهي: "سلافية، سلافية"، وكأن عليّ أن أصفّق له.

كان هذا عبثيًا، وما زال يحضرني كيف أطلق عليها "الضابط الأول" الذي يربط بين الواقع وروايته. بالطبع كان هذا أيضًا هراء، تكفي التسمية نفسها، ومع ذلك ازداد الأمر وضوحًا أمام عيني: ربما كانت التسمية صائبة جدًا. لقد استخدمها في البداية عندما تحدثّت عن منشئها، عن سنواتها الأولى لدى جدتها بالقرب من زادار، الصيف على البحر، أو ما علق في ذاكرتها من

حكايات والديها. حيّرني القدر الذي كان به يمزج كلا المستويين، كيف كان يخلط بين حياتها وكتابته بمجرد أن يهم بالعمل. وعندما أفكّر كيف كانت ثقته بأنه على الطريق الصحيح عندما وجد الرابطة بينها وبين الحادثة في كوسوفو، فإن كل شيء قبلها يتراءى لي محض مناوشات، وكأن أحاديثنا عنها مقدمة طويلة جدًا للحكاية التي يريد أن يرويها.

التقى ألماير مع هيلينا مرة واحدة قبل وفاته، وما حكاه باول لي عن ذلك كان عاديًا. على ما يبدو زاره مع هيلينا في صحيفته، ثم ذهبوا إلى الميناء وتناولوا المشروبات في مقهى أكّد لي عدة مرات أنه لا يتذكر اسمه، وكأن هذا يلعب الدور الحاسم. لم يقضوا معًا أكثر من ساعة، ومع ذلك كانت هذه الساعة من الطول حتى إنه كان يريد مغادرة المقهى في أثنائها، إلى هذه الدرجة كان التفاهم بين الاثنين قليلاً؛ ولكن عندما سمعته يتكلّم بهذه النبرة، فقد بدا لي أنه يريد أن يبرز أهمية دوره فحسب.

ربما كان دافع ألماير عاديًا عندما سأل باول عن زوجته، وعما إذا كان يراها بعد الطلاق أم أنه قطع اتصاله بها. سأله تلك الأسئلة عندما ذهبت هيلينا إلى التواليت، ولم يفعل ذلك إلا ليصوّره في اللحظة التالية كأنه "زير نساء".

"لا تستطيع أن تقلع عن ذلك!".

بالطبع، كان سؤالاً خبيثًا، إلا أنه - كما يقول - لم يرد عليه. كل ما فعله هو النظر إليه، وكأنه يعرف ماذا سيحدث بعد ذلك.

"يظهر أنك ما زلت تلهث وراء كل فستان"، كانت هي الجملة التالية التي رماه بها.. "لحسن الحظ جررت وراءك هذه المرة نعجة جميلة للغاية".

لم أرَ باول في مثل هذا الانفعال، ولكنه بمجرد أن استشهد بتلك الجملة، مضيفًا أنه سواء كان الرجل ميتًا أم حيًا، فقد كانت الجملة أكثر مما يحتمل، ثم قال مدافعًا، إن هيلينا لا تستحق مثل هذه المعاملة.

"أنت تعرفها"، قال وكأنه فقدَ فجأة ثقته بنفسه.. "ليست هي بالشخص الذي يُهان هكذا".

وهذا تحديدًا ما فعله ألماير، سألها عما إذا كان والداها يعلّقان لوحة الشطرنج فوق السرير، يقصد الشعار الكرواتي ذا المربعات الحمراء والبيضاء، وبمجرد أن ذكر تلك الكلمة، وبمجرد أن عرف مِن أي منطقة هي، كان واضحًا أنه عثر على فريسة، لأنه بدأ على الفور يمطرها بالفظائع التي ارتُكبت هناك خلال الحرب العالمية الثانية، وقد شعرت بمسؤوليتها الشخصية عما حدث، وشرعت تبرر موقفها. منذ البداية كان ممتعضًا من سلوكها، ربما بسبب ملابسها. كانت ترتدي جاكيتة سوداء ضيقة للغاية تلمع كأنها مدهونة، كادت لا تستطيع أن تتحرك داخلها عندما تحاول أن تمد يدها

إلى كأسها، لا بد أن حركاتها ذكرته بالحركات الآلية لدمية. ثم فقدت كل رصيدها لديه عندما سمع أنها تعمل في شركة من شركات الموضة، منذ تلك اللحظة كان هدف كلامه أن يحشرها في زاوية مبرهنًا لها زيف كل شيء في حياتها، مستخدمًا كلمات لا بد من أنها من مخلفات فترة دراسته الجامعية، بل لقد تفتقت قريحته عن فروقات بين المظاهر الخارجية والقيم الداخلية، دون أن يلاحظ أنه بذلك ينسب إليها شخصية مأساوية مؤثرة. العجيب أنها لم تدافع عن نفسها على الإطلاق؛ لأنه - أيًا كان ما تقول - لم يكن يعيرها أي اهتمام. وعندما قالت بكل سذاجة إنها تسكن في حي إبندورف، رد عليها بكل جدية أن هذا حي بورجوازي جدًا، وأنه يفضل حيًا أقل رقيًا. وعندما دفعته بيدها في كتفه وتوَسلت إليه بصوت تهكمي وطفولي ألا يتصرف هكذا، سحب ذارعه ولم يعد ينظر إلى وجهها.

أتذكر تمامًا أن باول قال إن طريقة ألماير كانت تفوح منها رائحة محاكم التفتيش، عندما سألها أين قضت عيد القيامة هذا العام. ردت عليه قائلة: على البحر في دالماتيا، في بيت والديها. لكنه ظل يلحّ عليها إلحاحًا شديدًا حتى رضخت في النهاية واعترفت باسم المكان بالضبط.

"هل تعرف بريموشتن؟".

كان سؤالها كالصفعة، وكأنها تشك في أنه يعرف

شيئًا عن وطنها.

الإجابة الوحيدة الممكنة كانت: "طبعا أعرفها:. ثم أضاف، وفق ما وصلني: "ليس هناك دليل سياحي يخلو من ذكر هذه المدينة التي تعتبر من النقاط الثابتة في أي برنامج سياحي ليوغوسلافيا".

بعد ذلك - حسب رواية باول - لزم ألماير الصمت، أما هي فضحكت لشطارته، ثم حملقت فيه، وقالت، دون الدخول في تفاصيل، إن بلدتها لا تبعد عن ذلك كثيرًا.

بعد ذلك واصل باول كلامه قائلا: "كانت متأكدة من أنها كانت تسمع أحيانًا في الليل الطائرات القادمة من إيطاليا في طريقها إلى بلجراد. صحيح أن بلدتها لا تقع على الطريق الجوي تمامًا، ولكن إذا كان اتجاه الريح مناسبًا فإنه تحمل دويها القادم من بعيد عبر البحر".

تحدث باقتضاب عن ذلك، و لم يسمح لنفسه حتى بهزة رأس عندما قال إنه تعجب من أن ألماير حاول أن يجرها في حكاياته الحربية.

"إذا كان هدفه أن يضعها في موقف محرج للغاية، فقد كان من الممكن أن يحقق ذلك عبر شيء آخر تمامًا".

إلا أن ألماير أصرّ على المضي في الكلام عن وجوده في ذلك الوقت في مقدونيا على حدود كوسوفو، عندما كانت هي لا تبعد عنه سوى بضع مئات من الكيلومترات، تقضي إجازتها في البلد نفسه الذي كان آنذاك بلدًا

واحدًا. منذ البداية كان يتحدث عن ذلك، وكأنها المذنبة في كل شيء، راسمًا صورة للآلاف من اللاجئين المشرّدين الذين وصلوا إلى المخيمات المنصوبة في بالسه، أو أي مكان آخر، ورجال الشرطة يقفون لهم بالمرصاد وبالعصي؛ بالمقارنة مع هذا المشهد كانت تبدو أيامها على شاطئ البحر خليعة داعرة. ثم مضى في رسم صورة لأولئك الذين زُودوا بأقل الضروريات، المحشورين الخائفين، وبمجرد وصول دفعة من اللاجئين الجدد كانوا يتوجهون إلى القادمين ويسألونهم عن ذويهم، ويمرون على الطوابير جيئة وذهابًا، وعلى شفاههم الأسماء نفسها لا تتغير. ثم تحدث عن الهدوء الذي كان يتمدد وسط الضجيج عندما يتراجع أحدهم بسبب ما سمعه، وتنفتح في الزحام فجوة؛ تكلّم عن الصراخ والبكاء الصامت اللذين كانا يعنيان الشيء ذاته، وحكى عن السيارات الجيب التابعة لمنظمات الإغاثة وهي تمرق كالسهم في المنعطفات وبين الأوحال، ولعب الأطفال عديمة الجدوى الملقاة هناك، حيث تفوح عفونة البول والبراز؛ الخوف الذي استولى على الناس لرؤية مدينة الخيام تتلاعب بها العواصف، وتوشك أن تجرفها مياه الأمطار، على حد قوله، أن تُمحى من الوجود محوًا عندما تثلج السماء. كان يرسم سيناريو الرعب هذا واضعًا مقابله أوقات العصر الخاملة التي كانت تقضيها على الشاطئ، وأمسياتها في المرقص ورحلاتها إلى براتش أو شولتا أو إلى أي جزيرة أخرى. ولم يتورع عن

استخدام الصور النمطية مهما كانت مستهلكة، فكان يتكلم عن أشكال بائسة يائسة فرت من جحيم لتجد نفسها في آخر، بينما تحيا هي في عالم لا تجد صُحفه شيئًا تكتبه لقرائها أهم من نزول أول السياح، شخص ألماني بالطبع، إلى المياه الباردة جدا وسباحته في البحر الأدرياتيكي، في نهاية مارس أو مطلع أبريل، بينما يجلس الناس في المنطقة أمام شاشات التلفزيون، يقرعون الأنخاب ابتهاجًا بأن أولاد العم في بلجراد قد نالوا نصيبهم أخيرًا، وفي الشوارع يتعانق الغرباء أو يرفعون أذرعتهم بعلامة النصر عندما تصل إليهم آخر أخبار الغارات الليلية التي شنتها الطائرات الحربية.

وفق ما سمعته لم يتوقف ألماير عن سرد مثل هذه القصص، ويبدو أن باول كان يشعر بالرضا لسماعه تعليقاته الجارحة لها، ولكنه سرعان ما ترك انطباعًا بأنه كان يود لو جعله يلزم الصمت التام.

"مع أنني أتفهم سلوكه الجنوني، إلا أن تطاوله عليها كان فظيعًا".

وافقته على رأيه.

"كان من الواضح أنه يعاملها وكأنها ارتكبت جرمًا في حقه"، أضاف.. "مع أنها لم تكن تعرفه على الإطلاق".

أعقب جملته بهزة من الأكتاف، ثم حكى أنهم أوقفوه ذات مرة في مكان ما في البوسنة في أثناء

تغطيته الصحفية، وتحديدًا على نقطة تفتيش كرواتية، ثم صوّب أحدهم رشاشًا ناحيته، وسلبوه، ثم تركوه مع مرافقه في منطقة حدودية، بلا سيارة وبلا أي شيء. قال ذلك وكأنه يقدم تبريرًا لسلوكه.

"تخيل أن تسلبك حفنة من السكارى كل شيء، ولا يتركوا لك إلا جلدك، كلهم يصرخون في وجهك دون أن تفهم كلمة واحدة". ثم أضاف: "لا بد أن ذلك فظيع. وعندما يدهسك أحدهم، ثم يتحدث معك بلغتك، فإن هذا لا يزيد الطين إلا بلة".

لا أعرف لماذا لم يلفت نظري آنذاك مدى انجذابه إلى ذلك الموقف الذي راح يرويه بمهارة. في كل مرة كان يضيف ويحذف، ورغم كل الفظائع التي يقشعر لها بدنه، كان واضحًا أن ما يرويه يدغدغ حواسه. الآن فحسب، بعد أن أدركت أن هذا الذي يستعصي على التصديق هو ما كان يدفعه إلى الاسترسال وإضافة مزيد من التفاصيل إلى الصورة التي يرسمها، اتضح لي تدريجيًا غرضه من سرد هذه الحكايات؛ فبمجرد أن بدأت أفهم تناقض ما يقوله، أدركت أيضًا المتعة التي يبدو أنه يشعر بها وهو يحكي. لم يكن لذلك أدنى علاقة بالحقيقة كما يعرفها، ولهذا كان يدفع بما يحكيه على الفور إلى آفاق اللاحقيقي، وأعتقد أن تحمسه كان يرجع إلى شعوره بحرية الحكي، إلى جهله الذي كان يترك كل الإمكانيات متاحة، إلى القدرة على التكهن، واختلاق قصص وابتداع أخرى في عملية لا تعرف بداية أو

نهاية.

"ثم تجد واحدًا يقف أمامك، نافخًا صدره، عمل سنوات في مكان ما بألمانيا، ويسألك من أين أنت، ولا تدري بأي شيء تجيبه"، هكذا عاد يتحدث من جديد. وفجأة بات صوته رتيبًا، لا يرتفع ولا ينخفض.. "وفي النهاية يظل يلوح طوال الوقت بسكين أمام وجهك دون أن تقريبًا عن الابتسام بشماتة".

ولأنني أخذت على غرّة، فقد صنعت له المعروف الذي ابتغاه وسايرته، وإنْ لم يصدر عني سوى جملة عرجاء. بغباء قلت له إنه ليس هناك فرق بين مكان وآخر و.. و.. إلى أن قاطعني.

"أخشى أنك مخطئ".

قالها وكأنه لا يطيق التناقضات.

"إذا ذكرتَ بالصدفة المكان الصحيح، أو إذا كان يحب الاسم لسبب من الأسباب، فإنه يقدم لك سيجارة، ويناديك بـ(زميلي)". ثم استطرد قائلا: "أما إذا كان حظك سيئًا، فإنه يحتضنك ويمسح أنفه في قميصك ويبلله بلعابه مثل كلب ضخم حزين".

ربما أتى رد فعلي على هواه تمامًا، إذ أنني صمت صمتًا يمنح الأهمية لما سيأتي، وكأنني أنتظر دوري، ثم قلت ما يتوقع سماعه مني بالضبط.

"وماذا إذا حدث شيء آخر؟".

لم يصدر عنه رد فعل مباشر، فأضفتُ: "نفرض أنك أخطأت".

"لا أعرف"، أجاب.. "فقط أتخيل أن عليك الاحتراس، إذا كانت حياتك عزيزة عليك".

كان بإمكاننا أن نواصل التحدث هكذا ساعات وساعات، بلا نتيجة. فيما بعد أدركت أن الأمر برمّته لم يكن يعنيه إطلاقًا، وأنه كان يجرب معي حوارًا دراميًا أو مشهدًا من روايته. كان غريبًا أن أراه هكذا، لا سيما أنه لم يكن يعرف عن الحدث أكثر مما حدث بالفعل، الباقي وليد خياله، اخترعه خصيصًا لي. ربما لهذا ترددت في أن أصدقه عندما حكى لي أنه أوصل ألماير آنذاك بعد لقائه بهيلينا إلى المنزل، وبناء على رغبته مرّوا بمطعم كرواتي في شارع شانتسن أو شولتربلات، حيث كانت شرذمة من الأشكال الغريبة مكومة على البار، أشكال لا يمكن أن نطلق عليها صفة غير البؤس. التلفزيون مفتوح أمامهم، وهم يحملقون في السيارة التي توقفت قبل لحظة شاعرين أن هناك من يترصدهم.

"وبهذا سجل بالطبع انتصارًا لصالحه"، قال باول.. "لا بد أن الموقف كان تأكيدًا لكل تحفظاته عن الكروات".

نظرت إليه متشككًا.

"كلام فارغ".

دون أن أفكر انزلقت الجملة من شفتي، فحاولت

في اللحظة التالية أن أخفف من وقعها:

"يمكنك أن تختار أي حانة تعجبك، وسترى نفس المنظر، طبعًا إذا كان يتردد عليها سكارى حقيقيون. ولكن، وكما تعلم، فإن هذا لا يشير أقل إشارة إلى مكانتهم خارج الحانة".

خشيت أن أكون قد أهنته، إذ إنه فجأة قام بعد هذا الحديث الطويل ورحل. ولأن الحكاية لم تفارق ذهني، تواعدت معه في ظهيرة اليوم التالي مباشرة في مطعم "مارينه هوف" في شارع "أدميراليتيت"، حيث كنت أنوي الذهاب وحدي لأكتب في هدوء. وهكذا تقابلنا هناك. ورغم حبي للأسماء الرنانة، لم أستطع أن أستلطف الناس هناك. كل شيء بدا لي متأنقًا جميلاً أكثر من اللازم. كانت تفوح من الموجودين رائحة الحياة الناجحة، وكأن ذلك في منتهي السهولة، مسألة جمع بسيطة؛ وأتذكر أنني، وأنا أنتظره، رحت أتفحصهم من الرأس إلى القدمين، وكأنني أجسد شيئًا مختلفًا عنهم تمامًا، شيئًا يطمح المرء إليه، أو كأنني نموذج الخائب، الصورة النمطية للفاشل الودود اللطيف، ومرة أخرى وقعت صريع التوهم بأنني لا أنتمي إلى أولئك الأشخاص. قبل ذلك دخلت محل أنتيكات على ناصية الشارع، وتفرجت على محتوياته، لكنني لم أجد شيئًا له علاقة بالموضوع، باستثناء كتاب مصور نُشر في بلجراد عن السكك الحديدية في يوغوسلافيا، وقد بهت وانمحى اسم وعنوان صاحبه. وجدت نفسي أضحك

عندما رأيت باول يحمل معه كومة هائلة من الكتب ومعها مقالات ألماير، كل شيء كتبه عن البلقان في السنوات الأخيرة، تحقيقاته الصحفية التي قرأتها منذ ذلك الحين مرات ومرات، محاولاً أن أجد طريقًا واضحًا وسط تلك المتاهة التي كانت تتسع كلما تجولت فيها.

ومع أن باول كان سيرحل صباح اليوم التالي إلى النمسا لحضور الجنازة، فقد أعطى انطباعًا وكأنه عائد لتوه من هناك. كان متعبًا شاحبًا، عصبيًا، لم يتوقف تقريبًا عن التدخين، وبمجرد أن يقول شيئًا كان يتطلع إليّ منتظرًا موافقتي. كان واضحًا أن نفوره من المكان فاق نفوري، وعندما أخرج أشياءه كان حريصًا على ألا ينظر إليها أحد، ثم أسهب في شروحات طويلة. إذا صدق كلامه، فقد استمر طيلة الليل يقرأ. كان يتحدث معي بطريقة تشي بأنه يتوقع مني أن أكون قد أعددت نفسي مثله، وكان يعطيني مجلدًا تلو الآخر، دون أن يحول عينيه عني، فأخذت أقلب الصفحات شاعرًا بالواجب، قبل أن أنحي الكتاب جانبًا.

أتذكر تمامًا أن بين تلك الكتب أعمالاً استعرتها فيما بعد منه، Black Lamb and Grey Falcon، مذكرات ريبيكا وست عن رحلاتها في البلقان خلال سنوات الثلاثينات، وعليها الإهداء التالي:

To my friends in Yugoslavia, who are now all dead or enslaved، ثم الجملة التي تبدو -

أمام الأحداث الأخيرة - وحشية في تهكمها: Grant to them the Fatherland of their desire, and make them again citizens of Paradise؛ وأتذكر كتابًا آخر عن تاريخ كرواتيا وعلى غلافه صورة لمدينة دوبروفنيك المحترقة تغلفها سحابة سوداء من الدخان، وعدد شهر أغسطس ١٩٩٠ من مجلة National Geographic، وكتابين يتناولان موضوعا مشابها Conversations with Stalin وHow we survived Communism and even laughed. تعجبت وتساءلت، كيف تمكن من إحضار هذه الكتب بمثل هذه السرعة، بل وبالطبعة الإنجليزية، وما زلت أتذكر كيف تهرب من الإجابة عن سؤالي، ثم اختلق شيئًا عن معهد للدراسات السلافية لم يكن متأكدًا حتى من وجوده في هامبورج، وفي النهاية غيّر كلامه قائلاً إنه عثر عليها في مكتبة في مكان ما في شارع "أم جريندل"، وأدهشني أنني لم أكن أعلم بوجودها، ثم بحثت عنها بعد أيام دون طائل، ربما لأنها غير موجودة على الإطلاق. كان يمارس معي لعبة "استغماية" سخيفة ظللت مدة طويلة لا أعي معناها، ولم أدرك السبب إلا عندما أخبرتني هيلينا أنها صاحبة الكتب، وتصورت أن ذلك لم يكن يتناسب مع صورتها لديه، ولا سيما الصورة التي يريد أن يرسمها لها في روايته، وكذلك الصورة التي كونها ألماير عنها: صورة إنسان يعيش اليوم بيومه، لا يهتم بأشياء مثل هذه، صورة

امرأة من عالم آخر تمامًا، لا شيء في رأسها غير مستحضرات التجميل وبرامج التخسيس والسياحة في عالم مجلات الموضة.

العجيب أن باول احتفظ بمقالات ألماير ولم يرد أن يطلعني عليها إلا الآن، وعندما أعطاني إياها أخيرًا تصنع تلقائية لم تنطلِ عليّ. عشرات من الأوراق، رزمة بأكملها من مقالات الصحف ونسخ منها، مرتبة حسب تاريخ النشر، وبمجرد أن تناولتها وقلبت فيها، لاحظت أنه وضع علامات، وكتب ملاحظات على الهامش، وجر تحت بعض الجمل خطًا، ومرّ عليها بألوان مختلفة لإبرازها. هذا ما يفسر زلة لسانه عندما تحدث عن وثائق، وعندما تناولتها، بدأ يفقد صبره كما توقعت، ولم يستغرق الأمر لحظات حتى قال تعليقًا لم يكن يستطيع على ما يبدو أن يكبته:

"الريبورتاجات تبدأ بتبادل إطلاق النيران على الحدود بين النمسا وسلوفينيا، وتنتهي في كوسوفو"، قالها بنبرات تمزج بين الرأي الشخصي والتصريح الرسمي. "مرّ على الحادثين نحو ثمانية أعوام، لقي خلالها مئات الآلاف حتفهم".

رد فعلي التلقائي على مثل هذه الأرقام هو الرعب، ولم يكن ثمة داع لأن يعرضها عليّ بدقة، لأنني كنت مستعدًا لسماع أسوأ الأنباء عندما أشار إلى الأوراق التي ما زلت موضوعة على ركبتي، وفجأة واصل كلامه

بصوت خفيض: "حصيلة هذه الأوراق هي نهاية يوغوسلافيا".

عدا ذلك كانت هذه الأوراق تعكس كل حياة ألماير الصحفية. وشعرت بالدوار للحظات عندما حكي لي أنه باستثناء فترة تدريب عملي لدى صحيفة أخرى فإن خبرة ألماير الصحفية كانت تنحصر في تلك المقالات التي أرسلها مما يُطلق عليه "بؤر التوتر".

"ولن تصدق إذا قلت لك ما الذي كان ينوي أن يفعله"، استكمل كلامه، ولم ينتظر سؤالاً مني.. "يمكنك أن تعتبرني خياليًا ومخرِّفا، لكنه كان فعلاً يريد أن يكتب".

لم أحاول إخفاء دهشتي.

"لكنه لم يفعل شيئًا آخر".

ما كدت ألفظ هذه الجملة حتى تطلع إليّ وكأنني تعمدت أن أسيء فهمه، ثم ما لبث أن قال محتجًا:

"أنت تعرف ما أعني"، ولم يزد حرفًا.

"سيان عندي إذا كنت تريد أن تسمع رأيي أم لا، ولكنني أعتبره أديبًا".

بدت الجملة وكأنها مزاح، بغض النظر تمامًا عن أنني لم أكن أحب كلمة "أديب"، وأن ألماير - بعد كل معلوماتي عنه - ربما يكون آخر من ينطبق عليه هذا الوصف. وعندما أردت أن أعرف كيف وصل به الحال

إذن إلى عمله القذر ذلك، تشبث باول بكلمة "أديب" كي يشعرني بخطئي.

هذا بالضبط هو باول. كنت أعرف أنه يحسن بي أن أصمت، وأن أتفرج عليه فحسب وهو يلوح بيديه في الهواء، موزعًا طعناته وكأنه في كل مرة يقطع رأس خصم خفي، ليدافع عن شرف صديقه.

"افهم ما تريد أن تفهمه، طالما تتخيل أنك أفضل"، قال في النهاية.. "ولكن قل لي من فضلك، مَن غيره كان سيتحمل كل هذا دون أن يشكو؟".

وعندما قال إن الأمر لم يكن مصادفة أن الضحية هو ابن فلاح من التيرول، كان لا بد أن أتحكم في نفسي حتى لا أنفجر بسبب فجاجة التعبير، وأدركت لأول مرة أن تعبيره يخفي وراءه عقدة النقص التي يشعر بها ابن الريف، وهي العقدة التي حدثتني عنها هيلينا فيما بعد. أدركت أنه يندب حظه شاعرًا بالظلم لا لسبب إلا لأنه نشأ في الأرياف، وأدركت مدى حقده وتخيلاته المنحرفة عن معنى الرجولة.

"من بين كل أولئك القردة المتأنقين الذين يزدحم القسم بهم، لا يمكنك أن ترسل قردًا واحدًا إلى الحرب". ثم أضاف: "أغلبهم سيفقد أعصابه لدى أول طلقة رصاص، وسيطير بسروال مبلول إلى بيته".

كان هذا كلامًا فارغًا، لكنني تركته يتكلم. إذا كان يريد أن يرى العالم كما يحب، فليفعل. بل إنه حتى لم

يخيّب ظني به، كل ما شعرت به هو نفاد الصبر، لأن آراءه السقيمة لم يكن وراءها طائل، وأخذت أنتظر أن يصل إلى نهاية حديثه.

لم أعد أتذكر بالضبط عن أي شيء آخر تكلمنا، لكنني أعرف أنه كان يريد أن يلفظ هذه المعلومة: أنه هو الذي لفت انتباه ألماير إلى الدراسة في معهد الصحافة في هامبورج، حيث درس بالفعل. كان يحكي ذلك بمزيج واضح من الفخر والاعتراف بالذنب، وكأنه بذلك مهد له الطريق؛ أي - وكما أخشى - الطريق إلى الموت أيضًا. هذه هي طريقته في التقرب من ألماير، وكما عايشتها في مرة سابقة. قلت لنفسي إنه الشعور الملح ذاته الذي يدفعه لإيجاد رابطة بينهما سيتخلى عنها فورًا إذا ذكرت له شكوكي حول ذلك؛ ولكنه سرعان ما يعود إلى المحاولة من جديد، ولا يني يكرر محاولاته حتى أشعر بالإنهاك وأدعه يفعل ما يريد.

كان يعتبر القصة ملكه هو، وهو ما اتضح لي مرة أخرى عندما طلبت منه في أثناء السير أن يترك لي مقالات ألماير إلى اليوم التالي حتى أستطيع أن أصورها. كان يود لو استطاع أن يرفض، إلى هذا الحد كان مرتابًا، وكان الخوف واضحًا جدًا في سؤاله: لماذا؛ الخوف من أن يفرط في شيء، وعندما وافق انتزع مني عهدًا أن أرجعها له في الصباح قبل توجهه إلى المحطة. وفي نهاية الأمر أتعب نفسه ورقّم الأوراق، وبينما راح يعدها بصوت عالٍ ويكتب على الحافة

السفلية لكل ورقة رقمًا ضخمًا للغاية، تناولت الورقة النقدية التي سقطت من كومة الأوراق، وأدرتها وقلبتها وحركتها أمام وجهه.

كانت ورقة بخمسمائة مليون دينار صادرة من جمهورية كرايينا الصربية في كنين؛ ولم يكن المبلغ العبثي هو وحده السبب الذي جعلني أشعر أن شيئًا شبحيًا ينبعث من هذه الورقة، وإنما أيضًا كيان تلك الدولة المشؤومة التي لم يعد لها وجود، وكأن الورقة مما يبيعه تجار السلع القديمة والتذكارات، مثل الشعارات والأوسمة والأسلحة التي خلّفها نظام إرهابي، نفس اللاحقيقة التي شعرت بها، ولم أستطع إلا بالكاد أن أتصور بشرًا من دم ولحم كانوا قبل خمسة أعوام يمسكون بهذه الورقة النقدية ويتعاملون بها.

"ما رأيك، هل كانوا يحاربون من أجلها؟".

كان سؤالاً بلا معنى، شعرت بذلك حتى قبل أن ألقيه؛ إلا أن باول تناول الورقة مني وضحك وهو يطويها بعناية ويضعها في جيبه.

"كل ما يشتهيه القلب"، أجاب مادًا ذراعيه على اتساعهما، وكأنه مذيع في أحد برامج المسابقات التلفزيونية.. "على ما يبدو كان بإمكان الناس في المناطق البعيدة تمامًا عن الساحل، ومع وجود العلاقات المناسبة، الحصول في أسوأ الأوقات وعبر كل الجبهات على سمك طازج من البحر الأدرياتيكي".

لم أعر هذه الجملة اهتمامًا خاصًا، لأنني لم أعتبرها جدية، ومع ذلك احتفظت ذاكرتي بها، لا سيما أنني بث أظن أنها صحيحة، ولكن بدلاً من الاستفسار عما يقصده، سألته إذا كان قد حصل على هذا التذكار العجيب الغريب من هيلينا. عندئذٍ ابتسم ابتسامة صفراء وأشاح بيديه، فقنعت بهذه الحركة إجابةً.

"لن تمسك في حياتها بشيء كهذا".

أتذكر جيدًا أنني ودَعته بعد ذلك بقليل، ومشيت على طول "السور القديم"، ثم قطعت "سوق دار البلدية"، ونزلت شارع "السور الجديد" باحثًا عن محل لتصوير المستندات، وعندما أخذت الترام من محطة "يونجفرن شتيج" حتى حي "ألتونا"، حيث كنت أسكن آنذاك، بدأت على الفور بالقراءة المتعمقة لمقالات ألماير. عندما وصلت إلى البيت اتصلت تليفونيًا بالجريدة وأبلغتهم أنني مريض، واعتذرت عن عدم المجيء في المساء، حيث كان من المفروض أن أنوب مكان محرر في إجازة. أعددت قهوة، وملأت بها الترموس، واستلقيت بالأوراق فوق الكنبة. غصت في عالم محموم، هكذا أصف شعوري، وبالمقارنة مع ما قرأته كانت أبشع كوابيس الطفولة شيئًا بسيطًا هينًا. عندما وصلت إلى الصفحة الأخيرة كان الظلام قد بدأ يرخي سدوله، وفوق أسطح البيوت المقابلة كانت السحب تترك فراغات زرقاء في السماء، وفجأة انتبهت إلى أنني لم أسمع طوال الوقت ضوضاء القطارات القادمة إلى

المحطة القريبة من بيتي، أو التي تغادرها، مع أن إيقاعها الرتيب هو الذي يقسم يومي في المعتاد؛ وفكرت في هيلينا، كان من الممكن أن أفكر في أي امرأة سواها، إلا أنني ركزت فكري فيها، بعد أن غلبتني تصورات عاطفية سخيفة: أن أكون قد نجوت معها من هذه الحرب، أنني أعود إليها بعد أن ينتهي كل شيء، أو - وهذا سيكون أفضل - أن أعود ببساطة، مهما بدا ذلك متناقضًا، لم أكن أريد أن أخوض مغامرة من أجل العودة مثل بطل من الأبطال العظام على شاشة السينما، كنت أريد أن أعود دون أن أكون قد رحلت أساسًا.

ليست الفظائع والشنائع التي قرأتها هي ما أصابتني بالارتباك والحيرة، وليست الأعمال الوحشية التي كان ألماير شاهدًا على وقوعها طوال تلك السنوات أو تلك التي سمع عنها، ولا صور القرى البوسنية المهجورة من البشر والتي حامت فيها كلاب راحت تنهش الجثث الملقاة بين المباني المدمرة. الأمثلة التي أحصاها كانت من الوفرة بحيث أنه لم يعد ثمة شيء يثير التعجب. كان من الواضح أنه ليس هناك حدود لما يمكن أن يفعله الإنسان بجسد أخيه الإنسان. كنت أندهش لما أفرزه خيال أناس كانوا عمومًا حتى وقت ارتكاب مثل هذه الجرائم "بيض الصحائف"، كما يقولون، أي متعة كانوا يشعرون بها عندما يُجبر سجين على عض خصيتي سجين آخر حتى يفصلها عن جسده ثم يأكلها أمامه، أو أن تُبقر بطون الحوامل، أو أن يُذبح طفل بين ذراعي

أمه ثم يضغطون على رأسها تجاه شعاع الدم المندفع، أو أن تُغتصب امرأة على مرأى من أبيها المحتضر. كان يذكر إلى جانب الأماكن المعروفة أماكن أخرى عديدة لم أكن قد سمعت بها، ناهيك أن أستطيع أن أتهجّاها، أو أن أميز بين القاتل والمقتول هناك. ومع أنه لم يكن ثمة شك في أن الرفاق من كنين وبانيالوكا وباله كانوا متقدمين في الإجرام بقليل على زملائهم، مثلما تفوق أعضاء ميليشيات بلجراد على خصومهم من زغرب وموستار - ولا نريد أن نذكر زملاءهم في سراييفو - فلم أحاول على الإطلاق ترتيب هذه الفوضى. ليس هناك نهر لم يمتلئ بجثث القتلى. كل مكان - هكذا بدا لي - سيدفع المرء في المستقبل إلى أن يتساءل عما يخبئه. ولكن، لم يكن كل هذا هو ما انحفر بكافة تفاصيله في ذاكرتي، على العكس، كلما أسهب ألماير في التفاصيل، تراءى لي أنها تمحو بعضها بعضًا، حتى بدت أبشع الجرائم وأفظعها في النهاية عاديةً ضمن ذلك الإطار.

قد يبدو كلامي تهكميًا، ولكن الرعب تجسد لي بالأحرى عندما كتب عن محركات الدبابات التي بدأت تدور في معسكرات الجيش مع بداية الصراع، هدير الدبابات المنذرة بالكوارث الذي كان ينفذ عبر الجدران، عندما كتب عن الزوارق الحربية التي كانت تجوب نهر الدانوب جيئة وذهابًا على طول الحدود الصربية - الكرواتية، وعن السفن في خليج شيبنيك، ظهورها البطيء من خلف الضباب تحت أشعة الصباح الأولى،

هدوء السفن التام قبل أن تبدأ في قصف المدينة. ما أثّر فيّ كان وصفه لمكان وقعت فيه مذبحة قبل عام من وصوله؛ وصفٌ لطبيعة ساحرة لولا طلقات الرصاص الفارغة التي وجدها. هذا المكان المسالم على نحو مثير للاستغراب هو ما جعلني أهز رأسي كلما فكرت في بشاعة أن يموت المرء هناك، بل ليس هناك أكثر بشاعة من أن يموت الإنسان في عز الصيف في منطقة تحف بها أشجار الزان والحور، ويفوح منها أريج البيلسان، منطقة تُسمَع فيها طقطقة حطب الشواء، وخرير الماء المنساب في الغدير، ويبدو تيار الزمن وكأنه توقف عن الانسياب. أيًا كان ما كشف عنه في تقاريره، ما بقي عالقًا في ذاكرتي كانت هذه الصور المتعددة: سيارة تبريد بيضاء تقف على حافة حقل امتلأ بالقبور.. الشاحنات تقل اللاجئين الذين رآهم يهربون في كل الاتجاهات، بالمعنى الحرفي للكلمة.. المشردون، آلاف، مئات الآلاف، أكثر من مرة قال عنهم إنهم غادروا ديارهم متعجلين، تركوا كل شيء في مكانه وهربوا، الطعام ما زال على المائدة، والغسيل على الحبل، كلام قد يبدو لدى تكراره مُختلقا، أصحاب الغرف على طول الساحل اليائسون الذين يشكون من غياب السياح، المرأتان العجوزان، المتشابهتان تمامًا كأنهما نسختان، اللتان قالتا له إنهما بعد العودة إلى قريتهما ستربيان ثلاثة خنازير مرة أخرى، وستصنعان أفضل أنواع الجامبون في كل دالماتيا، أو الأطفال المتسولون الذين

كانوا يركضون وراءه في أوباتيا وأماكن أخرى، ويزدادون عددًا كلما وزع عليهم حفنة من الدنانير أو الكونات[1].

في النهاية كانت الأعداد التي قابلها عبر السنين غفيرة: أناس من معسكرات مختلفة حكوا له ما حدث من وجهة نظرهم، جنرالات جيش استقبلوه بأريحية ولطف في قصورهم الصغيرة، أو بكامل الزي الحربي في ميدان القتال، كانوا يتصرفون وكأن الحرب نوع من أنواع التجارة، ليست أقذر من غيرها، رجال عصابات أو جنود ميليشيات يرتدون أغرب الأزياء ويفتخرون بأفعالهم المخزية، المرتزقة من نصف أوروبا، حارب بعضهم مع كل الأطراف، وأشكال أخرى من البشر، مقامرون، من يصفهم بالمغامرين يكون منافقًا. تحدث معهم جميعًا، زار معسكرات الأسرى الصرب والكروات، وهناك أدرك أنه لم يسأل النزلاء الأسئلة الصحيحة، لأن الإجابات كانت أوضح من الشمس، تحدث معهم ليصمت في النهاية - وكما كتب ببلاغة مؤثرة - إذ أنه لم يعد قادرًا على التفوه بكلمة واحدة، كل ما فعله هو أنه حوّل بصره خجلاً، بل إنه شعر حتى بالخجل لأنه حول بصره عن هؤلاء الرجال الذين بدوا من النحافة كالهيكل العظمي. ربما بدت تقاريره مُجمِّلة للواقع، أو مكتوبة لتناسب قراءه مرهفي الحس الجالسين في بيوتهم، إلا أنه حقق بها شيئًا ظل حاضرًا في كافة تحقيقاته الصحفية اللاحقة: الحيرة أمام ثرثرة السياح الذين

تحدث معهم، والذين بدأوا يظهرون على سواحل دالماتيا بعد الكارثة، ويسافرون بسياراتهم بين القرى الجبلية المدمرة، أو يقومون برحلات قصيرة إلى البوسنة؛ ومقاومة أولئك السياح المتفاخرين بأنفسهم الذين كانوا في فترة ما يأتون كل أسبوع تقريبًا من كافة أنحاء العالم، كي يشرحوا لأهالي المنطقة لماذا كانوا يتقاتلون ويذبحون بعضهم بعضاً؛ والتواضع الذي ينتاب من يعرف أكثر من اللازم، وفي الوقت نفسه لا يعرف شيئًا على الإطلاق، على الأقل لا يعرف شيئًا عن أسباب كل ما حدث، غير تلك التفسيرات المعتادة الرخيصة. وكان مما يثير العجب على نحو أكبر أن التوفيق كان يجانبه في مواقف عديدة، مثلاً كان يقحم على الفور "الأوستاشا" في الحديث، كما كان يلوك في فمه على الدوام كلمة "التشيتنيك"، ويؤكد أن البندقية ليست بندقية، بل كلاشنيكوف، لا سيما عندما تمسك بها امرأة، ويلاحظ المرء بين السطور مدى النفور والاشمئزاز الذي كان يولده ذلك لديه، أو أنه كان يحتسي مع الجميع على الفور كأسًا من السليبوفيتس، أكثر من عشرين مرة أحصيت ذلك في ريبورتاجاته. هذه مجرد نماذج، على سبيل المثال لا الحصر، ولكن عندما يقع فوق ذلك في شراك ما يُسمى "فتاة سراييفو"، وعندما يقتبس من دفتر مذكراتها - كراسة تحوي كتابات فجة استهلكتها كافة وسائل الإعلام في أرجاء العالم - فقرات تستدر دموع القراء، ويرفض أن

يسمع أن جملة كهذه - "عزيزتي ميمي، الوضع السياسي زفت" - لا يمكن أن تصدر عن فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، فلم يكن يسع المرء سوى أن يهز رأسه ويُذَكِّره بقول أحد قادة الحرب - وهي جملة استشهد بها هو نفسه - إنه يرفض كل الكلام الأخلاقي المبتذل، بل والأكثر من هذا استهزاؤه بكل الشكوك التي تُثار في زمن الحرب، قوله المأثور بأن تلك الشكوك مدعاة للضحك، ترف شاذ، ربما لا يقدر عليه أحد إلا الأغبياء والأمريكيون.

لذلك أردت في البداية أن أسأل باول عندما قابلته في الصباح التالي إذا كان قد لاحظ أن أجزاء من مقالات ألماير كانت مكتوبة على نحو سيئ، إلا أنه أشار بالنفي.

"هذا يرجع إلى تعليمات الصحيفة". ثم أضاف: "إذا أراد الصحفي أن يرضي الجميع، فغالبًا ما تأتي مقالاته في النهاية بعيدة عما حدث بالفعل".

بعد ذلك قال جملة غريبة:

"بعض الذنب يرجع أيضًا إلى المدرسين".

اعتبرت ذلك مزاحًا، فضحكت، إلا أنه كان أكثر جدية مما اعتقدت، أو ربما يكون قد أراد أن يمضي في اللعبة حتى نهايتها.

"في حصص التعبير والإنشاء في المدارس يلقنون أي تلميذ مشاكس أن عليه أن يتجنب بكل الوسائل

المتاحة تكرار المفردات". ثم أضاف: "والنتيجة أن أساتذة المترادفات يحذفون الكلمة المكررة ليضعوا بدلاً منها كلمة أكثر سوءًا".

في البداية لم أفهم ما يقصده، إلا أنه لم يستمر في هرائه، بل عاد يتحدث عن ألماير، ويبدو أنه كان يريد التكلم تحديدًا عن الشيء الذي لفت انتباهي.

"المرء لا يحتاج سوى إلى أن ينظر كيف ينفعل ويستخدم بسرعة مفردات القتل والاغتيال". وأضاف: "ورغم أنها مبررة في بعض الأحيان، فإن تكرار هذه الكلمات أمر كارثي، سواء حدث ذلك عمدًا أم إهمالاً".

كانت أمامنا نحو ساعة حتى سفره. كان الناس يترددون على كافيتريا المحطة، حيث التقينا قبل قيام قطاره بوقت كافٍ، بينما راح هو يستعرض الأسابيع الأخيرة في حياة ألماير، متعجبًا من أنه لم يترك مكانًا لم يقصده، حتى القرى المهجورة على طول الحدود مع كوسوفو، بدءًا من المعسكر المكتظ باللاجئين الذي كان يعذب هيلينا بالحديث عنه،، حيث كانت الطائرات الحربية تمرق أحيانًا فوق رؤوسهم. لخص ما عايشه، وحاولت أنا أن أتخيله وقد بلغ به الإجهاد غايته مع مصوره، وهما في المقاعد الخلفية في السيارة التي كان المترجم يقودها في شارع مليء بالحفر والمطبات. حاولت أن أتخيله وهو يتحدث مع مجموعة من الثوار على بار الفندق الوحيد الفخم في تيرانا، غريبًا بين

رجال يحدثونه بسرعة، ويشكون القمع الذي يعانونه منذ عقود، وقبضة أياديهم ترتفع فجأة في الهواء، وعلى أكمامهم نسر يبدو مُهدِدا، نسر أسود برأسين على خلفية حمراء. حاولت أن أرسم له صورة وهو يهيم على وجهه في أحد موانئ جنوب ألبانيا، إلا أنني رحت أحدق في الجموع المتزاحمة على أرصفة القطارات التي كانت تندفع من القطارات المكدسة، ثم تتفرق بلا هدف أو اتجاه، على ما يبدو، ولكنهم كانوا يتوزعون وفق قانون هندسي صارم في كل أنحاء المدينة. وكأنه ذلك حدث، قلت لنفسي، وعرفت في الوقت نفسه أن هذا هراء، وكأن تردده كله لم يكن يهدف سوى إلى وضعه في الزمان والمكان غير المناسبين، وهناك - كما سيقولون عندئذٍ - يلقى حتفه. كان صحيحًا ما قاله باول عن "الماقبل" و"المابعد" في مثل هذه الكوارث، كان محقًا في أن بإمكان المرء أن يقترب كما يحلو له من اللحظة التي يلفظ فيها شخص أنفاسه الأخيرة، ويُقصَر من الفترة الزمنية الفاصلة بين اللحظة التي يكون فيها لا يزال حيًا، وتلك التي يكون قد فارق فيها الحياة، ويظل يقلل هذه المسافة الزمنية إلى الحد الذي لا يعود المرء عنده يطيق فكرة أن يحدث شيء بينهما على الإطلاق.

ليس ثمة طائل من وراء الحديث عن ذلك، إنه مجرد تبادل للكلمات دون هدف أو معنى، وبالتالي لن يؤدي إلى شيء، لذا طلبت منه أن ننهي هذا الموضوع، وأن يشرح لي بدلاً من ذلك المعايير التي اتبعها لوضع

علامات على مقاطع معينة في مجموعة المقالات الموضوعة أمامنا على المائدة الصغيرة.

رد قائلاً: "لا أعرف. إنه أيضًا شيء غير مهم لأنني أعرف عن ظهر قلب أهم المقاطع في كومة الأوراق هذه".

حسب رأيه لم يكن فيما كتبه ألماير سوى نقطتين تجعلان للمقالات قيمة، وأدهشني أنه أطلعني عليهما.

"أنت تذكر الحوار الذي أجراه مع المحارب على الجبهة، وحكاية الصبي الألباني الذي لقي مصرعه في إحدى الهجمات برصاصات من الخلف"، قال لي ذلك وكأنه يقلّب الأمر من كافة أوجهه منذ مدة طويلة. "ربما تعتبر ذلك أمرًا مبالغًا فيه، ولكن عندما نعرف الطريقة التي لقي بها حتفه، فإن الحادثين كليهما يبدوان كالنبوءة".

حقًا، يمكن أن ينطبق كلا الوصفين عليه، رغم انفصالهما مكانًا وزمانًا؛ وصفه المكتوب في صيغة اتهامية لجريمة قتل وقعت وسط كوسوفو والمنشور مطلع العام، ولعبة السؤال والجواب في تلك المقابلة الصحفية التي اشتهرت وذاعت في كل الأرجاء، المقابلة التي أجراها مع أحد زعماء المحاربين الكروات، وهو شخص عبوس وطائش، وذلك قبل شهر من سقوط فوكوفار التي تخلى عنها رجاله بعد أسابيع من الصراع حولها.

كنت في الأمسية السابقة قرأت - وقلبي يزداد انقباضًا - عن الصبي الذي ظل ينزف في حفرة بالشارع حتى الموت. لا بد أن إصاباته كانت في البطن والصدر، هكذا قلت لنفسي في الصباح عندما رحت أقلّب في الصحف، ووجدت مقالة عن ألماير وإصاباته، في شبكة الأعصاب المسماة بالضفيرة الشمسية، كما كتبوا، رصاصات من مئات الأمتار أُطلقت من رشاش سريع الطلقات، وأن أحشائه تفتت وتناثرت.

"إذا آمنا بالخرافات فيمكن القول إنه اجتذب الكارثة إليه كمغناطيس"، تفوهت بالجملة مع علمي أنه من البلاهة قول ذلك. "لا يستطيع إنسان استباق موته ووصفه بمثل هذه الدقة مثلما فعل ألماير".

لكن باول أصر على الحديث عن المقابلة التي أجراها ألماير بالقرب من فينكوفتشي في السنة الأولى من الحرب، وقبل أيام قليلة من عيد الميلاد. تلك المقابلة كانت تصيبني بالرعشة كلما أعدتُ قراءتها. لكأنه تحدث مع قاتله اللاحق، وسأله عن شعوره عندما يظهر إنسان على حين غرّة في مجال تصويب بندقيته، ماذا يفعل عندما تكون إصبعه على الزناد ثم يرى فجأة رأسًا في شعرة التعامد ببؤرة عدسة سلاحه.

"لا بد أن الحادث الذي تعرض له في البوسنة وسُرق خلاله قد وقع له بعد ذلك بكثير"، قال باول. "ربما لم يكن قد استعد على الإطلاق لهذه المقابلة".

نظرت إليه متشككًا، لكنه واصل كلامه. "لأنه لن يورّط نفسه في موقف مريب كاد أن يكلّفه حياته في مرة سابقة".

كان التفسير في نظري أبسط من اللازم، فأجبته قائلاً إنه ربما يخطئ في تقييم ألماير، وإنه لا يعرف إلى أي حد كان ألماير مستعدًا لأن يقامر بكل شيء لاقتناص سبق صحفي.

"من الممكن أن يكون قد تغلب على شكوكه في وقت ما"، قلت له. "هذا يكفي لتفسير سلوكه".

من الواضح أنه تسلل مع مترجمه بتصريح خاص حتى خطوط القتال الأمامية التي كانت أحيانًا على مرمى حجر من الجبهة الصربية. رسم ألماير مشهدًا بائسًا لمجموعة من المنازل التي دمرت نوافذها، مع بضعة أشجار صلعاء، وحقل ذرة مغطى بطبقة رقيقة من الجليد وقد تناثرت في أرجائه على نحو فوضوي تمامًا بقايا نباتات مكسورة السيقان ومتعفنة، وإلى ذلك سيارة متفحمة مقلوبة، وأكياس الرمل المرصوصة في خط زجزاجي، ثم - كما كتب - السماء الرحبة القاسية. ولأول مرة كان يمكن ملاحظة مدى ما أصاب صدره من انقباض، وشعوره بالعجز التام عن التحكم في مجريات الأمور، وبأنه لا حول له ولا قوة. ومع أنه قضى الأمسية السابقة في التنقل من مقهى إلى آخر في زغرب مع واحدة من معارفه، فقد كان الرعب يسيطر عليه الآن،

وكأن هناك فترة انتقالية بعد فقدان الطفولة، من البلوغ إلى مرحلةٍ يُقصى فيها المرء عن البشرية، إلى هذا الحد كان مذهولاً من وجوده بين حفنة من الرجال الغرباء وسط أتون الحرب، شبان بعيون وقحة يجلسون حول المدفأة في مبنى بلا سقف، بينما يقف زملاؤهم في الخارج يحرسون المكان. بين الحين والآخر يخرج أحدهم لقضاء حاجته، مُحنيًا قامته وهو يخطو خارجًا من الخندق الذي يعلو حتى الكتف، ثم يسير أمام المدخل عدة مترات ليصل إلى كشك التبرز، ومن وقت لآخر تُطلق رصاصات تنمُ عن الضجر، هكذا سجل كل التفاصيل. ذات مرة سمع دوي قنبلة من بعيد، وكان دويًا يكاد يكون وديعًا، لم ينكمش أحد على نفسه، وبالدرجة نفسها من اليأس كان يصرخ ويقسم أن أولئك على الجانب الآخر كانوا جيرانه، زملاءه في العمل، كانوا يذهبون معًا قبل عامين للسباحة في نهر الدانوب، يلعبون كرة القدم، ويحتفلون بالأعياد صيفًا بعد آخر، بل - إذا لزم الأمر - يتزوجون شقيقاتهم. أدرك أنها تمثيلية عندما تناول أحدهم تليفونه واتصل بالجهة الأخرى - على حد قوله - ثم صرخ في السماعة "آلو"، و Hey, Čedo، "كيف الحال"، وصل صراخه إلى بعيد، أما مداعباته ومعاكساته فقد استمرت وقتًا طويلاً. ثم زاد صراخه حدة، إلى أن اندفع خارجًا وهو يزأر ويضج مُطلقًا خزانة كاملة من الرصاص وسط الغسق الذي بدأ ينتشر في فترة الأصيل.

المعلومات التي حصل عليها ألماير من زعيم المجموعة لم تكن - حسب وصفه - مفيدة. لم يقل شيئًا جديدًا مفاجئًا عندما اعترف أن الضغط على الزناد كان في البداية صعبًا، وربما كان التشبيه أعوجَ عندما قارن ذلك بفتاة تتمنع في البداية وتشعر بالحرج وهي تخلع ملابسها لأول مرة مقابل المال، غير أنها سرعان ما تعتاد ذلك ولا تعود تشعر بأي حرج، وفي النهاية تغدو عاهرة، وتتصرف على نحو طبيعي تمامًا وكأنها ولدت لتمارس هذه المهنة. وبغضّ النظر عن اعترافه أنه بعد المرة الأولى فحسب تمنى لو استطاع أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء، بينما كانت كل مرة تالية تبدو له وكأنها محاولة لمحو تلك الذكرى - غير ذلك لم ينتزع منه شيئًا ذا بال. ولم تكن هذه هي الكارثة، الكارثة كانت منحه - وهو القاتل المحتمل - الفرصة كي يضع نفسه في دائرة الضوء، وبدلاً من أن يحاسبه، يتيح له الفرصة ليثرثر كما يحلو له دون أن يتساءل عما إذا كان يسخر منه، دون أن يستوقفه ويستوضح منه ماذا يقصد بقوله إنه لن تقريبًا عن القتل بالجملة إلا عندما يصل رصيده من الرؤوس إلى عدد حبات المسبحة.

كان ذلك تشبيهًا لافتًا، لكن باول لم يقف تقريبًا عنده، وكان لا بد أن يبتذل صورة بلاغية من الكتاب المقدس ويحكي لي أنه نظر مرة واحدة في حياته في منظار بندقية، ومنذ ذلك الحين وهو يتمنى ألا يكون قد فعل ذلك؛ حدث ذلك في منزله، قبل سنوات، وكانت

البندقية لصياد وضعها على سقف سيارته، ثم أضاف أنه عندما رأى في المنظار ثلاثة أيائل ترعى في الجانب الآخر من الوادي، ساكنة تمامًا وسط العشب الذي وصل إلى خاصرتها، فقد كان ذلك إباحيا وداعرًا كالخطيئة، سواء كان المرء يحب استخدام هذه الكلمة أم لا. ما قصده من وراء ذلك بدا للوهلة الأولى فقط متناقضًا، ولكنه كان متسقًا ومنطقيًا كلما تمعّنت في الأمر، أعني أنه شعر بالصدمة عندما وقف هناك في نقطة المراقبة حابسًا أنفاسه، وفجأة أدرك أن الجنة ما كان لها أبدًا أن تكون جنة، لأن عيون الرب كانت تنتهك حرمتها منذ البدء.

لاحظت بالطبع أنه كان معجبًا بذاته، وبأنه يجرّب أمامي أشنع المبالغات. مشبكًا يديه خلف رأسه، وكأنه يصدق تمثيله تصديقًا تامًا، اتّكأ على كرسيه منتظرًا أن تجرفني موجة حماس، أو على الأقل أن أطلب منه أن تقريبًا عن هذا الهذيان. كان يتحدث بصوت خافت متطلعًا إليّ، وحتى أتجنب نظراته تناولت كومة مقالات ألماير وشرعت أقلب فيها من جديد، إلى أن وصلت إلى المقابلة الصحفية، فأخذت أتأمل الصورة المطبوعة معها. رأيت رجلاً يحشر بندقيته تحت إبطه بلا مبالاة، واقفًا مُباعدًا بين قدميه أمام حائط منزل تركت فيه القنابل آثارًا لا تُحصى. الشيء المراوغ في هذه الصورة هو أن وجه الرجل كان مختفيًا وراء الدخان المتصاعد من سيجارة، وبالكاد كان المرء يتخيل ملامحه

وتعبيراته. وقفته كانت مسترخية، وطاقيته الصوفية منحرفة قليلاً إلى الجانب وطرفها ملفوف لأعلى، ولذلك كان المرء يجد نفسه مرغمًا على تخيل نظرة ساخرة تطل من عينيه. فيما عدا القفاز الذي يغطي نصف أصابعه لم يكن يرتدي شيئًا مما يرتديه زملاؤه، تلك الأشياء التي كادت تكون إجبارية في هذه الحرب، لا حذاء رياضيًا، ولا بدلة رياضية، ولا نظارة شمس، لم يكن يرتدي شيئًا لافتًا، على العكس كان بسترته الجلدية المتهدلة وبنطلونه المكرمش المتكور عند الركبتين الذي اختفت أطرافه في رقبة الحذاء يبدو تذكارًا للمرء حتى لا ينسى أن حرفة القتل تجارة منتعشة منذ آلاف السنين.

شيء ما في الصورة كان قاطعًا، ومما أكد هذا الانطباع الجملة المكتوبة تحتها، صحيح بين قوسين، إلا أن ذلك لم يقلل من التهديد المنبعث منها، Bog i Hrvati، الله والكروات، كما يتضح من النص بجانبها، "سلافكو، شرق سلوفينيا، ديسمبر ١٩٩١"، وعندما حاولت أن أتصور الطريقة التي تحدث بها ألماير مع الرجل الغريب، خاطبني باول مرة أخرى.

"كانت تلك المقابلة مؤثرة بالتأكيد"، قال بنبرة بدت فجأة فظة. "لا يحتاج المرء إلا إلى أن يفكر فيما مر به من أحداث قبل ذلك".

ومع أنني بالطبع كنت قد قرأت بسرعة في اليوم

السابق وصفه لما حدث فإنني لم أدرك إلى الآن ماذا قصد بحديثه عن الأسرى المفترض تبادلهم بعد إجراء المقابلة الصحفية، ولماذا تعجب من ذلك.

"حسبما أتذكر لم يتحدث عنهم قبل ذلك، ويبقى السؤال بلا إجابة حاسمة: من أين أتوا هكذا على حين غرّة؟".

كما ورد في التقرير تحتّم على الرجال الذين اختاروهم لذلك أن يقفوا بأذرع مرفوعة متجاورين في صف واحد، وأن يسيروا في حقول الذرة إلى أن يصلوا بأمان إلى مجموعتهم، لكن باول لم يصدق ذلك على ما يبدو.

"إما أنه أساء الوصف، أو أن هناك شيئًا غير صحيح"، قال وكأن ذلك لا يغير من الأمر شيئًا. "النتيجة في النهاية واحدة".

على كل حال لم يكتب ألماير سوى جمل قليلة عن ذلك في مقالاته، كما أن النهاية أتت دون تمهيد عندما ادّعى أنه في خاتمة المطاف لم يعد يرى شيئًا ولم يسمع إلا ثلاث طلقات من بعيد بينها فارق زمني واضح، نهاية مفتوحة بشكل مفضوح، ولكنني مع ذلك اعتبرت أنه من التعسف أن يخترع الإنسان شكوكًا وأن يوزع اتهاماته بلا دليل.

"لا أعرف ماذا يعني هذا كله؟".

ساد الصمت، ولم يضحك باول عليّ عندما قلت

ذلك، إلا أنني لاحظت فجأة أنه تحكم في نفسه بصعوبة وهو يصوب إليّ بصره باهتمام ساخر.

"ربما يمكننا استكمال القصة"، رد عليّ دون اقتناع كبير. "هذه مجرد بداية، لن يجد المرء أفضل منها".

كان من الواضح أنه عاد يتحدث عن روايته، فلم أقاطعه، رغم أنني ما زلت أتذكر كيف بدا إصراره آنذاك غير مفهوم، هذا الشعور الملحّ الذي كان يجبره على العودة إلى الموضع نفسه دائمًا، وفي أكثر اللحظات غير المناسبة. من الظاهر أن الفظاعات التي قرأها لم تكفه، وأنه أراد أن يستفيد منها، وبالطبع لم يصل من خلال ذلك إلا إلى عكس ما أراد، لم يستطع أن يدع كل شيء كما حدث، كان يريد دومًا تجميل القصة لتناسب أغراضه، قلت لنفسي، ربما يضيف امرأة من اختراعه، امرأة ضلت طريقها في متاهة الحرب، والأفضل أن تكون المرأة أمريكية تحوّل - لمجرد وجودها - تقريرًا كئيبًا عن البلقان إلى حكاية مثيرة. طبعًا أظلمه عندما أقول هذا، ولكن عندما أفكر في الجهد الهائل الذي بذله كي يجد علاقة معقولة بين المقابلة الصحفية واغتيال ألماير في كوسوفو، والنظريات العبثية التي كان خياله يتفتق عنها، والتي تجلت ذروتها في افتراض أن الهدف من اغتياله هو التخلص من شاهد إثبات محتمل؛ فإنني لم أعد أتساءل إذا كان بالفعل يصدق ما يقوله، أم أنه كان يبالغ في هذيانه البعيد كل البعد عن أي واقع.

ما زلت أتذكر ارتياحي عندما أوصلته إلى محطة القطار، وعندما ودعته قبل أن يسافر. تمهل في الصعود إلى القطار، وأتذكر أن كلاً منا ظل صامتًا، وأن لحظات عديدة مملة في طولها مرت علينا وكل منا ينظر في اتجاه آخر حتى لا تتقابل عيوننا. قلت لنفسي عندئذٍ: كم هي متناقضة علاقتنا، وكم هي قائمة على الصدفة، وسألت نفسي فجأة عما أفعله هنا على الإطلاق. لم يتجاوز الأمر برهة، ولكن الرعب أصابني في أثناء وقوفه صامتًا بجانبي، الرعب من استسلامي وتورطي في هذه الحكاية. أعتقد أنها النظرة نفسها التي أوجهها إلى ذاتي، النظرة نفسها التي أسددها إليه، والنظرة التي أحملق بها أحيانًا في كتب مصورة تضم صورًا التقطت قبل عشرين أو ثلاثين عامًا، النظرة التي أنظر بها ربما إلى مجموعة من الناس تجلس أمام مقهى في الشارع، أو أناس ينتظرون الباص في غسق الغروب، أما رد فعلي فهو الإعجاب الخالص، الدهشة التامة من أن كل هذا قد حدث بالفعل ذات يوم، الدهشة أمام أكثر المواقف عاديةً، والرعب عندما أفكر في أنني عاجز تمامًا عن تصور ما كنتُ أفعله في تلك الأثناء.

كان لا بد أن أذهب بعد الظهر إلى الصحيفة، لذا توجهت من المحطة إلى المنزل مباشرة، تدفعني رغبة قاهرة في أن أدوّن على الفور أهم ما قيل في اللقاء معه. الأمر في عينيه كان بالطبع خيانة، إذا عرف ما أفعله. لكن هذا تحديدًا هو ما زادني حماسة، وأدركت

عندئذٍ أنه يتوجب عليّ الاحتراس حتى لا أرسم صورة بالغة السلبية له. عندها تذكّرت كيف قال إنه سيتوقف نهائيًا عن العمل للصحف، وإنه سيتفرغ تمامًا في العامين المقبلين لهذا الموضوع، وما زلت أشعر بالغيظ بسبب صياغة الجملة، واغتظت أكثر عندما سألته: من أي شيء سيعيش؟ فقال كلامًا ضبابيًا عن إرث ما، وفي أثناء ذلك - لا أعرف إذا كان عامدًا أم لا - انزلق للمرة الأولى أمامي وتحدث بلكنة نمساوية كريهة ومتكلفة.

في تلك الأثناء لم يعد موت ألماير موضوعًا يثير اهتمام الصحف. بعد حالة الهيجان التي تلت نشر الخبر، كثرت التكهنات حول المسؤول عن مقتله، هل هي المجموعات التابعة للحكومة التي كانت لا تزال موجودة في المنطقة، أم مجموعات المتمردين، أم ربما أولئك الذين أطلق عليهم قُطّاع الطرق - وهو وصف لا يمكن تصديقه - الذين ربما أوقفوا ألماير ومصوره أملاً في اصطياد فريسة سهلة، ثم دعوا الاثنين إلى ركوب سيارتهم متذرعين بأنهم يريدون أن يرشدوهما إلى مقبرة جماعية. تحدثوا عن قناصة، لكنهم في الوقت ذاته كانوا يتكلمون عن وابل من الرصاص، وحتى السؤال عما إذا كان الاثنان هدفًا لهجوم متعمد، كما حدث مع صحفيين أكثر من مرة في بداية الحرب في كرواتيا، بقي بلا إجابة.

الممرضة البلجيكية التي بقيت إلى جانب ألماير في ساعاته الأخيرة لم يكن لديها أيضا الكثير لتقوله، ولم

يخرج كلامها عن المتوقع في مثل هذه المواقف. امتدحت شجاعته، ولم تتوقف عن تكرار أنه لم ينطق بكلمة. بقية ما ذكرته كان قلة حيلة وتأكيدات، هي بلا شك كاذبة، بأنه لم يشعر بأي ألم، وأن المصور ما زال في حالة لا تسمح له بالكلام أو أنه يرفض الحديث مع الصحفيين، وأن الجريمة - جريمة القتل العمد - قُيدت ضد مجهول.

بين كافة التقارير التي وقعت تحت يدي منذ الحادث بدا لي أحدها غير مناسب على الإطلاق، وهو تقرير كتبه أديب سافر إلى كوسوفو في أول أيام الغزو. ليس لأن أول ما خطر على باله أن الحادث كان يمكن أن يقع له شخصيًا، وليس لأنه رسم صورة دراماتيكية لما حدث له عندما ضغط حارس صربي على زر أمان بندقيته في وجه الكاتب عند إحدى نقاط التفتيش، كلا، ما أزعجني كانت استنتاجاته وثرثرته عن الشعور الذي يصعب تفسيره، الشعور بمعايشة الحدث في أثناء وقوعه، وهو شعور ينبثق عن اختيار الخطر بمحض الإرادة. ضايقتني تلك الجملة المبتذلة أن على الكاتب أن يواجه على الدوام تحديات وجودية - على حد تعبيره - ولا سيما أن جملته جاءت مقرونة بالإعجاب بالذات، ما جعله يحول الحرب إلى ساحة تجريب لخبراته؛ ولم أستطع أن أتخلص من الشعور بأن كل ما يهمه هو شخصه، وأن يبرر - تبريرًا يصب في مجده وشهرته - سببَ عدم وجوده في منزله خلف مكتبه، في

المكان الذي قد يكون أكثر خطورة بالنسبة له. ضايقني سلوكه الذكوري المتفاخر، وخاصة أنه بدا محسوبًا إلى أبعد حد، فقد كان يمكنه العودة في أي لحظة، وهو ما ذكرني بالتباهي الجنسي الذي ينزلق إليه أحيانًا الكتّاب في مثل عمره بعد أن ينطفئ داخلهم سعير الشهوة؛ كما ضايقني زعمه أن الأدب العظيم لا ينشأ إلا في مثل هذه الظروف، شعار سخيف، كما ضايقني افتراضه أن الحياة بكامل بهائها وعنفوانها لا تبعد كثيرًا عن الأماكن التي يزورها الموت. الصورة المصاحبة للمقالة جاءت متناسبة تمامًا مع ذلك، وفيها ظهر رجل في نهاية العقد الرابع وأوائل الخامس، غير حليق كما يليق بمثله، كنت أود أن أراه عاريًا في نصفه الأعلى، يحمل على صدره حزامين متقاطعين من طلقات الرصاص، إلا أنه كان يرتدي إحدى تلك السترات بلا أكمام - لا بد أن لها اسمًا معينًا ومصممًا معينًا - التي تبدو كأنها صُنعت خصيصًا للرجل الأنيق في أوقات الأزمات، والمزودة بعدد كبير من الجيوب التي توفر مكانًا لأدوات الكتابة، وأيضًا - إذا لزم الأمر - لعدة قنابل يدوية. بدا الكاتب في عيني - رغمًا عني - شخصًا مثيرًا للضحك، وعذره اليتيم هو أنه لم يكن الوحيد بين أبناء حرفته الذي فعل ذلك، فما أكثر المغامرين الذين ظهروا خلال كل تلك السنوات، بدءًا من أولئك الذين أعلنوا أنفسهم مدافعين عن "السلافية الحقيقية"، الذين لم يرق شيء في أعينهم إلى درجة النقاء، طالما هم بمأمن عن العيش وفق

المبادئ التي يتشدقون بها، ووصولاً إلى تلك المتبرجة الشمطاء، تلك النيويوركية المشهورة في كافة أنحاء العالم التي جاءت إلى سراييفو لتعرض أمام كاميرات التليفزيون معطفها الطويل المصنوع من الفرو الذي يصل إلى الكعبين، والذي اخترقته رصاصة، وكأنها تعرض رمزًا من رموز الانتصار.

الأفكار التي لازمتني في ذلك اليوم ولم تتركني ثانية واحدة كانت ملتوية، وما زلت أتذكر أنني كنت مشتت الذهن في أثناء العمل، ولم أرد على التليفون عندما كان يرن، وأنني رحت أتفرج على المارة القلائل الذين كانوا يسيرون في الشارع أمام نافذتي، كيف كانوا يظهرون في مجال رؤيتي، ثم كيف كانوا يعاودون الاختفاء. ربما تكون هذه الفكرة عاطفية للغاية، إلا أن احتمال تعرضهم للإصابة أقلقتني، رجل بدين يتهادى في سيره ملقيًا جاكتته على كتفه، شابة بحذاء التزحلق، حركاتها حادة الزوايا، مجموعة من التلاميذ تناهت إليّ صرخاتهم، كلٌ منهم قد يُصاب في أي لحظة، وما زلت أذكر كيف شعرت فجأة بجرأتهم لاستغراقهم في أفكارهم هكذا، برهة واحدة تكفي، ويغيبون عن الوجود. كان عليّ أن أراجع عدة مقالات وأصححها، ولكن تشتت انتباهي حال دون ذلك، ووجدت عينيّ تنظران في الاتجاه نفسه، دون أن أقدر على تحويلهما عن الفرجة. وهكذا رحت أرسل البصر إلى أوراق الشجر المتشابك في الأمام، إلى قطع السماء التي برزت خلف

أوراق الشجر، ثم حوّلت بصري إلى الخلف في الزاوية، حيث يسير الآن بالتأكيد شخص على طول الرصيف، مستقيم القامة، لا يفقد ثانية واحدة في التفكير بأنه ربما يكون مراقبًا، ودون أن تَرِدَ على ذهنه فكرة أن يسرع من خطواته، أو أن يمر بأسرع ما يمكن من مدخل أحد البيوت إلى آخر.

عندما أردت الذهاب إلى المنزل كانت الساعة تقترب من السابعة. في الممر قابلت زميلة من قسم "المحليات"، ومن دون أن أكون قد فكّرت في الأمر سألتها إذا كانت تود أن تتناول العشاء معي، فوافقت. لم تكن المرة الأولى التي نخرج فيها معًا، وإن تباعدت المسافات الزمنية الفاصلة بين كل مرة، أحدنا - إما هي أو أنا - كان يتردد ويتملص، أما النتيجة عبر الشهور فكانت نوعًا من الحساب المفتوح بيننا، أكثر من أن تكون عهدًا لم يتم الوفاء به. وكأن الواجب يحتّم عليّ أن أعاملها بلطف ورقة، ثم أشعر بالإهانة لذلك، لأنني لا أتخيل شعورًا آخر، عندئذٍ أبدأ في تجنبها، لكنها كانت أضعف مني، وكانت ترحب بي عندما أقابلها بعد أسابيع، ثم أفاجأ بأنها لا تبحث عن أعذار، بل وتسعد برؤيتي.

لم أعد أعلم من منا بدأ تلك اللعبة البلهاء، أعني التعليق على لقاءاتنا في أثناء حدوثها، وكأننا أشخاص في مسرحية كتبناها بأنفسنا. كانت هي تفعل ذلك ببعض التحفظ، أما أنا فكان عليّ أن أمثل دور المندفع المتهور الذي لم أكنه. لا أفهم كيف كنا نبتهج عندما نظل

لفترة طويلة نكمل كل جملة بـ"قال" أو "قالت"، الأمر الذي كان في نهاية الأمر لا يزيدنا إلا إرهاقًا، وكأن المتكلم ليس أحدنا، أو كأننا نتحدث نيابة عن شخص آخر وبذلك نتجنب المخاطر. وعندما اقترحت هي أن نتوقف عن ذلك، كان الأوان ربما قد فات. ففي تلك اللحظة كنت قد امتدحتها مديحًا مريبًا، وقلت لها إنها في إحدى قصص الحب ربما لا تحمل اسمًا، وأتذكر تمامًا كيف شعرتُ بظرف ما قلت، مع أنها كانت في تلك اللحظة قد سئمت عبثي ومجوني، وأرادت أن تعرف ماذا أعني بذلك، وكيف قهقهَت ووصفتني بالمريض عندما سألتها - بدلاً من أن أجيبها - أي الأسماء تريد أن تختارها إذا تحتم أن تحمل اسمًا آخر.

ربما يجب عليّ أن أقول بلا لف أو دوران، إن اسم زميلتي مارلينا، وإنني هذه المرة بذلت جهدًا عظيمًا كي لا أرتكب الأخطاء نفسها، ولا سيما أنني ظننت أن الأمسية كانت جميلة، إلى أن تحدثث عن وفاة ألماير، عندئذٍ جاء رد فعلها غريبًا.

"شيء يجنن"، غمغمت بلا تركيز. "شاب في عمر الزهور مثله، وفجأة لا يعود له وجود".

كلامها أثار استغرابي وعجبي، صوتها الهامس، ووجدت نفسي أتطلع إليها دون أن أحرّك ساكنًا وهي تأخذ بيدي وكأنني بحاجة أكيدة إلى تعزية. سواء كان السبب يرجع إلى الطريقة التي تحدثت بها أم لا، لقد

كانت على كل حال مشهورة في الصحيفة كلها بمقالاتها التي تكاد في بعض الأحيان تقطر حنوًا وعطفًا، وكان عليّ أن أدرك في أي طريق أسير، إلا أنني ظللت أحملق فيها صامتًا دون أن أفعل أي شيء، آملاً ألا تدرك مدى ارتياعي. لم يخطر على بالي أي شيء آخر يمكن أن أقوله، وعندما تذكّرت أنها شاركت قبل سنوات في سلسلة مقالات نشرتها الصحيفة في ملحقها عن اللاجئين في هامبورج، وأنها كتبت عن فتاة من البوسنة، في الخامسة عشرة من عمرها إذا لم تخني الذاكرة، فتاة من ترافنيك، عندما تذكّرت ذلك لم أتردد في سؤالها عنها.

للوهلة الأولى بدت وكأنها لا تريد أن تتكلم عن ذلك، ثم تحدثَت بانفعال ورسَمت لي صورة للفتاة، وترددت في البداية: أترسمها بالأبيض والأسود أم بالألوان؟

"وهي بعد طفلة وجدت نفسها في الشارع".

خمّنت ما قصدته عندما واصلت حديثها قائلة إنها كانت في عيون رجال كثيرين خليطًا مفزعًا، براءتها من ناحية، وفي الوقت ذاته كانت تثير الانطباع بأنها خرجت من حرب لتدخل في أخرى، وكانت من السذاجة بحيث إنها كانت تتكهن بعواقب تلك الحرب.

"بالتأكيد كانوا يتنافسون عليها".

رد فعلها على هذه العبارة كان مستهجِنا.

"أخشى أن يكونوا قد فعلوا معها أشياء أخرى

تمامًا".

ثم ترددت وكأنها ليست علي بيّنة من أمرها، وكأنها تفكّر أنه من المحتمل أن أكون واحدًا من أولئك الرجال، ولبرهة راحت تحاول تصيد نظرتي دون أن تحسم رأيها، وفي النهاية أشاحت بنظرها عني. ثم قالت: "ويُقال إن هناك رجالاً شعروا بالشفقة عندما تذكر الفتاة أمامهم اسم وطنها، أو أحسّوا أنهم ضبطوا متلبسين، لذا ألقوا بعشرة ماركات أو عشرين ماركًا، فقط ليريحوا ضميرهم ويختفوا بعدها. إلا أن معظمهم تعلّقوا بها وكان يعودون إليها بعد كل مرة، دون أن يشبعوا منها".

أي عاهرة محترفة كان بإمكانها أن تختلق حكاية مثل هذه الحكاية، مؤثرة إلى حد القيء. إلا أن حكاية الفتاة كان بها خطأ واحد: كانت صحيحة. أبوها كان فعلاً ميتًا، أخوها فُقد في الحرب، أمّا هي وأمها فقد انتهى بهما المطاف إلى هامبورج، وسكنا في البداية في حاوية على إحدى السفن على حافة الميناء، ولاحقًا في شقة من غرفة واحدة بالدور الأرضي في مكان ما على الضفة الأخرى من نهر الإلبه. قطعت دراستها، وبدأت تتعلم مهنة، ثم عملت في أكشاك الوجبات السريعة، ولم تكن تتسلَم العمل في كشك حتى تنتقل إلى آخر، وهكذا انتهى بها الطريق - وقبل أن تبدأ حياتها - في ميدان الهانزا كإحدى المشردات.

بالتأكيد لم تحكِ مارلينا هذه القصة للمرة الأولى،

ومن بين كل ما ذكرته غاضبة، بقي في ذاكرتي بوضوح تام كيف قالت وهي تصرخ بالشكوى، إن حتى أبسط العمال كانوا يطلبون منها أن تناديهم بـ"حضرتك"، وفي الوقت نفسه يطلقون هم عليها "الطفلة" أو "الصغيرة" أو ما شابه.

"لن تصدق ما حكته لي عن أولئك الرجال"، أضافت. "أم أنك تستطيع أن تتخيل أن بعضهم لم يكن يريد شيئًا سوى رؤيتها تبكي؟".

من وقع المفاجأة وجدت نفسي أردد كلماتها:

"لم يكونوا يريدون سوى رؤيتها تبكي؟".

لم أكن بحاجة إلى النظر تجاهها عندما أجابت بنعم، كنت أعرف أنها ستصنع بفمها حركات شبيهة بتلك التي صنعتها قبل ذلك في أثناء الأكل، عندما ركّزت انتباهها حتى لا يلطخ أحمر شفاهها أسنانها، الفارق الوحيد أن تعبير وجهها كان ينم هذه المرة عن اشمئزاز. كان صمتها التالي محملاً بالرفض نفسه، وعندما لاحظت أنني أحملق في الآثار التي تركتها شفاهها على الكأس، تناولت منديل السفرة ومسحت الآثار بكل عناية وهي تلاحقني بنظراتها. ثم صبّت لنفسها خمرًا، وتعجّبت مرة أخرى للكمية التي شربتها في ذلك المساء، بينما أتت هي مرة أخرى على ذكر الفتاة، ثم تحدثت في عاطفية ما بعدها عاطفية عن صديقتها الصغيرة وزبائنها القذرين.

"الظاهر أنهم كانوا يوجّهون دائمًا نفس الأسئلة، عن الوضع في وطنها قبل الرحيل، وعما ستؤول إليه الأحوال فيما بعد"، استكملت حديثها. "لم يكن صعبًا بالنسبة لها أن تكتشف أن أولئك المتظاهرين بالإشفاق عليها، هم تحديدًا الذين يريدون رؤيتها تبكي، عندما يسألونها إذا كانت تريد العودة يومًا إلى وطنها".

بعد مرور ساعة كانت مارلينا هي التي تبكي وتنتحب مثل مجنونة، ثم دفعتني بكلتا يديها بعد أن تشبّثت بي، ثم شبّكت ذراعيها أمام صدرها، وكأنها تريد أن تتضاءل وتنكمش إلى أقل قدر ممكن، ولم تجب عن أسئلتي. رافقتها حتى المنزل، وقبل أن تشعل النور في الشقة قلت لها أن تخلع ملابسها، وسواء فكّرت في أثناء ذلك في مناوشاتنا المعتادة أم لم تفكر، لقد خلعت قطعة بعد الأخرى وتركتها تسقط على الأرض، ثم استلقت على منتصف السجادة في حجرة النوم، في المكان الذي اعتادت أن ترقد فيه، ولكن صامتة تمامًا، ودون أن تصدر عنها هذه الأصوات التي وددت لو أستطيع أن أسد آذاني حتى لا أسمعها. كانت الأصوات قد أمست نهنهة مكتومة لا تريد أن تنتهي، وتحت بصيص ضوء الشارع لمحت أنها أدارت رأسها، لم أتحرك، ثم غطّيتها ولم أنطق بكلمة حتى بدا لي أنها استغرقت في النوم بعد أن انتظم تنفسها فجأة.

بخط رديء وفي عتمة شبه تامة كتبت بضعة سطور على ورقة، ووضعتها بحيث تُرى بسهولة. كنتُ

على وشك المغادرة عندما قعدَت وتحسسَت بأصابعها ناحية الأباجورة بجانب سريرها. سقطت بقعة الضوء مباشرة أمام قدميها، ورغمًا عنّي خطوت جانبًا، وكأنني بهذه الخطوة أبتعد عن مجال رؤيتها. كنت خائفًا من أن توجّه لي السؤال: ماذا حدث؟ لذا حاولت أن أهدئ من روعها قبل أن تنطق حرفًا، لكن الفحيح الذي خرج من شفتي كان من الحدة بحيث إنني ارتعبت.

"حاولي أن تنامي"، سمعت نفسي أهمس، وشعرت بالبلاهة لأنني تحدّثت معها كأنها طفلة. "الأفضل أن تنامي".

لم أستطع أن أتجنب النطق باسمها، ورغم أنني لم أعرف ماذا كنت أريد بالضبط، فقد تمنّيت أن ترجوني أن أبقى. ولكن من الواضح أنها لم تفكّر في ذلك على الإطلاق، فانصرفت. شقتها تقع في حي "فنترهوده" بالقرب من متنزه المدينة، وعندما خرجت من المنزل كان الصباح المعتدل يعد بيوم غير واضح المعالم بعد، وفي السماء قمر كأنه يسير نائمًا. لو لم نكن في الصيف، ولو كنت كاتبًا يجنح إلى الخيال، لكنت بلا شك قد جعلت ماء نهر الألستر يتجمد لأسير عليه في طريق عودتي إلى المنزل كأعظم الدجالين. على الأقل هذا ما فكرت فيه وما كتبته عند وصولي إلى المنزل، وعندما أتمعّن فيه أجده بالطبع كلامًا فارغًا، لكنني انسقت وراء أفكاري التي حسبتها شاعرية، ولذلك تركت ما دوّنته كما هو.

ذكّرني ذلك في عبثيته ولامعقوليته بالكلمات التي تبادلتها مع باول عن هيلينا عندما كان قطاره يهم بالانطلاق، ووقف هو للحظات عند الباب وسد الطريق أمام الآخرين. كنت قد حدّثته عنها، وفجأة انتبهت إلى أن نظرته لي تغيّرت، أنه يتربّص بي وكأنه يتحداني. وقف ضاحكًا، ورفع يديه بطريقة مسرحية وكرر اسمها، ثم باستعراض خطا إلى رصيف المحطة، ليعود بعدها إلى مكانه، ومن هناك ركّز نظراته عليّ، ثم فوجئت عندما سألني عما إذا كانت هيلينا تعجبني، لذا أسرعت بالإجابة حتى يبدو السؤال بريئًا.

"لماذا تريد أن تعرف؟".

ليس هذا فحسب، بل وأجبت بالنفي، وعندما ظل منتظرًا مُلقيًا نظرة على ساعته ليعرف الوقت المتبقي على مغادرة القطار، صححت إجابتي وقلت: نعم.

"أي الإجابتين تفضل؟".

كان قد شبّك ذراعيه مرة أخرى فوق رأسه، وأمهل نفسه عدة ثوانٍ قبل أن يجيب:

"لا فارق عندي. كنقطة ارتكاز يمكن قبول الإجابتين".

كان هذا هذيانًا خالصًا. أحيانًا أعتقد أن المصير الذي رسمه لهيلينا في روايته كان محددًا وواضحًا: حتمًا ستموت. ربما يبدو أنني أبالغ عندما أدّعي أن بقاءها على قيد الحياة أمرٌ يرجع لي، ولهذا نويت أن

أكتب رؤية أخرى للقصة مقابل رؤيته. وأيًا كانت نهاية القصة، فالبداية - أعرف ذلك - هي أن أحكي عن مقابلتي الأولى معها، وأن أتجاهله ولا ألتفت إليه إطلاقًا، حتى أستطيع أن أتخيل بأي عيون رأتني، غير عابئ بما سينتج عن ذلك، حتى وإنْ كتبت حكاية عاطفية مبتذلة؛ البداية هي أن أقول إن شيئًا ما في نظرتها جعلني أتشبث بنفسي، وإن عليّ أن أجد لغة أخرى تمامًا، كلمات لم يستخدمها أحد، وأن استعملها بتلقائية الغزاة، بلا خوف من بكارتها وبهائها.

---

1 الدينار هو العملة المتداولة في كل من يوغوسلافيا ومقدونيا والبوسنة والهرسك، أما الكونا فهي عملة جمهورية كرواتيا. (المترجم)

الفصل الثاني
قصص ولقطات

إنْ لم تخني الذاكرة، قضى باول في المدينة بعد عودته من جنازة ألماير أربعة أو خمسة أسابيع، ثم أصيب في الحادث، وهي فترة بدت لي لاحقًا أقصر بكثير، وكأنها مجرد استهلال لشهور نقاهته التي أتخيل أنني قضيتها مع هيلينا، رغم أنني في الحقيقة لم أقابلها إلا مرات معدودة لا تزيد على أصابع اليد الواحدة إلا قليلاً. غير أنني أتصور أني حللت محله في قلبها عندما راح الأطباء يرقّعون جسده ويعلمونه ببطء المشي والكلام مرة أخرى. بإمكاني طبعًا أن أنظر في التقويم، لكن ذلك ليس مهمًا، المهم أنني لم أستطع تصديق أن الحادثة وقعت يوم كسوف الشمس تحديدًا، وليس هذا فحسب، بل أيضًا في منطقة لا بد أنها مثالية لمشاهدة الكسوف فيها، في مكان ما في أعماق النمسا. حكت لي فيما بعد في إحدى محاولاتها المتكررة لشرح ما حدث أنه غفا لثوانٍ على الطريق السريع، ثم أصبحت حياته، على حد قولها، معلقة في خيط واهٍ. أما هو فكان تهكمه خالصًا عندما تحدث ضاحكًا عن رحلته الأولى في ربوع يوغوسلافيا. قال ذلك بعد خروجه من المستشفى قبل عيد الميلاد بقليل، وبوضوح كان باستطاعة المرء أن يرى أنه لم يعد الشخص الذي كانه، لا يحسن النطق،

غير واثق الخطوة، وكأنه طفل يتخبط في العتمة؛ رأيت على وجهه آثار لطمات القدر واضحة، ولم يكن يمل من تكرار أن عليها أن تفرح لأنها لم تكن معه في السيارة.

ورغم أنه انقطع عن المجيء إلى المقهى في أوتنسن، فقد كنت أرى باول بين الحين والآخر في أسابيع الصيف تلك، قبل أن يقع له الحادث، لكن ذاكرتي لم تحتفظ بأي صور لهيلينا إلا نادرًا. الشيء الوحيد الذي ما زلت أتذكره بكل وضوح أنه ألحّ عليّ ذات يوم أن نذهب معًا للسباحة في إحدى برك شمال المدينة، وأنها كانت معنا، وأنني بذلت جهدًا فائقًا حتى أخفي انبهاري بها عندما سبحت مسافة طويلة، ثم خرجَت من الماء والقطرات تتساقط منها، ورشته ضاحكة ضحكة مجلجلة كادت تؤلمني، ولأن الشمس كانت في عيني لم أرَ إلا حدود جسدها ورأسها. لم أسألها أبدًا عن ذلك اليوم فيما بعد، وبالطبع لم أسأله هو، ولكن ليس من المعقول ألا تكون قد لاحظت أن هدوئي الظاهري كان محض تمثيل، وربما يعود السبب إلى أنني كنت أنتظر أن يستأنف باول الحديث عما دار بيننا على رصيف المحطة، وأن يسألني أمامها، فأجد نفسي في موقف حساب وتبرير، وأقول أي هراء، وتتعثر الكلمات على شفتي، أو لا أستطيع النطق بكلمة على الإطلاق.

غير أنني لاحظت سريعًا أن الأمر لم يشغله في

الحقيقة أبدًا، إذ أنه لم يقابل في أثناء الجنازة زوجته فحسب، بل أيضًا صديقة ألماير السابقة التي كان يعرفها منذ سنين ولت؛ كاتبة نشرت كتابًا ونصف الكتاب، ثم انتهى بها المطاف لتعمل سكرتيرة في اتحادٍ للكُتّاب في فيينا، وهناك كانت تعيث فسادًا. ولأن أصلها من إقليم جنوب التيرول، لم تكن تمل تكرار أنها، باعتبارها ألمانية اللغة في إيطاليا، لها كل الحق في أن تشعر بأنها جزء من أقلية. ورغم أنه لم يذكرها قبل ذلك أبدًا، فإنه بعد العودة لم يتحدث إلا عنها. الطريقة التي ينطق بها اسمها كانت وحدها تكفي لتشي بكل شيء، ثم صوته الرنان عندما يذكر اسمها: لِيلي Lilly؛ أما التهمة التي وجهها لها فلم تكن هينة، إنها في رأيه صنعت من مناسبة محزنة أليمة حدثًا لافتًا للأنظار، واتخذته ذريعة كي ترضي زهوها وغرورها، وتضع نفسها بكل ضمير مستريح في مركز الاهتمام.

لم أختبر أبدًا صحة أقواله، ولكن إذا صدق ولو جزء مما رواه، فقد كان سلوكها مقززًا إلى أقصى حد. حسبما قال فقد أزاحت أرملةَ ألماير من أمام القبر المفتوح لتحل محلها، راسمةً على وجهها - وكما يليق بامرأة مجربة لفت العالم - ملامح الوقار والهيبة، ومخبئةً عينيها خلف نظارة شمس سوداء، ثم تلقت العزاء منتحبةً باكيةً، وكأن عشر سنين طوال لم تمر على افتراقها عن المرحوم.

"بلغت من الوقاحة درجة أن أحدًا لم يعارضها"، قال لي. "على الأقل لم يجرؤ أحد على تجاوز قواعد الإتيكيت ومحاسبتها على ما تفعله."

كنا نجلس على الرصيف أمام مقهى في إبندورف. أرخى المساء سدوله، وسقطت آخر أشعة الشمس على الموائد المشغولة. عندما شرع يحكي كيف تعرف إليهما، ليلي وألماير، بدا فجأة وكأنه تخلص من انفعاله، ثم وقع صريع النوستالجيا، وإن ظهر في الوقت ذاته أنه غير مستريح تمامًا لأنه يروي ذلك، فراح يتأكد من موقفي قائلا: "ستسخر مني."

كانت مسابقة أدبية فاز فيها الثلاثة ببضعة آلاف من الشلنات، مسابقة مشؤومة على حد قوله، أما أنا فأتصورها واحدة من تلك المسابقات التي لا تضر وإن لم تنفع أيضًا، إلا أنه تحدث عنها وكأن عليه أن يخجل من اشتراكه فيها.

"آنذاك كنت ساذجًا غرًا. عندما رأيت في اليوم التالي صورة لنا في الصحيفة، اعتقدت أن الأمر أكثر من مجرد تشجيع بسيط"، قال ضاحكًا ثم احتضرت ضحكته على الفور. "لا أعرف إذا كنت لا أزال أحتفظ بالصورة، ولكن على ما أتذكر كانت ليلي تقف في المنتصف حاملةً في يدها باقة زهور بشعة في ألوانها كادت تحجب وجهها."

مسرح الأحداث كان مدينة إنسبروك. كان حذرًا فلم ينزلق إلى الوشاية، بل كان ساخرًا في لطف عندما أكمل قائلاً إن حياته البوهيمية الخالية من الهموم، والقصيرة جدًا، بدأت في ذلك اليوم، وفي أثناء تلك الفترة حاول للمرة الأولى في حياته أن يكتب رواية، ولسنا بحاجة إلى التأكيد على أنها فشلت بالطبع. بدا شارد الذهن وهو يرسم صورة لتلك الفترة دون أن يلجأ إلى التهكم كعادته، ومن الواضح أنه بذل جهدًا ليأخذ ذلك الشخص الحالم - هكذا صور نفسه - مأخذ الجد. وكأنه تعجب هو نفسه من الحنو الذي تحدث به عن ذاته، لذا كان يتوقف بين الحين والآخر عن الكلام وكأنه يصغي إلى الصوت الصادر منه كما يصغي الإنسان إلى شخص غريب. استمر الوضع هكذا، وفي النهاية لم يعد يتحدث إلا همسًا. قال إن مسكنه لم يكن يبعد كثيرًا عن مسكن ليلي وألماير الذي كان يقع على حافة الغابة في هوتينج ويشرف على المدينة. كان يذهب إليهما بعد العمل، وأحيانًا كل مساء.

"إنها أجمل فترة في حياتي". لم أعرف إلى أين أنظر عندما نطق بهذه الجملة متطلعًا إليّ. "كنت مفعمًا بالثقة تجاه كل شيء، حتى أنني أتساءل الآن كثيرًا: ماذا حدث منذ تلك الفترة؟".

لم أرد عليه بالطبع. وما قاله بعد ذلك كان مفعمًا

بالحنين. وصف لي كيف تعود أن يقف أمام شرفتهما بالخارج لحظات عندما يقبل الظلام، ويتفرج عليهما عبر النافذة وهما يستعدان لمجيئه: الكأس في اليد أمام الموقد، والسير جيئة وذهابًا بين المطبخ وغرفة المعيشة في أثناء فرش المائدة. أثار ما سمعته استغرابي، وتولد لدي الإحساس أنه كان يكفيه في بعض الأحيان لو ظل أمام الشرفة يتفرج عليهما، ويلاحظ كيف يتعامل الواحد مع الآخر، وكأن قدره حرمه من كل ذلك. كان في كلامه أيضًا بعض الدلال وهو يلخص دوره آنذاك، فهو يدعي أنه بمجرد دخوله الشقة كان يشعر وكأنه يأتي من البرد، وكان عليه أن يتدفأ أولاً، وأن ينعم بالنظر في عيونهما وما تشعه من رفق وطيبة، ثم يشرب شيئًا قبل أن يقدر على تبادل الحديث معهما، بعد قضائه اليوم أمام آلته الكاتبة. كانت أضواء المدينة تتلألأ من بين الأشجار، هكذا وصف لي، وعندما يفرغون من الطعام، كانوا ينتقلون للجلوس في الهواء الطلق، واستدعيت في خيالي ثلاثة أطياف تجلس متلاصقة في العتمة، وعندما سألته عن فحوى أحاديثهم، انتابتني الدهشة لأن كل ما بدر منه لم يزد عن هزة كتفين، ثم تذرع في النهاية بأن أي إجابة ستكون ثرثرة عاجزة عن التعبير عن البهاء الذي كان يتوج حتى أكثر الأشياء عادية.

أضحت حماسته فجأة متطفلة ومزعجة رغم كل

الضبابية في كلامه، عندئذ ساءلت نفسي عما يريد الوصول إليه، إلا أنه قاطع نفسه قائلاً إنني أود بالتأكيد سماع شيء آخر عن ألماير، لكنه في الوقت ذاته أعرب عن شكوكه حول استطاعته ذلك.

"لم يكن هناك شيء يستطيع الإنسان أن يستشف منه سلوكه فيما بعد"، قال مؤكدًا. "وهو ما يسهل بالطبع إلصاق الحكايات والخرافات به."

ثم قال لي: "يمكنك أن تختار ما يحلو لك، ويمكنك أن تتشبث بما شئت من تفاصيل، مثلاً أنه كان يمتلك دراجة نارية، ماكينة ثقيلة، وأنه كان أحيانًا يقودها عبر تعاريج الطريق السريع القديم لمجرد أن يشرب فنجان قهوة في مكان ما، يمكنني أن أركز انتباهي على نقطة أنه كان في قراءاته يختار أصعب الأشياء ثم ينهمك في دراستها، وكأن أي شيء آخر دون مستواه، كان يختار أصعب الموضوعات وأكثرها تعقيدًا، "جماليات المقاومة"[2] مثلا؛ كما يمكننا تضخيم ما روي عن عشق البنات له، وأنهن كن يركضن خلفه بالعشرات؛ لكن كل ذلك لن يأتي بشيء ذي بال، ولن يكون سوى تجميع لنوادر صغيرة لطيفة.

"سيّان ما يكتبه المرء عنه، لأنه - ببساطة - لن يتناسب مع مقتله اللاحق بالرصاص في كوسوفو".

في البداية، ظننت أنها محض كلمات يطلقها على

عواهنها. رحت أنظر إليه في جلسته وهو يهز رأسه مغلق العينين. ارتدى الجاكتة، وبدا فجأة في عيوني أكثر هزالاً مما هو في الحقيقة. أخرج نظارته الشمسية من الحقيبة التي يحملها على كتفه، ثم وضعها، لينزعها في اللحظة التالية. لزم الصمت تمامًا وكأنني غير موجود، مسددًا في أثناء ذلك نظرة تائهة إلى المارة الذين كانوا يعبرون أمام مائدتنا مباشرة. وأخيرًا قال:

"ما لا أستطيع فهمه هو الخواء والعبث. أحيانًا أشعر وكأن الحياة لا تكتسب معناها الذي يفرقها عن حيوات أخرى إلا بالموت."

وبهذه الجملة عاد مرة أخرى إلى ألماير الذي شيعوا جثمانه قبلها بأيام إلى مثواه الأخير. ثم خلت نبرات صوته من أي دفء عندما قال إن ما حدث لا يعدو في الحقيقة ما كان يخشاه، لأن ليلي كانت قد أثبتت لدى وفاة زميلة كاتبة بأنها معزية متعبة. ورغم أنها لم تستطع أن تستخرج من تلك الزميلة شيئًا، فإنها لم تفارق فراش المريضة لحظة واحدة، ثم تصاعدت حدة نبرته عندما قال: تعلقت بالمريضة بطريقة تنم عن وقاحة ما بعدها وقاحة، وكأنها كانت دوما أقرب الناس إلى قلبها، بينما هي في الحقيقة كانت تنتظر بفارغ صبر أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. بل الأكثر بشاعة هو أن المحتضرة رفضت أي زيارة منها رفضًا قاطعًا، لكنها في

أيامها الأخيرة لم تستطع أن تفعل شيئًا لتمنعها أو تمنع تلك الكائنات البائسة التي توافدت في أعقابها من فيينا إلى مستشفى بونتسن، الواحدة إثر الأخرى، نساء بلا ذرة حياء، كما وصفهن، وكأنهن ندابات، ثم رحن يتشدقن بأربعة أبيات مشينة عن وفاة الصديقة الحميمة التي اكتشفنها فجأة، الصديقة التي كن في أثناء حياتها لا يتوقفن عن الإساءة إليها والتشنيع عليها.

كان يتحدث بامتعاض شديد، كل كلمة كانت تخرج من فمه كالبصقة، وعندما رأيت نظرته أدركت أن إيقافه عن الاسترسال لم يعد ممكنًا. ولم يلبث أن أضاف قائلاً:

"حتى إن كانت عاجزة عن إنجاز أي شيء آخر، فهي قادرة على كتابة تأبين ينوء بالعبارات المزخرفة الفارغة، وقادرة كذلك على تسليط الأضواء على حزنها المزعوم. ولا يضايقها إطلاقًا أن تسير في أثناء ذلك على جثث الآخرين، بالمعنى الحرفي للكلمة".

ثم استطرد بصوت خافت لم أعد أسمعه إلا بصعوبة وقال إن الوضع لم يختلف هذه المرة أيضًا. وحتى إذا لم يتضح لي تمامًا سبب هجومه عليها، فإنني أتذكر تعبيرًا كرره مرات عدة، وما زلت أسمع صوته يقول إنها لم تدع مناسبة لم تؤكد فيها على أصلها الإيطالي على عكس المعهود منها. ورغم أنني لم أسأله أبدًا عن معنى ذلك، فإنني أحدس ما قصده عندما أفكر في وصفه لها

في الكنيسة قبل أن تلقي خطبة التأبين، إنها كانت تطوح رأسها إلى الوراء فيطير شعرها للحظات، وقبل أن تنطق بكلمة كان واضحًا للجميع أنها من المدينة المتحضرة، ولا يربطها بالحاضرين أوهى رابطة، وأنها تعطفت وتنازلت وأتت إلى هذا المكان فقط من أجل حفل التأبين. لا أستطيع الحكم على صدق كلامه، إلا أنه أكد لي أن سلوكها كان يجسد شخصية أدبية استهلكها الأدب، أي البطلة التي تهجر القرية التي ولدت بها، ثم تختار العودة منتصرةً أو نادمةً، هكذا تصرفت كأنها أحد شخوص رواية بائسة حافلة بكل ما يمكن تخيله من صور نمطية وأحكام ساذجة متطرفة، وبكل ما يلزم من توابل وتلفيقات تبعث على الضحك السطحي الذي يغطي على أي ألم.

تناسب ذلك تمامًا مع ما نطقت به، وإذا صح زعمه فقد تحدثت أمام المشاركين في حفل التأبين عن نفسها أكثر مما تكلمت عن ألماير.

"تحدثت معظم الوقت عن أنه كان يحثها دومًا على الكتابة، وكأن هذا هو أهم ما يُقال عند توديعه"، قال متهكما. "مع أن الحقيقة كانت شيئًا مختلفًا تمامًا، فقد كانت هي التي تقف عقبة أمام طموحاته الأدبية."

لم يكن من السهل تصديق ما يقول، لكنه أكد أن هذا ما حكته أمام قبره، وسواء كان الأمر مبالغًا أم لا، فإن

هذا يجسد حضورها وسلوكها على نحو أكثر بشاعة.

"أستطيع أن أتخيل ما تقصده"، قلت له. "ولن يدهشني إذا كانت قد اختلقت أشياء عن حادث مصرعه."

لكنه تجاهل ما قلته وكأنني سمحت لنفسي بشيء لا يحق لي. ثم شرع يتحدث عن أرملة ألماير، التي تركت الاحتفال كله يسير وهي جامدة هامدة. جرى المشهد أمام عيني، وتصورته وهو يسمع منها جملة واحدة لا تتغير كانت ترددها عندما يقترب منها أحد: "ليس في يدنا شيء نفعله". ولم يكن باول بحاجة إلى أن يؤكد أن الانطباع الذي ظهر على وجهها كان ينم عن المفاجأة أكثر من أي شيء آخر، وكأنها لا تصدق ما حدث، وتأمل أن يعارضها أحد أخيراً. شعرَ أنها تحت تأثير المهدئات، قال مستكملاً، ورأيتها أمام عيني امرأة شابة، شاحبة حتى الشفافية، نحيفة حدَ الهزال، وطويلة جدا، رأيت قامتها المستقيمة، استثناء بين الكائنات التي أحنى الحزن ظهورها والتي ظهرت أكثر رقة وحزنًا في أفضل ثيابها، كائنات بدت فجأة مفعمة بالخرافات، مثل أسلافها، لأنها تقف عاجزة أمام القدر الأسود نفسه. على الأقل هذا ما مر برأسي، بينما كان هو لا يزال يتحدث عنها، وجمح به غضبه فأطلق عليها بكل جدية مخلوقًا من كوكب آخر، ثم فجأة غيَرَ الموضوع، وأسهب في

الحديث - كما هو الحال في الجنازات - عن الطقس، وهل كان جيدًا أم سيئًا. بدا لي كل ما يقوله عبثيًا حتى إنني كنت أود أن أنهض وأتركه بمفرده.

في لقاءاتنا اللاحقة كنت أقاطعه بمجرد أن يشرع في ذكر ليلي، ومع ذلك لم يكن هناك مناص من سماع شذرات من الحكاية مرة أخرى. اقترحت عليه أن نجلس معًا في أي مكان على نهر الإلبه آملاً أن يشتت ذلك انتباهه، وألا يعود يتحدث طيلة الوقت عنها. لهذا انطلقت بالسيارة وخرجت من المدينة، ثم انحرفت متجهًا إلى النهر، وسرت بموازاة ضفته دون أن أخمن جمال الجنة التي وصلنا إليها. كان الاختلاف جديرًا بالملاحظة: بين كلامه المستفيض عنها الذي لم يمل تكراره، والعرايا الذين كانوا يطلعون من وراء الشجيرات، ثم يرمشون بأعينهم للحظات عندما تنفذ أشعة شمس الأصيل إليهم، وكأنهم أخطأوا في التوقيت، ثم يختفون مرة أخرى أو يسيرون متهادين بموازاة مياه النهر وكأنهم حيوانات لم تعرف أبدًا الحياة البرية.

في ذلك اليوم استفاض أيضًا، وللمرة الأولى، في الحديث عن زوجته. ومع أن حديثه لم يكن لحسن الحظ شكوى وبكاء، فلم يفتني أن ألاحظ كيف أربكه لقاؤه بها إرباكًا شديدًا. لما كنت أسأله عنها في السابق

كان يجاوبني بالصمت، أما الآن فقد انطلق يحكي بلا كابح. عندما لمحها لم يشعر بالأسى وحده، وإنما أيضًا بدهشة لا تنقضي، وتعجب أن المكان بجانبها ليس شاغرًا، وأن أحدًا آخر يشغله، وكأن وجوده في الحياة سيتلاشى إن لم يجلس جوارها. في هذه النقطة أيضًا كنت قد سمعت أمثلة لا حصر لها، إلا أنه بدا لي أقل حيلة من سواه وأكثر عجزًا، وكل ما رواه عنها كان يؤكد في الوقت نفسه الانطباع بأنه لا يمكن أن يكون قد عاش تلك الحياة معها التي يحكيها الآن. أبسط العبارات كانت توضح لي مدى تمزقه الداخلي؛ يكفي أن يقول إنهما كانا يملكان كلبًا، أو أي شيء آخر تافه، ثم يحدق أمامه صامتًا، أو أن يتساءل بعد برهة إذا كنت أستطيع تخيل ذلك، دون أن يأمل في إجابة عن سؤاله. قلت لنفسي: سيظل يجر هذا الحمل وراءه طيلة حياته، هذا الارتباك، حتى لو عادت المياه بينهما إلى مجاريها فلن يكون هذا ما يريده أو ما كان يعيشه، بل سيكون برهانًا آخر على أن حكايتهما قد انتهت نهائيًا.

لم يتوقع أن تأتي إلى جنازة ألماير، وعندما رآها هناك فوجئ بتعاملها غير المتكلف معه، حتى وإن لم يستطع أن يطرد من رأسه فكرة أن حالها من دونه أفضل. حتى قبل أن يراها، شعر بنظراتها مسددة إليه، ثم اكتشف عينيها، بريقها، لم يجد كلمة أخرى، وما لبثت أن أقبلت عليه، خطواتها كعهده بها، واسعة بعض

الشيء، مستقيمة، كما بدت له، ومع ذلك متهادية. كان عليه طبعًا أن يحتضنها عندما وقفت أمامه، لكنه لم يحرك ساكنًا، وتصرف على النحو الخاطئ الذي طالما لامته عليه، غرق في حيرته التي تملكته فجأة، ولم يفعل شيئًا سوى الحملقة الدائمة فيها.

أتخمني بحديثه عن ذلك، وكأنه يتحدث عن شخص آخر لا أعرفه، ولاحظت أنه يرسل بصره عبر المياه، إلى الأمواج التي كانت الرياح القوية الآتية من الاتجاه المعاكس للتيار تدفع بها إلى الضفة.

"وقفت هناك وهي تهز رأسها بالرفض"، استطرد دون أن يرفع بصره إليَ. "مرت برهة إلى أن لاحظت أنها لا تنظر إلي، بل في اتجاه المتوفى، وأنها تهز رأسها حسرةً على نهايته الحزينة."

حسب روايته لم يكن من بين الحاضرين كثيرون سواها يعرفون ألماير معرفة شخصية، وبينما راحت تهمس باسم ألماير الأول، تذكرَ أنها كانت أحيانًا تنجح فيما مضى، عندما تود أن تظهر تهذبها وإصغائها، في إدخال اسمه كل جملتين أو ثلاث. وقال بصوت كالفحيح:

"عندئذٍ كانت تقول: كريستيان". ثم أضاف: "في كثير من الأحيان لم أكن أطيق سماعها تلفظ اسمه. ربما لهذا انتابتني قشعريرة عندما سمعتها تفعل ذلك عند

القبر."

ثم حكى لي أنه انتقل معها قبل شهور قلائل من سقوط أول القتلى في كرواتيا إلى جراتس[3]، حيث كان معروضًا عليها وظيفة أستاذ مساعد في علم الأرصاد الجوية بالجامعة. لم يكن قد مر وقت طويل على تعرفه إليها وزواجه منها، وكان مندهشًا غاية الدهشة أن بالدنيا - على حد تعبيره - أشخاصًا مثلها؛ ذهب معها ببساطة، وكان سعيدًا لأنها انتشلته من شقته في هوتينج التي تتكون من غرفة ومطبخ، وأنها حملت عنه عبء اتخاذ قرار التخلي نهائيًا عن كتابة الرواية بعد محاولة ثانية وثالثة، وكأنها أصدرت حكمًا ببراءته، وهو ما كررته طوال السنوات اللاحقة أيضًا كلما ركب العند رأسه. حتى وإن بدت كلماته مُرة، فقد كان مهتمًا بأن يرسم على الأقل ابتسامة زائفة على شفتيه عندما قال إنها كانت تظهر دائمًا في اللحظات الحاسمة لتقنعه بكلمات قليلة أن يترك كل شيء ويعود إلى البيت، كانت تفعل ذلك عندما يختبئ مرة أخرى لعدة أسابيع في إحدى تلك الغرف التي كان يؤجرها كي يتفرغ للكتابة، في مدينة من المدن التي أمست في النهاية كلها متشابهة أمام عينيه، والتي تناثرت عبر نصف القارة الأوروبية، وإذا سمعنا أسماءها متراصة فسنعتقد أننا نستمع إلى إعلان لأحد العطور الفخمة، ولكنها في حقيقة الأمر لم تكن سوى محطات جديدة في طريق

فشله.

في تلك الفترة لم تكن جراتس أفضل أو أسوأ من غيرها. سكنا في المنزل الواقع في إيجنبرج بحديقته الكبيرة المهملة التي يمر الترام بقربها في طريقه إلى مركز المدينة. غير أنه لم يستطع أن يترك الفرصة تمر دون أن يسخر من ذاته، وذلك عندما سمح لنفسه بأن يغمغم كلمات شبه غامضة قائلاً إن الموضوع انتهى، وإذ به يجد نفسه فجأة يعيش بمفرده مع كلب وقد تخطى سن الشباب. كان قد هيّأ نفسه على قضاء ما تبقى من أيامه في هدوء مستسلم، بعد أن غزا الشيب شعره ببطء، إلى أن وقف ألماير يومًا ما على بابه. ثم استطرد قائلاً:

"كان ذلك بالتأكيد في بداية المواجهات في سلوفينيا. جاء من شبيلفلد حيث أغارت الطائرات في اليوم نفسه على رتل من الشاحنات المنتظرة."

لم يكن ذلك بالطبع في النمسا، بل على الجانب الآخر من الحدود، في شنتيلي، كما يسمون المكان هناك، على بعد أقل من خمسين كيلومترًا، لذا شعر بدافع لا يقهر إلى زيارتهما. لم تستغرق زيارته إلا ساعة، إذ أنه حاول أن يواصل السفر إلى ليوبليانا، حيث أُقيمت الحواجز والتحصينات على كل مداخل المدينة لإعاقة تقدم الدبابات المنتظرة، إلا أن تلك الزيارة كانت فاتحة

لزيارات أخرى عديدة. كان يظهر دائمًا عندما لا يتوقع المرء ظهوره، في طريقه إلى كرواتيا، أو إذا قطع رحلته عائدًا إلى فيينا، حيث كان يعيش آنذاك. كان يرن الجرس، ثم يقف أمام سياج الحديقة، وقد أوقف سيارته على الرصيف - سيارة يابانية نالت نصيبها من الصدمات والخبطات، لذا كانت توحي بالمغامرة، كما كان ينقصها الغطاء المعدني للإطارات - تاركًا المحرك دائرًا، وواضعًا ذراعًا على باب السيارة المفتوح وكأنه يخشى في كل مرة أن يفزعه ظهور أحد. شعره كان أطول من المعتاد، وفي فمه وضع سيجارة على نحو ينم عن التحدي، لوحته الشمس، لأنه كان يقضى وقتًا طويلاً في الهواء الطلق، ربما لذلك كان في المعتاد حسن المزاج، أو على الأقل كان يترك انطباعًا بذلك، حتى فيما بعد عندما كان يظهر أحيانًا من الفراغ، بالمعنى الحرفي للكلمة، بعد أن يكون - بالفعل - رأى الأهوال التي تقشعر لها الأبدان.

أدهشني أن باول لم يذكر ذلك إلا الآن. وعندما استفسرت منه، قال إنه في الغالب لم يكن يتذكر كل شيء، إلا أن زوجته أنعشت ذاكرته:

"لم تتحدث بعد الجنازة عن شيء آخر. إنها مهووسة باستدعاء أقصى ما يمكن استدعاؤه إلى الذاكرة عن كل زيارة له."

يبدو أنه ذهب معها من المدافن إلى أحد المطاعم، ولكن كل ما حكته عن الزمن الماضي بدا له دقيقًا أشد الدقة، وهو ما دفع به إلى الشك في كل شيء.

"إذا لم تكن أضافت معلومات مما قرأتها فيما بعد، فلا بد أننا كنا نحيا في عالمين مختلفين."

لم أكن بحاجة إلى موهبة كبيرة في دقة الملاحظة كي ألمح تغير نظرات عينيه وهو يقول ذلك، راحت قدماه تنبش بعناد في الرمل، إلى أن نهض وسار فوق الآثار وكأنه يريد محوها. ثم جلس ثانية ووضع لبرهة ذراعًا فوق كتفي، وكأنني أنا الذي بحت له بسر، وليس هو.

وواصل حديثه قائلاً: "لفترة طويلة جدًا لم أدرك أن الحرب بدأت فعلاً. ولأن كل شيء كان قريبًا مني، بدا لي أن نشوب الحرب أمر غير وارد، جملة وتفصيلاً".

لم أستطع أن أكتم ضحكتي: "ما أسهل قول ذلك."

"أعرف"، أجابني. "قد يبدو كلامي ساذجًا، ولكنني اعتقدت في البداية أن كلمة واحدة من شخص ما - أيًا كان هذا الشخص - ستكفي، وعلى الفور سيختفي شبح الحرب."

على نهر الإلبه ظهرت الآن سفينة شحن عليها حاويات، وتجاهها ثبت بصره، عندها خطر على بالي ما حكاه ذات مرة أنه كان يتذرع بالميناء والنهر إذا سأله

أحد عن سبب اختياره هامبورج على وجه الخصوص. ثم حاول مرة أخرى توضيح شعوره بانتفاء احتمال وقوع الحرب، وأتى من جديد على ذكر ألماير:

"بالتأكيد كان له علاقة بذلك. فكلما حدثني عن الحرب، بدا لي كل شيء غريبًا وغير واقعي، وكأنني أقرؤه في الجريدة."

عندما جاء بعد عدة أسابيع من زيارته الأولى في جراتس، لم يعد يتحدث حول الحواجز والتحصينات ونقاط الحراسة المسلحة في القرى. كانت أحياء سكنية قد احترقت عن آخرها في كرايينا وفي سلوفينيا، ولم يكن يمر يوم دون مواجهات دموية. قراءة تقاريره كانت تشبه أن يخوض الإنسان ببطء في مستنقع، وأن يغرق في نهر عميق بلا ضفاف. إذا جمع المرء التقارير التي كتبها في الشهور التالية فستكوّن بالتأكيد مجلدًا كبيرًا، به معلومات وافية عن التفاوض للتوصل إلى وقف لإطلاق النار، ثم اختراقه بعد ساعات قليلة، أين وأي جسر من جسور نهر السافه تم تفجيره، أو أي ثكنة عسكرية حوصرت وقطع عنها الماء والكهرباء، أو الطرق السريعة، حتى متى كانت صالحة للسفر وإلى أي مسافة، الموانئ على طول الشاطئ، وكم يوما استمر الحصار.. إلخ، كل هذه معلومات مفيدة للإحصائيين فحسب، لولا وجود القتلى الذين كتب عنهم. كان كل

طرف يضيف ويجمع بدقة تامة أرقام قتلاه، ثم تتم المقارنة بين الأرقام التي تحيا فيما بعد حياتها الشبحية المستقلة.

"سمعت أنهم أكثر من مرة أضافوا ببساطة قتلى الحرب العالمية، وكأن خمسين عامًا لم تمر على ذلك."

تذكر باول ذلك بدقة، ولو أنه عقّب على الفور قائلاً إن زوجته هي التي تهتم في العادة بالتفاصيل، وأضاف ضاحكًا: لا سيما فيما يتعلق بالأمور العسكرية. على الفور أكد كلامه بمثال سمعته زوجته من الماير عن رتلين من الدبابات انطلقا من مكان ما في بلجراد في غسق الفجر مع سيارات أخرى، وقطعت المركبات معًا عدة كيلومترات.

"في الحقيقة لا يتناسب ذلك مع شخصيتها إطلاقًا"، قال دون أن يخفي حيرته. "ليست هي الشخص الذي يهتم بمثل هذه الأشياء."

من خلال الطريقة التي كانت تتحدث بها، كان بإمكانه أن يسمع قعقعة جنازير الدبابات على الأسفلت، وصيحات التهليل التي تطلقها حشود الناس على حافة الطريق، وأن يشم رائحة الأيام الأخيرة من الصيف، والذرة في الحقول التي امتلأت بآلاف من الطيور الهاربة من منطقة القتال. بكلامها كان البلد يستعيد ألوانه، لم يعد يكتسي درجات اللون الرمادي أو البني

السائدة في التقارير المعهودة للحروب، لا، كان هناك دائمًا توقيت معين، كان يرى الضوء، ويرى الظلام، وسواء كان هذا رأيها أم لا، فقد بدا له كل شيء أكثر عبثية: الرحابة والاتساع حتى الأفق، السماء، حركات وأفعال الكائنات التي تعيش في تلك الطبيعة. لم يكن السبب يرجع إلى ما تحكيه، إنه يعود بالتأكيد إلى صوتها، إلى النبرة الداكنة الواثقة التي كانت تولد لديه أشواقًا مبهمة ينقبض لها صدره بمجرد أن يضبط نفسه متلبسًا بالتفكير فيما تحكيه، ويشعر أنها تحكي عن رحلة، وإن كانت غريبة الطقوس، لا داعي للخوف، فهي تمسك بكل الخيوط في يدها، وسوف تتدخل لمنع وقوع أي كارثة.

ومع ذلك لم يعجبه أن يراها تصغي إلى ألماير بكل حواسها عندما كان يأتي لزيارتهما، وأن تبقى حتى نصف الليل مستيقظة رغم أنها كانت تذهب إلى العمل في الصباح التالي. كانت تمطره بالأسئلة، تريد أن تعرف إذا كان ما قرأته في الجريدة صحيحًا أم لا، وهو كان عليه أن يجيب بنعم، ثمة جثث مشوهة، نعم، لقد رأى ذلك بنفسه، ولكنه يود لو يستطيع أن يصمت وألا يتحدث عن ذلك؛ ولكن، نعم، كانت الجثث في حالة مرعبة، فقأوا الأعين ومزقوا الصدر، حتى فَقدَت الجثث - إذا كانت تريد أن تعرف كل شيء على وجه الدقة - أي تشابه مع بني البشر.

انفعال باول كان يتزايد، والآن بدا أنه يخشى أن أكوّن صورة خاطئة عن زوجته.

"ليس معنى كلامي أنها تريد جنازة لتشبع فيها لطمًا."

كان متحفزًا للدفاع عنها.

"هي لم تطلب منه أن يحصي أبشع الفظائع، واحدة بعد الأخرى"، واصل كلامه ثم انتظر وكأنه يريد منحي وقتًا لأعارضه. ثم قال: "الأرجح أنها كانت تعتقد أن هذه هي الطريقة الصحيحة للاهتمام به لدى عودته منهكًا وخائر القوى."

أما ألماير فقد أثار في منزلهما الانطباع بأنه لا يريد أن يتحدث عن هذا كله، لأنه هرب ليوم واحد، وكان يتمنى - على الأقل بعيدًا عن ساحة الحرب - أن يدعه الناس في حاله. وكأنه كان مُكرَها في كثير من الأحيان على إدارة دفة الحديث فجأة ناحية الأشياء اليومية، ثم يستعلم - بالتفصيل - عن أي تفاهات، ويمتدح الطعام أو النبيذ، وكأنه لن يتناول بالشهية نفسها أي شيء آخر يقدمه المرء إليه. أحيانًا كان ينهض، لأنه لا يريد سوى النوم، بعد أن يكون قضى نحو الساعة معهم، يستلقي وينام؛ ذات مرة فعلها في الحديقة بعد أن تغطى، ومرة ثانية - عندما اصطحب معه فتاة أطلق عليها طوال الأمسية "مترجمتي"، رغم أنها كانت بالكاد تفهم كلمة

ألمانية أو كلمتين - لم يظهر من غرفته إلا قرب الظهيرة، بقميص نصف مُزَرر وشعر لا يزال مبللاً، وكالأبله انطلق بسيارته التي فرغ من إطارها الهواء تقريبًا.

بلا شك كانت تلك الحكايات التي رواها لي باول تعبر عن إعجاب خفي بألماير، لذا لم أندهش من سؤاله التالي:

"هل قلت لك إنه كان يحب الكلب بشدة؟".

كان واضحًا لي أنه يعني شيئًا آخر تمامًا، فهو لم يستطع أن يخفي تأثره في فترة الصمت بين الجمل التي كان يستمتع بها استمتاعًا عظيمًا، ثم استطرد قائلاً:

"لا أعرف أحدًا كان يعامله هكذا. كان يستطيع بكلمات قليلة أن يثير انفعالاته الجامحة، ثم يستطيع في لمح البصر أن يعيده إلى الهدوء بتغيير ضئيل في نغمة الصوت."

كنت أنتظر سماع نادرة من النوادر، لكنه ظل لبرهة يرقب السفينة التي كانت قد وصلت أمامنا الآن، والتي بدت كأنها تسير مع الرياح دون أدني ضجيج، ومع تيار الإلبه، متجهة صوب البحر وصوب الليل. لبرهة ثبت بصره على الأمواج التي انسابت في اتجاهنا لتترنح بهدوء على الرمال. عندما رأيته شعرت بالبرودة تسري في أوصالي. كان قد أشعل لتوه سيجارة، وبدلاً من أن

يدعها جانبًا ويتركها تحترق كما يفعل في المقهى، احتفظ بها بين شفتيه، وسحب منها أنفاسًا هوجاء كان ينفخها بسرعة. ولم أفهمه إلا بصعوبة عندما سألني في النهاية عما إذا كنت أعرف مدينة زغرب.

"كنت مرة هناك، يومًا واحدًا فقط"، قلت له مندهشًا من السؤال. "لا بد أن ذلك كان في بداية الثمانينات، إذا لم أخطئ."

كان هذا كل شيء، إلا أنه لم يصغ إلي.

"هل أعجبتك؟".

أومأت بالإيجاب. ثم أضفت:

"لكنها بدت لي كئيبة بعض الشيء. لم أشعر أنني في مكان آخر، بل في زمن آخر."

لم يبد أي اهتمام بما أقول، وهكذا شرع يحكى من دون مقدمات أن ألماير كان لديه غرفة قريبة تمامًا من محطة السكك الحديدية في أولى سنوات الحرب. ثم قال:

"يبدو أنه قضى هناك عدة أسابيع قبل أن يسافر عائدًا إلى وطنه للمرة الأولى. لا بد أنه قضى هناك وقتًا أكثر مما يتطلبه عمله."

استأجر غرفة لدى أرملة حتى يتجنب رؤية زملائه الصحفيين في الفنادق؛ تلك المجموعات التي تتغير

دومًا، الذين يتجمعون في البارات، أولئك الذين عادوا لتوهم من مناطق القتال، أو الذين كانوا في طريقهم إليها. ورغم أنه كان في بعض الأحيان يرى أن كل الصحفيين متشابهون، فإنه كان يتجنب على وجه الخصوص لقاء أولئك المستظرفين الذين لا يتوقفون عن الكلام في أثناء تناولهم جرعة الويسكي الإجبارية، ويتحدثون عن "القصص" - بالرغم من فجاجة الكلمة في الموقف الحالي - وعن "اللقطات" التي كانت تغيظهم بدلاً من أن تسعدهم، عندما يصلون إلى مكان ما ثم يجدون كل شيء هادئًا، ثم يتناقشون لساعات طويلة، هل ينشرون أقذر الفظائع الوحشية التي التقطوها أم لا، وفي النهاية يصلون دومًا إلى النتيجة نفسها، ليس أمامهم خيار آخر، وأن هذا واجبهم. لم يكن يحب سلوكهم الشبيه بسلوك محرري القسم الرياضي، طريقتهم وهم يساومون على عدد السطور والدقائق، وهم يتبادلون الأفكار حول جوانب الحرب التي لم تُستهلك بعد، لقد تناولوا كافة صورها وأشكالها، ولم يعد شيء يثير شهيتهم للكتابة، حتى وإن رأوا مرة أخرى دجاجة تنقر في جمجمة مفتوحة، على حد تعبيرهم، بل لقد ذهبوا بعيدًا بتفكيرهم وقدموا برنامجًا نقيضًا سلطوا فيه الأضواء على جمال الطبيعة في المناطق المحيطة، حتى وإن لم يثمر ذلك إلا العته الفلكلوري المعتاد. كل ذلك كان مدعاة لسخرية أكبر عندما علم

كيف حصلوا على بعض الصور المصدمة التي نشروها، فهم لم يكونوا يتورعون إذا لزم الأمر عن أن يكلفوا البعض بعمل كومة جميلة من الجثث، إذا كان الواقع في أعينهم ليس مفزعًا بما فيه الكفاية، أو أن يسلموا كاميراتهم ببساطة إلى الأشخاص المطيعين من سكان المنطقة ويرسلوهم إلى أخطر مناطق الاشتباكات لقاء بضعة ماركات كي يلتقطوا لهم بعض الصور التي يمكن استخدامها. لم يكن يستطيع أن يصغي إليهم وهم - بالرغم من كل ذلك - لا يتوقفون عن التفاخر بأفعالهم البطولية، إذ لم يكن بينهم - حسب روايتهم - مَن لم ينجُ بجلده في اللحظة الأخيرة، أو تعرض لإطلاق النار، أو اعتُقل عدة ساعات. وسواء كانوا يروون الحقيقة أم يكذبون، فقد باتت كل حكاية تتمحور حول شخص الصحفي مملة، مملة وداعرة، إلا إذا كان الراوي، حقًا، رأى الموت بعينيه.

كلما أفاض باول في الحديث عن ذلك، اتضح لي أكثر أنه كان يشارك ألماير نفوره ذلك، لكنني دُهشت من إصراره على إقناعي أنا برأيه، وهو ما دفعه إلى محاولة أخرى للشرح والتفسير.

"ثمة صورة لمراسل تلفزيوني تجسّد الموضوع بكل تناقضاته"، قال بنبرة صوت مزعجة تشي بالانتصار. "يقف أمام منزل مُدَمَّر، حاملاً الميكروفون في يده، وهو - كما يبدو - على وشك أن يبدأ تقريره."

كنت أود أن أسأله عما يجده غير مألوف في تلك الصورة، إلا أنه رفع يده، فابتلعت سؤالي. وواصل قائلاً: "وتقول الأسطورة إنه كان يرتدي سترة واقية من الشظايا، علق عليها لافتة بفصيلة دمه لحالات الطوارئ. ليس في كل هذا ما يعيب، لو لم يرَ المرء في الأمام ظهر المصور الذي لم يكن يلبس سوى تي شيرت أبيض."

لم أفهم سبب انفعاله. إنه يعلم بالتأكيد أنهم يرتبون مثل هذه المناظر، وإذا كان يريد الإشارة إلى ذلك فإنه لا يثير إلا استهزائي. رحت أنظر إليه مانعًا نفسي من أن أقول إنه لا يبرهن بذلك على أي شيء، سوى على لاعقلانيته.

"أنت بالتأكيد لا تعتقد أن ألماير كان مختلفًا؟".

كان سؤالاً ينم عن قلة حيلة، صدر مني بدافع الارتباك وليس لأنني كنت أنتظر إجابة، غير أنه أخذ السؤال على محمل الجد، وأجاب أنه لا يدّعي ذلك، بل وقدم شرحًا لإجابته.

"إنني أعتقد بالأحرى أنه كان يبتعد عن زملائه حتى لا يرى على الدوام صورةَ ذاته."

ومن أجل هذا السبب تحديدًا اختار المرأة التي استأجر لديها غرفة، امرأة في السبعين، ما زالت تتحدث الألمانية التي تعلّمتها في بيت والديها، آخر من تبقّى من

تلك العائلات التي كان يكرهها في فيينا، على الأقل بسبب أسمائها النمساوية القديمة، ولكن في زغرب - أراد أم لم يرد - كان يشعر، من أجل السبب ذاته، أن الحفاظ على مثل هذه العائلات شيء واجب. وأضاف قائلاً:

"هناك أشياء لم يكن سيعرفها من دونها على الإطلاق، فهو في نهاية الأمر لم يكن يتكلم كلمة كرواتية واحدة، وكان في معظم الأحيان يهيم على وجهه في المنطقة أخرس وأصم."

ثمة مؤشرات واضحة قاطعة ما كان يمكن أن تفوته، بدءًا من الرايات في كل مكان، ومرورًا بتلك الصور المؤطرة في نوافذ عرض المحلات، وعليها الصورة القديمة نفسها، صورة الجنرال السابق لمجموعات الفدائيين، الآن في وضع الديكتاتور الذي لم يناسبه، فبدا مثل خالٍ طيب لا يستطيع أن يؤذي نملة، ووصولاً إلى الجنود بالزي الرسمي في الشوارع. رغم ذلك كله، كانت المرأة هي التي لفتت نظره إلى أشياء عديدة وأفهمته إياها، عندما كانت تعود من المقهى وتحكي له ما سمعته من الناس، وأي الأهوال يرتكبها المتوحشون، البيزنطيون، البربر. بالطبع لم يكن بحاجة إلى شرحها حتى يفهم أن ذلك الذي ظهر فجأة مرتديًا قميصًا أسود هو بعث لشخص من عصر مظلم، ولكن لو

لم يستمع لحكاياتها التي كانت لا تدع مجالاً للشك في جدية الموقف كله، فربما بدا له ما يراه مجرد شخصيات هزلية من إحدى المسرحيات الغنائية. كانت الحكايات التي روتها له عديدة، مثلاً حكاية إحدى صديقاتها التي بصقوا على وجهها في إحدى المكتبات الاستعارية لأنها تناولت الكتاب الخطأ - أطلس مكتوب بالخط الكيرلسي - أو حكاية ابنة صديقة أخرى أرادت أن تهرب مع زوجها الصربي إلى حماتها وحميها في بلجراد، إلا أنهم أعرضوا عنها، وشتموها وسط عائلتها قائلين إنها عاهرة تشتنكية. من دون مساعدتها كان عليه أن يرهق نفسه في البحث عن أمثلة حتى لا تكون تقاريره تقريبية عن الأجواء في المدينة التي كانت خليطًا من الفرحة العدوانية والانكسار الذليل. خدماتها في الترجمة وحدها كانت لا تقدر بمال، لو لم تلفت هي نظره ما كان سيفهم يومًا زعيق السكارى في المساء ومدى تعطشهم للدماء. لمدة طويلة كان يشعر بالحرج عندما يعترف بأنه نفسه ظل بشرود يصفر نغمة سمعها من الراديو إلى أن سألته يومًا عما إذا كان يعرف عنوان الأغنية، ثم قالت له على الفور، ودون أن تنتظر إجابته، "*كرواتية هي التي أنجبتك*"، ثم لم تستطع أن تتوقف عن الضحك على فزعه وارتياعه.

لم تكن نبرات صوتها تولد الثقة لدى من يسمعها، عندما كانت تحكي له بهدوء ممل واسترخاء مثير

للدهشة أنه لا يزعجها أن السادة الجدد يغيرون أسماء الشوارع، فهكذا - ببساطة - يكون الوضع بين حين وآخر. كانت تقول له إن الإنسان يرى - إذا طالت حياته - كل شيء يعود إلى ما كان عليه. لقد تقبلت المرأة دون أدني مقاومة أن تتذكر بين وقت وآخر أسوأ الزبانية من زمن الحرب القديم. ورغم كل ذلك صعد معها يومًا ما إلى التل المقابل للكاتدرائية ليتفرج على الكتابات النمساوية الباقية على بعض البنايات، اللافتات المرسومة على الطلاء الذي بدأ يتقشر، ما زال باستطاعة المرء أن يقرأ ما تبقى منها، مثل "حارة السادة" Herrengasse "حارة الراهبات" Nonnengasse و"حارة دار البلدية" Rathausgasse. كان شيئًا مؤثرًا، عاطفيًا للغاية، أن تبحث - تحديدًا في مدينة مهددة تهديدًا ماثلاً للأعين - عن مهرب في الماضي. لا بد أنه كان أعمى عندما وقف إلى جوارها وتتطلع إلى الأسقف القرميدية الحمراء، لأن التعرف الظاهري على الأشياء - ما بدا أنه تذكرٌ للأوهام الكاذبة المنبعثة من تلك الفترة التي تجملها النوستالجيا، حقبة الملكية القيصرية النمساوية - لم يعده إلى أرض الواقع. لامبالاتها كانت مريحة، قدريتها وإيمانها بأنهم كلهم، منذ الأزل، لم يجلبوا للبلد سوى البؤس والخراب، سواء كانوا غرباء أو من أهل البلد؛ وسواء حدث ذلك بإرادته أم رغمًا عنه، لقد حاولت أن تجعل منه شريكًا

في آرائها، وراحت تكرر أن أحدًا لن يستطيع التأثير عليها بالكلام، لقد رأت قبل نصف قرن الألمان مع عبيدهم من أهل البلد، لقد أحدثوا الضجة نفسها وهم يدخلون المدينة، ثم ما لبثوا أن انسحبوا وهم يجرون أذيال الخزي والعار، تمامًا كالفدائيين فيما بعد، كيف دخلوا فاتحين محررين، ثم كيف خرجوا بعد أن عاثوا في الأرض فسادًا؛ الشيء الوحيد الذي تنبغي ملاحظته في كل ذلك هو أن الجثث كانت في كل مرة تغطي الطريق، بالمعنى الحرفي للكلمة.

أتذكر تمامًا أن باول أمسك عن الكلام في هذا الموضع، ليعبّر مرة أخرى عن دهشته، لأن زوجته كانت ذاكرتها تحتفظ - بعد مرور سنوات عديدة - بكل هذه التفاصيل عن ألماير.

"لا بد أن اهتمامها به يفوق القدر الذي أريد أن أعترف به"، قال وهو يجاهد على ما يبدو حتى لا تشي نبرات صوته بمرارة فاضحة. "أو أنها قابلته فيما بعد، ولذلك تعرف كل هذه المعلومات."

ثم قال لي إنها حكت له أنه استيقظ يومًا ما ثم اكتشف جملة كُتبت على جدار المنزل المقابل الذي كان حتى الأمس عاريًا، جملة مكتوبة بخط سميك، وعندما ترجمت الأرملة معناها، لم يستطع أن ينساها رغم عاديتها.

"ارجع يا حبيبي، أنا في انتظارك"

توقف عدة لحظات عن الحديث، وكأنه يريد أن يدع الكلمات تفعل مفعولها، ثم فجأة اتخذ صوته نبرات مؤثرة:

"يُقال إنه قرأ ذلك هناك"، قال دون أن يهتم بما يتركه كلامه من تأثير رخيص مبتذل. "حسبما يزعم، وقّعوا بالأحرف الأولى، ولم يتوقف فيما بعد دائمًا عن محاولة العثور على أسماء مناسبة لتلك الأحرف."

طوال أسابيع وأيام وهم ينقلون الجنود إلى المدينة، الباصات والشاحنات استولوا عليها وخصصوها للأنشطة الحربية، وكانت تقف هناك على أهبة الاستعداد للانطلاق في أي لحظة، مكدسةً بالرجال الذين ارتسمت على شفاههم ابتسامة ذاهلة، كانت هذه الصورة بالتأكيد مألوفة لديه؛ حدث ذلك قبل أن تظهر أكياس الرمل في المدينة، والدبابات التي أغلقت أهم التقاطعات، وقبل أن يحصنوا النوافذ بالخشب والمسامير، أو يلصقوا الورق عليها. قالوا إنهم زرعوا الألغام على الجسور فوق نهر السافه؛ من يستطع، كان يرسل عائلته إلى فيينا أو إلى سواحل الريفييرا الإيطالية، الباقون يقفون طوابير أمام المحلات ليخزّنوا المواد الغذائية. كان الوضع كما قرأ عن الحروب السابقة، كم كرر ذلك لنفسه، لكن ما يراه أمر مختلف، هذه زغرب، على مرمى حجر من الحدود

النمساوية، إلا أن ذلك لم يُجدِ شيئا، كانت الأشياء تتعاقب وكأن ثمة برنامجًا صارمًا تتبعه، وبالتأكيد لم يكن الأمر مصادفة أن تلفت نظره فجأة النساء الحوامل الكثيرات وسط موجات اللاجئين الذين توافدوا من كل أرجاء البلاد، النساء اللاتي يدفعن عربات الأطفال وكأنهن من المظاهر الاعتيادية المصاحبة لكارثة تلوح بوادرها في الأفق؛ أو أنه فجأة لم يعد يجد أغرب الروائح شيئًا خارجًا عن المألوف، المخاوف التي كان يُعبر عنها بخوف، أو برعب مستسلم مريح، أن هناك "طابورًا خامسًا" في المدينة، قناصة في الشقق التي هجرها أقارب العسكريين، مجموعات من المدافع الرشاشة على الأسطح في مركز المدينة. وبعد أن كان في البداية يضحك على الدوريات التي كانت تجوب أقاصي المدينة عبر الليل، تلك المجموعات المنظمة تنظيمًا سيئًا، الذين كانوا يقولون عنهم إنهم زوّدوا بأسلحة من "متحف الثورة"، أو كانوا يحملون بنادق صدئت من تخزينها نحو خمسين عامًا في القبو أو السقيفة، بدأ عندئذٍ يدرك ويعي تدريجيًا كم هي مقلقة تلك البوادر التي تتراءى للوهلة الأولى بريئة لا ضرر منها.

رد فعل الأرملة على كل شيء كان مثيرًا للدهشة في هدوئه، يقول باول، وكأنها في عمرها المتقدم لم تعد تخشى شيئًا.

"كانت تؤكد دائمًا أنها عايشت أمورًا أخرى تمامًا، وأن حفنة من المراهقين سيئي التربية لن يدخلوا الخوف إلى قلبها لمجرد أنهم يريدون أن يلعبوا لعبة الحرب". ثم أضاف: "وعندما اعترَفَت أخيرًا بأن الموقف متوتر بعض الشيء، كان ذلك يعني الكثير."

وضحك هو نفسه على هذا التعبير "متوتر بعض الشيء"، الذي نطقه بلكنة خاصة وكأنه يقلّد الأرملة، ثم أكمل قائلاً إن ألماير تبنى تعبيرها، وموقفها أيضًا.

"لقد كانت تمنعه بالتأكيد من استخدام أي ألفاظ عنيفة تصوّر الموقف بخطورته."

وراح يجدف بيديه في الهواء وكأن ما يقوله وحده لا يكفي لشرح فكرته، ثم أخذ بيأس يراجع كلامه باحثًا عن شيء يستند إليه.

"بالنسبة لها كانت المسألة مسألة أسلوب."

ولهذا جلبت صفارات الإنذار قبل الغارة الأولى شعورًا بالارتياح، إذ حدث أخيرًا ما كان المرء يتوقّعه منذ مدة طويلة. ويُقال إن شيئًا لم يبدر عنه سوى هزة رأس عندما راحت تحدثه بتعاطف عن المجانين المساكين المُضَللين المسؤولين عن هذه الأفعال، وأن على المرء أن يستقبلهم كأصدقاء إذا رآهم، بالزهور والقبلات. فشل بكل الوسائل في إقناعها بالذهاب إلى

المخبأ، هذا ذعر ليس إلا، كانت تقول، مستحيل أن ثُهاجم المدينة، سيان لديها ما يحدث في بقية أنحاء البلاد، صفارات الإنذار وكل هذا الفيلم ليس إلا محاولة لإدخال الخوف والرعب في قلوب الناس حتى يُساقوا بعد ذلك في قطيع، الشيء نفسه ينطبق على إجراءات التعتيم؛ إذ إن ساحة السوق تظل مضاءة، كما أكدت له أكثر من مرة. كانت تسخر من خوفه، وعندما اتصلت به صديقة تليفونيًا من بيهاتش أو بانيالوكا وحذرته من أن فرقة كاملة قد انطلقت لتوّها من المطار العسكري هناك، ظلت الأرملة تعتبره جبانًا، مع أن الشبابيك كانت تئز عندما أنهت صديقتها المحادثة، وكان الدوي المتزايد يغزو الشقة. ليس معنى هذا أنها أقنعته بموقفها، ولكن من تلك اللحظة كان يصر في المعتاد على البقاء بجانبها حتى لا تكون بمفردها، حتى وإن كان الجار يرتاب في أمره عندما يتجاهل صفارة الإنذار. كان يتقوقع معها في أحد الأركان، إلى أن يفوق الضجيج الاحتمال، ثم يبدو للحظة وكأنه يضعف، إلا أنه ينتهي بانفجار عندما تمر القاذفات على ارتفاع منخفض فوق الأسطح كالرعد، وكأنها تخترق حاجز الصوت فوق رأسيهما تمامًا.

بعد انتهاء الغارة اعتادت الأرملة أن تصب لنفسها كأسًا من الليكور، أما هو فكان يسير إلى النافذة ناظرًا إلى الخارج، إلى عالم بدا له بكرًا كما لم يبد له من قبل، فوق الأسطح وميض، هكذا أتخيل، في الأفق، بالكاد

أكبر من سرب بعوض، عدة نقاط تبتعد سريعًا، ثم يسود الصمت، السماء الضخمة، وعلى مرمى البصر لا أثر لإنسان، إلى أن يعود الوعي للمدينة فيما يشبه المعجزة، ثم تظهر - على سبيل التجربة كما يبدو - السيارات الأولى.

"ولكن زغرب لم تقصف أبدًا؟".

قلت هذا دون تفكير، ولاحظت على الفور أن باول - وفي يده سيجارة أخرى لم يشعلها بعد - يرمقني برأس منحرف.

"أعتقد أنني أتذكر مرة على الأقل."

لم يكن من الممكن أن يكون رده أكثر جفافًا من ذلك.

"وعلى حد علمي كان ذلك بالصواريخ."

رحت أنتظر، ثم أكمل كلامه وكأنه يتحدث أمام جمهور غفير، وكأن مسؤولية عدم نسيان شيء تقع على عاتقه الآن.

"ويبدو أن الطائرات أغارت قبل ذلك بوقت طويل على القصر الرئاسي، ولكن في ذلك اليوم تحديدًا لم يكن ألماير في المدينة". ثم أضاف: "ربما لهذا كانت مقالاته مكتوبة بلا مشاركة مباشرة في الأحداث."

كانت الريح تهب الآن عنيفة، وعندما كان يشيح

بوجهه عني في أثناء الحديث لم أكن أفهمه إلا بصعوبة، لذا كان عليّ أن أسأله إذا فاتني شيء.

"كانت إحدى الغارات التي ادّعوا بعدها بقليل أن أهالي المدينة قاموا بهذه التمثيلية كي ينالوا مزيدًا من الاهتمام"، هكذا واصل كلامه. "بالطبع هذه دعاية مغرضة، لا يمكن تصديقها في هذه الحالة بالذات لأن الجيش وحده هو الذي كان يملك طائرات في تلك الفترة."

ولفت انتباهي مرة أخرى مدى الجهد الذي يبذله حتى لا يستخدم الكلمات التي يستخدمها الجميع، وحتى يتجنّب بقدر الإمكان الحديث عن الصرب أو عن الكروات، وإذا لم يجد مناصًا فإنه لم يكن يدع مجالاً لأدنى شك في أنه يفهم هذه المصطلحات على أنها مجرد مصطلحات جغرافية. غير مرة انفعل أمامي مهاجمًا الصحف، عندنا أيضًا، التي تبنت هذا التقسيم كأنه بديهي، رغم أنه يقسم جبهة القتال لغويًا، فعلت الصحف هذا دون أن تقدّم الأسباب التي تستند عليها. وبسبب التعبيرات التي يستخدمها كان كلامه ملتويًا، إلا أنه تقبّل ذلك حتى يتجنّب المصطلحات الشائعة، وأتذكر كيف كان يبالغ في التدقيق عندما يسأل ماذا يعني المرء بهذه الكلمة أو تلك، وفي بعض الأحيان كان يبدو كتلميذ مثالي تعلم أن يتساءل أولاً عن معنى الكلمات

المستخدمة، حتى وإن لم يكن ذلك لا يؤدي إلى شيء على الإطلاق، أو على الأقل لا يؤدي إلى شيء مهم.

لذلك بدا لي الموقف مألوفًا عندما بدأ يطلق تأملاته فجأة حول الخوف في زمن الحرب، محاولاً على الفور أن يعارض كل ما سمعه يومًا عن هذا الموضوع.

"يقولون دائمًا إن الهدوء قبل الهجوم وبعده هو أسوأ شيء. ولكن هذا الوصف أكثر شاعرية من الحقيقة". ثم أضاف: "إن هذا التعبير لا يمكن أن يخطر إلا على بال الذين لم يسمعوا بآذانهم أبدًا دوي المعارك وضجيجها."

ربما يبدو كلامه منطقيًا، لكنه غير صحيح.

"على العكس تمامًا."

كنت متأكدًا.

"ربما العكس هو الصحيح"، قلت مكررًا. "إن من يتحدث عن ذلك في المعتاد هم عتاة المحاربين القدماء."

وضع السيجارة بين شفتيه، ثم سحبها وكأنه يريد معارضتي، ثم أومأ برأسه فقط محاولاً للحظة أن يشعلها دون جدوى، حكّ عود ثقاب بعد الآخر، وفي النهاية قرَبَ بكلتا يديه عودًا مشتعلاً إلى فمه ونجح أخيرًا في إشعال السيجارة. راح لوهلة ينفخ الدخان

تائهًا في أفكاره كما بدا لي.

"يُقال إن الناس في التلال المحيطة بسراييفو كانوا يسمعون في أيام معينة انفجار قنابل متفرقة"، بهذه الجملة أنهى صمته. "أما الأصوات الناجمة عن ذلك فلم تكن تؤذي سمع أحد."

لم يقصد بكلامه الصفير الذي يظهر - بأوصاف مختلفة - في التقارير عن الجبهات، بل ما يسبق ذلك.

"فقط (بوم) لا تكاد تسمع، هكذا يقولون."

ورأيته يضغط بلسانه على باطن خده ثم يسحبه بسرعة، ولكن لم يصدر عن فمه سوى طقطقة بائسة.

"على الأقل هذا ما قرأت عنه"، أكمل كلامه. "الأمر يدعو للضحك، إلا أنني منذ ذلك أتخيل صوتًا شبيهًا بالفرقعة الناتجة عن زجاجة تُنزع سدادتها في الغرفة المجاورة."

بعد ذلك ظل يدخن برهة، ساحبًا الدخان بعمق على عكس عادته، ثم نافخًا إياه بصوت عالٍ. سحب النفس الأخير، وقبل أن يرمي عقب السيجارة راح يتمعن فيه وكأنه لا يعرف كيف وصل إلى ما بين أصبعيه. ثم عاد ثانية إلى الموضوع قائلاً:

"يقولون إنه أحيانًا يُسمع قبل الانفجار مباشرة صوت مثل رفرفة طائر مفزوع. ولكنني أسأل نفسي:

في مثل هذا الموقف، من سينتبه إلى هذه الرفرفة؟".

لم أجبه، ونظرت إليه وأنا أتذكر أن ألماير كتب ذات مرة أنه ما زال لا يستطيع بعد كل سنوات الحرب التي عاشها أن يفرق بين طلقات المدافع المختلفة؛ كل ما يعرفه، كأي مبتدئ - متى تكون الطلقة "صادرة" ومتى تكون "واردة". كان قد رجع إلى الوراء مستندًا بمرفقيه على مسند الكرسي، ولم يتطلع إليّ، بل إلى المياه التي كانت الرياح تتلاعب بأمواجها. كادت الأمواج تصل إلى سطح الصندلين المحملين حتى آخرهما واللذين كانا في تلك اللحظة يمران أمامنا؛ ووراءهما، عكس التيار، وصلت سفينة إلى الميناء ووقفت هناك كجدار، وخلفها - وكأن ثمة خطأ ما في المنظور - وقفت سفينة أخرى أكبر، وكأن الحركة أضحت تشمل الضفة كلها طوال إصغائي له، ولم أعد أستطيع أن أحدد أين تبدأ الشجيرات وأين تنتهي. كان الغيم الكثيف، الذي غطى الشمس منذ فترة طويلة، يسير في اتجاهنا، وإما أنه لم يرَ ذلك، أو أنه كان يستمتع به كلعبة. لفتُ انتباهه إلى أن وقتًا طويلاً قد فات ولم يمر بنا عرايا بمشيتهم الوئيدة وكأنهم أشكال في النشرة الجوية تعلن حالة الطقس، فإذا كانت جيدة ظهروا، وإذا كانت سيئة اختفوا. كانت السماء الآن قرمزية، واقشعر بدني عندما رأيت المنارات بين هامبورج ومصب الإلبه وهي ترسل أضواءها المتقطعة، وفي اللحظة التي قلت له إنهم ربما

يرفعون الرايات التي تعلن هبوب عاصفة، تفجر الرعد.

عندما عدنا إلى السيارة أدرت الراديو وكنت سعيدًا لأنه لاذ بالصمت. غطى بخار الماء لوح الزجاج الأمامي، وتطلعت إليه وهو يمسحه بكمه، ثم نزلت بضعة قطرات كتحذير قبل السيل، وبينما كان يتكئ إلى الوراء، كان صوت انهمار المطر على سقف السيارة قد ابتلع الموسيقى. ورغم أن الضجيج علا وغطى على كل شيء آخر، فقد ظننت أنني أسمع شهيقه وزفيره. كانت الموسيقى تدوي من مكبرات الصوت، وكادت المسّاحات تغطي مجال الرؤية، فلم أرَ إلا المياه المؤدية إلى البحر المفتوح.

لم أعد أتذكر عن أي شيء تحدثنا في رحلة العودة، ولكنني أتذكر - لا بد أننا كنا على الطريق الموازي لنهر الإلبه، أو في حي ألتونا عندما توقف المرور تمامًا - أنه حكى أن ألماير لم يسافر إلى فوكوفار طيلة الشهور التي قضاها في زغرب إلا مرة أو مرتين.

"كان ذلك قبل الحصار."

وقال إنه حتى بعد الحصار كان بإمكان المرء أن يدخل المدينة، ولكن الأخطار كانت جسيمة. ثم أدهشني بما أعلنه: "رغم ذلك، ربما أجعله في روايتي يتغلغل خلال الأسابيع الأخيرة في المدينة قبل سقوطها. لقد تعرف إلى أشخاص عديدين يثيرون

الريبة، عرضوا عليه أن يقودوه إلى المدينة."

لم أكن بحاجة إلى الرد، فقد كان بالتأكيد يعرف رأيي في هذا الموضوع بعد كل أحاديثنا.

"حتى لو كانت الحقيقة مختلفة، فالأمر وارد"، قال محاولاً أن يبرر موقفه. "الظاهر أنه حتى سقوط المدينة كان هناك طريق يؤدي إلى هناك عبر المواقع الأمامية الكرواتية."

ربما يصح ذلك كله، إلا أنني لم أرَ أي معنى لأن يركز الضوء على الجبهة التي كُتبت عنها معظم التقارير في أعوام الحرب الأولى. لم أستطع التخيل أنه سيكتب شيئًا مغايرًا لما ورد في التقارير التي سادت الأخبار طيلة أسابيع، شيئًا مختلفًا عن تلك المقالات المكررة عن قصف المدينة من الأرض والجو والبحر، حسبما زعموا، عن الاعتداءات الوحشية التي قام بها رجال العصابات الذين دخلوا المدينة بعد الاستسلام، وتلك الأشكال البائسة المترنحة التي خرجت لأول مرة إلى ضوء النهار بعد أسابيع من الحياة تحت الأرض، والذين كانوا يُطَاردون الآن عبر الأطلال المحترقة. قلت لنفسي إن من الرعونة والطيش أن يضع ألماير ببساطة وسط هذا كله، وكأن تلك الأحداث خلفية مناسبة يستطيع أن يحركها كما يحلو له. حاولت أن أوضح له رأيي، ثم فوجئت باستجابته السريعة لما أقول، بل لقد وافقني

على وجهة نظري.

"ربما تكون على حق، وربما يكون من الأفضل أن أجعله يصل إلى المدينة مع الصرب عندما يكون كل شيء قد انتهى."

بعد ثلاثة أيام بالضبط من الاستيلاء على المدينة كان الجيش قد نظم على ما يبدو رحلة بالباص للصحفيين من بلجراد إلى هناك، ورغم أن ألماير - كما يبدو - لم يكن ضمنهم، إلا أنه ظل شهورًا يسمع زملاءه يتحدثون عن تلك الرحلة الفظيعة.

كان باول يعرف ذلك بالطبع عبر زوجته. كنت في البداية أدهش لمعرفته الدقيقة بتلك الأمور، لكنني أصبحت مع الوقت أعتبرُ ذلك أمرًا بديهيًا.

وقال: "لا بد أنها أصابته بالجنون بأسئلتها: هل صحيح أن الجثث ما زالت ملقاة في الشوارع؟ وهل صحيح أن رائحة كريهة تميل إلى الحلاوة قد انتشرت في كل أرجاء المنطقة؟ حاول أن يمدها بوصفٍ لسرب من الغربان المحلقة بعناد حول نقطة، كما حدثها عن السكون الذي ساد في تلك اللحظة حتى إن المرء سمع فجأة خرير مياه نهر الدانوب المنسابة في خمول."

لم أعد ألاحق باول بالأسئلة والاستفسارات الكثيرة حول ما يقوله، وربما يرجع ذلك إلى طريقته في

تسجيل الأمور بجفاف، حتى أكثر الحقائق لامعقولية. ولكن كلما تذكرت كيفية حديثه عن تلك الرحلة، لم أعرف على وجه التحديد كيف أتخيلها: حفنة من صحفيين يسيطر عليهم الارتياع، يقودهم ضباط وكأنهم داخل متحف في الهواء الطلق، ضباط يتأرجحون بين الهول الذي يشعرون به لما ارتكبته فرقهم العسكرية غير الرسمية، وبين المزاح الذي أدمنوه. وأتذكر كيف قال إن واحدًا منهم كان يسير كالمرشد السياحي، مؤرجحًا بندقيته فوق رأسه كأنها شمسية، ويصيح: هنا حفر صنعتها القنابل، وهناك مدنيون ذُبحوا. لم أستطع تخيل ذلك في صور؛ إنها كلمات فحسب، ولا شيء غير الكلمات في ذلك الفناء الخلفي حيث يُقال إنهم كانوا يرقدون - عشرون، ثلاثون، خمسون، متجاورين، لا يحميهم شيء من تقلبات الطقس. لم يكن بحاجة إلى لفت انتباهي لذلك، كان واضحًا أنهم سيسمعون التوجيه المعتاد الذي يحيلهم إلى هذه الجبهة، لا إلى تلك. الحرب تعيش على ذلك: هل الآخر منا، كما يُقال، أم علينا؟ حاولت مرارًا، ولكن دون جدوى، أن أستحضر نظرات الصحفيين على الأجساد المُستباحة الملقاة هناك، كنت أتمنى لو كانوا على الأقل ألقوا نظرة إلى الوراء حتى يروا الزوار القادمين من أوروبا البعيدة جدًا، الذين كانوا يتجنبونهم بلا وعي، ويفتشون عن مناديل في جيوبهم بسبب الرائحة النتنة، أو يرفعون ياقات

قمصانهم أمام أنوفهم.

حسب علمي قدموا لهم بعد ذلك حساء فاصوليا على الطريقة الصربية، وكأسًا من السليبوفيتس، ثم - وكأنهم يسخرون من مهنتهم - أهدوهم كتذكار عند الوداع أقلامًا عليها الحروف الثلاثة JNA التي ترمز إلى الجيش الحاضر في كل مكان.

"هل تستطيع تخيل ذلك؟".

عقب ذلك كان يريد بالتأكيد أن يتمتم ببضع كلمات تنم عن الاحتقار، لكن باول لهث فحسب محملقًا إلى المصابيح الخلفية للسيارة الواقفة أمامنا التي انعكس ضوؤها على الزجاج الأمامي لسيارتنا بقعًا حمراء. واصل كلامه قائلاً:

"من غير الممكن ألا يكونوا قد عرفوا مع مَن يتعاملون. كان عليهم أن يفكّروا بدلاً من المرة ألفًا حتى لا يصبحوا لعبة في أيديهم".

ربما كان ذلك صحيحًا، ولكن الأمر لم يكن بمثل هذه السهولة.

"ألم يرتكب الآخرون أيضًا أفعالهم الحقيرة؟".

لا بد أن السؤال بدا ساذجًا، لذا أضفت على الفور:

"على الإنسان أن يحدد موقفه من ناحية المبدأ. إذا أخذنا الأمور بجد فإن على المرء ألا يعقد تحالفًا مع أي

شخص كان."

انتظرت معارضة أقوى، إلا أنه تعلق بالكلمة، ثم نطقها كأنها شيء هش، رافضًا قبول رأيي.

"طبعًا من الممكن أن نرى الأمور هكذا"، قال بعدئذٍ دون أن يختفي اللين من نبراته. "ولكن إذا كان الكل مذنبًا، فلا أحد مذنبًا في النهاية، وهكذا نعود إلى نقطة البداية."

فجأة شعرت أن ما يقلقني ليست طريقته التي تدّعي المعرفة الأفضل، بل أنه راح يتحدث عن روايته مرة أخرى، وأنه كان يريد أن يعرف رأيي حول ما يكتبه عن مجموعة من الجنود الذين استجمعوا شجاعتهم ليهربوا في آخر يوم من أيام حصار المدينة، وبعد ثلاثة أيام من التيه الفظيع يصلون إلى منطقتهم. لم أعد أستطيع أن أسمعه وهو يرسم لي بكل استمتاع صورة لما تغلّبوا عليه من صعاب: التسلل في الظلام، التجنّب الحذر لمواقع الأعداء والحرص على ألا يصدر عنهم صوت، أو كيف ينتظرون في أثناء النهار مختبئين بين الشجيرات حتى غروب الشمس؛ تراءى لي أنه يستمتع بذلك استمتاعًا كبيرًا، وكأنه يتحدث عن لعبة لا ضرر منها، لعبة يستطيع الموتى فيها أن يتوقّفوا في أي وقت عن أداء أدوارهم، ثم يعربون عن رغبتهم في التخلي عن مواقعهم لآخرين. كدت أشعر أنه يفكر بمنطق الصور

التلفزيونية، وكأنه يرى لقطات مكبرة أمام عينيه عندما يحكي أن القافلة وصلتَ في غبش الفجر - تحت تصفيق الحراس هناك - إلى مكان مقفر بائس، ذاهلين عن الوجود، غارقين في عرقهم، لا يكادون يستطيعون الوقوف على أقدامهم، كانوا أكثر من مائة متماثلين في العمر، لم يبقَ منهم على قيد الحياة سوى عشرين أو ثلاثين، رحلوا للحرب قبل عدة شهور مع الحراس الواقفين هناك، كل الجنود كانوا يبكون دون أن يفكروا مجرد تفكير في إخفاء وجوههم التي بدت كأنها أقنعة من الفلين علاها السناج، ومع ذلك كانت تثير شعورًا بشحوب الموتى.

كان واضحًا أن كلامه يبغي أن يولّد تأثيرًا معينًا، فسألته متهكمًا، طالما أنه متحمس إلى هذا الحد، ألا يخشى أن يجد نفسه مجبرًا على أن يعيد كتابة روايته الريفية هذه ليقدم رؤية يرضى عنها التربويون. سيّان لدي ما إذا كان يريد الاستماع إلى رأيي أم لا، ولكن الجنود الجدد الباكين لم يكونوا إلا نسخًا طبق الأصل تقريبًا لكل أولئك الرفاق الحديديين الذين عاشوا في فترة قريبة ما زالت ماثلة في الأذهان؛ رفاق كانوا يبتلعون خوفهم ورعبهم وشعورهم بالوحدة إلى حد التقيؤ. إنه في النهاية يريد تصوير أبطال فحسب، قلت لنفسي، هذا كل ما يعنيه، ولأن نواحي القوة لدى الرفاق القدامى كان قد علاها الغبار، فإنه يستسهل الأمر

ويضفي ببساطة ملامح إيجابية عليهم، ثم يظهر بكل فخر مدى ضعفهم البشري.

لم يكن يجدي كثيرًا أن يؤكد أنه لم يخترع كل تلك الأحداث، لقد حدثت بالفعل، وأن ألماير ذكرها في أحد أفضل ريبورتاجاته مثالاً مفزعًا على بشاعة الحرب.

اعتقدت أنني لم أسمعه جيدًا عندما قال ذلك، إلى هذه الدرجة كان كلامه نمطيًا مستهلكًا؛ وعندما واصل قائلاً إنني لن أفهم ما أعنيه، وافقته على رأيه.

"لا تعجبني الطريقة التي نتحدث بها عن ذلك"، حاولت أن أشرح له تحفظاتي. "وكأننا ضباع تهجم على جيفة."

أشار على الفور بيديه نافيًا، لكنني لم أتوقف.

"وفي رأيك، أي دور تلعبه الحقيقة هنا؟".

ومع أن الإجابة كانت واضحة وضوح الشمس، فقد أجبت قائلاً:

"إنها الجيفة بالطبع."

آنذاك كان الشعور الذي أود التعبير عنه هو مجرد استغراب لم أحدد كنهه، شعور بعدم الارتياح لم يخامرني بمثل هذا الوضوح إلا عندما رأيت الصور التي التقطت في فوكوفار بعد تدميرها، لعله نوع من الدفاع حتى لا أرى شيئًا بدأ يضمحل، أو قد تلاشى بالفعل، أو

من الأفضل أن يكون قد اختفى من الوجود تمامًا. وكأن النعي هو الإمكانية الوحيدة المتبقية للوصول إلى المتلقي، هكذا تراءى لي، ولهذا السبب وحده تحولت المدينة - بمجرد أن حازت الاهتمام - إلى أطلال وأنقاض، إلا أنني لا أدري ما إذا كان السبب يرجع إلى معرفتي بمصيرها اللاحق، أم أنني كنت سأفكر هكذا حتى لو لم أكن أعرف؟ هذه المقاطع الثلاثة لاسم المدينة، فوكوفار، يمكن للمرء أن يظل يرددها حتى يشعر بالدوار، هذه المقاطع الثلاثة يمكن أيضًا أن تمثل اللحن الختامي لكلا الحربين العالميتين، لساحة قتال في منطقة فلاندر أو لحصار في الشتاء الروسي. لم تكن فوكوفار في الحقيقة سوى بقعة ريفية مجهولة لم يكن لينتبه إليها أحد، بعيدة عن الطرق السياحية، في قلب أكثر السهول بعثا على الملل، لا تصلح حتى أن تكون ما يُطلق عليه "نصيحة سرية" يتداولها السياح الباحثون عن أماكن جميلة غير مطروقة، قرية نائمة، شوارعها المؤدية للقرى المحيطة غير معبّدة، تمتلئ بالحفر الوحلية عند المطر، وتحفل بالخنازير التي يقولون إن المنطقة تشتهر بها، الخنازير ذات الشعر الأسود الخشن التي ترعى فيها منذ مئات السنين، ولا أستطيع سوى أن أهز رأسي تعجبًا من رياء الناس ونفاقهم عندما أسمعهم يكتشفون فجأة جمال تلك البقعة، لا لشيء إلا لأنها اختفت من على الخريطة، وكأنهم يتحدثون عن جوهرة

باروكية فخمة تنهض أمام بنايات من عهد عائلة هابسبورج، وتبدو من بعيد على الضفاف المائلة البيضاء لنهر الدانوب وكأنها تتجلى خلف بحر من حقول الذرة. بالطبع لا يستطيع المرء أن يتحدث عن مثل هذا الهراء، إلا إذا كان مرهف الحس إلى حد يتيح له أن يغلق عينيه أمام الواقع.

ظللت لفترة أصغي فقط إلى صوت هطول المطر الذي كان ينقر على سطح السيارة بقوة لم يصبها الوهن بعد، وفوجئت عندما قال باول من دون مقدمات إن ألماير وصل بغتة إلى جراتس بعد يوم أو يومين من المقابلة التي أجراها مع المحاربين الكروات. لم يكد يرفع نبرة صوته، ومع ذلك لم يفتني أن ألاحظ أن كلامه كان يخلو من التعاطف الذي كان يبديه عادة تجاهه، ويخلو من الحذر اللائق عندما يقوم بتشريح حياة ألماير ثم يُعيد تجميع أشلائها من جديد، وكأنها عندئذٍ تغدو أكثر صدقًا وتكتسب معنى أعظم، أو معنى آخر، غير أن تكون قد مرت وانتهت. من كلامه رشح شيء تهكمي عندما حكى أن زوجته تذكرت الزيارة بكل تفاصيلها، وأنه بمجرد ظهوره تولد لديها الشعور بأن شيئًا ما قد حدث.

"لا أستطيع للأسف أن أبدي رأيًا في هذا الخصوص"، قال وكأنه أراد أن يعتذر بالفعل. "كنت قد

تلقيت أول تكليف من صحيفة بكتابة ريبورتاج، لذلك لم أكن في البيت."

الاختلاف اللافت بالنسبة للمرات السابقة يكمن في أن شخصًا آخر كان بصحبة ألماير، صحفيًا من شتوتجارت، ثم تبين أنه - بسببه - قد اختار مدينة فينكوفيتشي على الجبهة ليذهب إليها ويكتب عنها، ولم يختر مدينة سواها، مثلاً مدينة أقرب وأسهل في الوصول إليها، سيساك مثلاً الواقعة على نهر السافا، أو كارلوفاتس. على ما يظهر كان يريد أن يسافر معه، لكنه - إذ خاب أمله من تردده المفاجئ - انطلق وحده، ولم يصطحب معه إلا مترجمًا، ولم يقابله إلا في رحلة العودة إلى زغرب، ومن هناك - دون أسئلة مرهقة - اصطحبه إلى جراتس. ما أثارَ اهتمام ألماير هو موطنه الأصلي، صحيح أن والديه ألمانيان، إلا أنهما يتحدران من يوغوسلافيا ما قبل الحرب، تلك الدولة الملكية التي كانت قائمة قبل الحرب العالمية الثانية، والرحلة إلى سلوفينيا كان مقدرًا لها أن تكون أكثر من مجرد رحلة إلى جبهة الحرب الحالية، إنها أيضًا رحلة عودة إلى الأهوال التي وقعت قبل خمسين عامًا.

على الأقل كان هذا تعبير باول، ثم ضحك عندما استطرد قائلاً إن زوجته ما زالت تتذكر بعد مرور كل هذا الوقت أن هذا السيد - حسب كلامها رجل قصير لا

يكاد يصل إلى أكتافها - كان ذا شارب ضخم مهيب ونظرات حادة ثاقبة، وكان اسمه - بكل جد - شرايفوجل[4]. ثم أسرع بالقول:

"ولا تقل لي مرة أخرى إنني أخترع ذلك من أجل روايتي. كان هذا اسمه بالفعل."

وقبل أن يواصل كلامه نطق الاسم مرة أخرى، وكأنه لا يستطيع أن يتخيل أحدًا بهذا الاسم، ثم صاح قائلاً:

"إضافة إلى ذلك، كانت هناك حكاية أهله الذين شُردوا وهُجِّروا والتي كان يحكيها دائمًا، بمناسبة ومن غير مناسبة، كي يشير إلى الظلم الذي وقع على والديه."

حسب الرواية التي وصلتني كانت المعلومات المجردة كالتالي: الأب ولد في فينكوفتشي، والأم في مكان ما على الضفة الأخرى لنهر الدانوب يدعى باتشكا، ولكن الاثنين توفيا في ألمانيا. المحطات بين الولادة والموت كان من السهل تعدادها: هجوم الطائرات النازية على بلجراد في ٦ أبريل ١٩٤١، ومعه بدأت الحرب بالنسبة لهما أيضًا رغم أنهما كانا في مرحلة الطفولة، مصيرهما اللاحق ترتب على ذلك، وقوعه أسيرًا في عدد من معسكرات الفدائيين حتى هروبه، ثم ترحيلها إلى روسيا على يد الجيش الأحمر الذي لم يفرج عنها في

منطقة الاحتلال الروسي في ألمانيا إلا أواخر الأربعينات. تم التعارف بينهما خلال حفل من تلك الحفلات التي يُطلق عليه خطأ "حفلات العائدين إلى الوطن"؛ كان ذلك في أوائل فترة المعجزة الاقتصادية، هو: كائن محروم من النوم، لديه خوف مرعب من حلول الظلام، وهي: جلد على عظم، نحفت حتى وصل وزنها ٣٨ كيلو، نجت بأعجوبة من المجاعة والتيفوس، مجرد خيال لما كانته؛ ومن العسير فهم كيف استطاعا أن يتفقا في مثل هذه الظروف على أن يحاولا العيش معًا.

كانت هذه هي الخلفية، قال باول، ومنها انطلق شرايفوجل ليثأر لعائلته ويدافع عنها بعد كل هذه السنوات، وبعد ذلك يصب جام غضبه على الأحقاد والضغائن التي كانت التربة الخصبة لما حدث. ورغم أنه لم يره شخصيًا على الإطلاق، فقد انطلق يتحدث عن حضوره غير المريح متهمًا إياه بالتصرف وكأن لديه الحق في تفسير التاريخ وفق احتياجاته في تلك اللحظة. في أغلب الحالات كان يلعنه لأنه حسبما يُقال قدم فروض الولاء والطاعة للسادة الجدد في زغرب طمعًا في أن يسترد عن طريقهم ممتلكات عائلته بمجرد انتهاء الحرب، قطعة أرض صغيرة ربما تكون قد اختفت بعد كل هذه العقود، لا تزيد مساحتها على أربعة أو خمسة هكتارات من الطين والوحل في منطقة على الحدود مُتنازع عليها، ومن أجلها كتب مقالات

تحريضية هوجاء معادية للصرب في منشورات كاثوليكية مجهولة، مرةً باسم مستعار، ومرات باسمه الحقيقي. ثم قال باول:

"بالنسبة له كان مصير أبيه وأمه هو بداية التاريخ. ما حدث قبل ذلك لم يكن يعنيه على ما يبدو."

بدا كلامه كحقيقة راسخة، لذلك لم أستطع أن أرد عليه، إلى أن خطر على بالي أن أسأله على الأقل عن أجداده.

"هل تعرف شيئًا عنهم؟".

هز رأسه نافيًا.

"هذا فصل من الفصول المظلمة في تاريخ العائلة."

بدا لي وكأنه يصغي هو نفسه إلى وقع هذه الجملة الضبابية على الأذن.

"بالتأكيد لن نظلمهم إذا افترضنا أنهم كانوا موالين للرايخ"، أضاف بعد برهة. "أي شيء آخر سيكون كالمعجزة إذا أخذنا خلفيتهم في الاعتبار."

لم أواصل الأسئلة لأنني شعرت فجأة بالضيق لأنني أجلس جانبه ولا أستطيع أن أتركه، ببساطة، وأنصرف. لم تزل السيارات واقفة في مكانها، بينما راحت سيارة مطافئ بضوئها الأزرق تسير بلا صوت، وكأنها شبح، في الاتجاه المعاكس الخالي، مارةً بطابور السيارات

المنتظرة. لم أستطع أن أتخلص من الشعور الذي سيطر علي، ربما تحدث هكذا لأنه يخشى التطرق إلى موضوعات لا يأمن كيف يخرج منها. ربما كان لديه حق في رأيه، ولكن، هكذا بلا سند أو دليل، بدا لي وكأنه كان يرد لمجرد الرد، إلا أنني كنت متعبًا جدًا ولم أرد الدخول معه في مناقشة حول الفروق الدقيقة بين الأشياء، ورحت، دون أن ألقي إليه بالاً، أتطلع إلى ورق الشجر الذي كوّن سقفًا فوق الشارع، ومنه لم تتوقف قطرات المطر عن الهطول، رغم أن المطر خفَّ بشكل واضح.

وجوده في حد ذاته هو ما كان يزعجني، وعندما أراد أن يشعل سيجارة أخرى، رجوته ألا يفعل. شعرت ببلاهتي، بينما راح هو يتحدث هو مرة أخرى عن الأمسية التي قضتها زوجته مع ألماير وذلك المعتوه، وراح يتنحنح طيلة الوقت، إلى هذه الدرجة كان صوته متقطعًا.

"لا بد أن الأمر كان فظيعًا بالنسبة لها"، عاد مرة أخرى للحديث. "فيما بعد كانت تتكلم عن هذا الموضوع باشمئزاز لم تكن تقريبًا تداريه."

لم يكن أمامي اختيار، كنت أشعر أن تصويره لهذه الشخصية نمطي بعض الشيء: "الطائر الصياح" ظل يصرخ إلى ساعة متأخرة من الليل، ولم يدع ألماير يتفوه بكلمة، ودائمًا يظل يؤرجح كأسه الفارغة يمينًا

ويسارًا إلى أن تقف الزوجة وتنزل إلى القبو لتحضر زجاجة نبيذ أخرى.

"ليس في صاحبنا شيء لا تجده منفرًا"، قلت له. "إذا جعلته يظهر في روايتك، فعليك ربما أن تضيف إليه بعض الصفات الطيبة حتى يكون مدعاة للتصديق."

لم يرد عليَ، فنصحته أن يزوده بعيوب بسيطة، ضحكة لطيفة أو أي سمة أخرى، إذا لم يخطر على باله شيء أفضل، لكنه صم أذنيه ولم يسمع الجملة التالية التي أضفتها:

"على الأقل تحوّله بذلك إلى إنسان".

حملق فيَ وكأنه لم يفهم حرفًا مما قلت.

"في الحقيقة أنا لا أحتاج إليه على الإطلاق"، رد عليَ بعد برهة. "في الغد، في الصباح الباكر كان قد غادر البيت، دون أن يترك رسالة، ولهذا أستطيع الاستغناء عنه بكل سهولة".

كانت سيارة المطافئ قد واصلت سيرها إلى الأمام حتى اختفت عن ناظري، للحظات كان المرء لا يزال يرى ضوءها الأزرق. رفعتُ درجة صوت الراديو عندما سمعت أن الريح قد اقتلعت شجرة في مكان ما، فسقطت بعرض الشارع. توقف المطر الآن تمامًا، ومن السيارة أمامنا هبط رجل وامرأة، وسارا عدة خطوات،

ثم عادا على الفور وجلسا ثانية، ورأيتهما يجلسان هناك وأبواب سيارتهما مفتوحة، وينتظران. كنت قد أنزلت زجاج الشباك معتقدًا أنني سأسمع من الميناء ضجيج عمليات الشحن والتفريغ، ولكنني أخطأت، كان الهدوء يسود المكان، لم أسمع إلا طقطقة في الخارج، وكأن البلل يجف، ومن بعيد تناهى إلى سمعي صفير إنذار من سيارة الطوارئ، لكنه انقطع فجأة بعد صدوره بثوانٍ.

وكأن باول كان ينتظر هذا الصوت تحديدًا ليقول لي إن زوجته قدمت إجازة مرضية حتى تؤنس ألماير وتخفف من وحدته، ورغم أن نبرات صوته لم تشِ بأدنى اضطراب، فإنني لم أجرؤ على النظر إليه عندما قال إن الاثنين سافرا في عصر اليوم نفسه إلى شلادمينج للتزحلق على الجليد.

"في الواقع، لا أريد التحدث عن ذلك"، واصل حديثه بعد أن صمت برهة. "لأن الكلام عن هذا الموضوع كلام سيعرضني للخطر".

أخذت أعبث بالراديو دون أن أعرف، هل أرفع الصوت أم أخفضه، إلى أن أزاح يدي وأغلق الجهاز.

"تخيل، إنه يعود من الجبهة، وهي لا يخطر على بالها شيء غير أن تسافر معه للتزحلق على الجليد".

لا بد أن وقع كلامه كان في يوم ما مريرًا، إلا أنه بدا

لي الآن ساخرًا، وكنت سعيدًا أنه ضحك ضحكة بدت مغتصبة، وأنه استطاع بعد فترة أن يهدئ من نفسه.

"فيما بعد سألتها: لماذا فعلت ذلك؟ إلا أنها لم تجب سوى بأنه مر بالتأكيد بأشياء مرعبة"، قال دون اقتناع كبير. "قد يبدو كلامي ساذجًا، ولكنني أخشى أن دافعها كان بالفعل هو إخراجه من كآبته".

لم أنظر إليه حتى عندما حكى أنه وجد لدى عودته في اليوم التالي ورقة على مائدة المطبخ مكتوبًا عليها أين هما: اسم المكان، واسم الفندق، ورقم تليفون، وجملة تطلب منه أن يلحقهما إذا كانت لديه رغبة. كان عسيرًا عليّ أن أضع نفسي مكانه، كانت هذه على كل حال زوجته، وألماير كان في منزلة صديق، ولكن لحسن الحظ لم ينتظر مني أن أعلق ما قال. كان على ما يبدو قد استعاد هذه الحادثة وفكّر فيها كثيرًا، وعندما قال إنه لم يجد خيارًا آخر، إنهم دفعوه للقيام بدور ما، وإن عليه - إذا أراد الحفاظ على ماء الوجه - أن يلعب دور الطيب حسن النية، لم يفاجئني رد فعله، ولا اندهاشه، وكأنه لا يزال لا يعرف كيف يتصرف على وجه التحديد: هل يأخذ كل شيء على محمل بريء؟ أم أن المكر يكمن تحديدًا في تلك البراءة المزعومة؟

على كل حال، لقد انطلق بمجرد وقوع عينيه على الورقة. ولم يخطر على بالي في تلك اللحظة أن أسأله

عن شيء سوى عما إذا كانت السماء آنذاك تثلج.

"أخشى أن أخيب أملك"، رد متحصنًا على الفور مرة أخرى خلف ابتسامة. "لم يكن الموقف دراماتيكيًا كما تتخيل."

ومن دون مقدمات لزم الصمت، وشعرت بالضيق لأنني طلبت منه ألا يدخن. لربما كان تدخينه أنقذني على الأقل من تلك النظرة التي أخذ يحملق بها فجأة في كفه المفتوحة. وفكرت أنه سيتجاوز الصمت بمزحة، لكنه ظل يتلفت حواليه باحثًا حتى وجد نقطة ثبت بصره عليها.

"تسألني: هل أثلجت السماء؟".

ولاحظت عندئذٍ أنني استدعيت بكلامي موقفًا عاطفيًا للغاية، ورحت أفكر كيف أجعله يفكر في شيء آخر، إلا أنه واصل قائلاً:

"لا أعرف إذا كانت السماء قد أثلجت". وقعت كل كلمة على الأذن واضحة جدًا. "على كل حال لا بد أن ذلك كان قبل عيد الميلاد..

ثم لاذ بالصمت مرة أخرى، وكما خشيت. وشعرت بالسعادة عندما لاحظت أن طابور السيارات قد بدأ أخيرًا يتحرك في الأمام. في تلك اللحظة شغلت محرك السيارة أيضًا، وعندما زدت السرعة على الفارغ، وضع

كفه على ساعدي وكأنه أراد تهدئتي. انتظرت حتى سحبها، ثم أوقفت المحرك بغتة. لم ألتفت ناحيته إلا عندئذٍ، لكنه راح ينظر إلى النفق الذي تكوّن تحت أوراق الشجر، ومنه تساقط الماء وتصاعد البخار وتغلغل الضوء الذي شرع يصفو تدريجيًا بعد المطر، وشممت في الجو رائحة ذكرتني بصيفيات الطفولة على بحر الشمال عندما تمطر ويغطي اللون الرمادي على السماء والماء معًا، وكنت أتخيل بكل جدية أن الرائحة المنتشرة هي رائحة اللون، ولا شيء غيره.

على الطريق المعاكس ظهرت أولى السيارات التي راحت تقترب منا ببطء. كنت قد بدأت السير لتوي عندما قال باول إنه كان آنذاك عائدًا من تريستا، وكأن ذلك يمنحه حصانة ضد كل شيء. هكذا أيضًا تحدث عن فكرته - التي لم تكن بالطبع جديدة - أن يكتب ريبورتاجات تُعرّف بمدن وسط أوروبا، لم يزل يريد أن يكتب عن بودابست وبراج، وبينما كان يروى لي ذلك، رحت أتطلع إليه بنظراتي الجانبية، ثم أنظر تجاه الشارع قبل أن أعود لأتطلع إليه. لاحظت كيف كان يغالب نفسه مغالبة قوية حتى لا يشتكي، ومع ذلك كان رثاؤه لذاته واضحًا عندما حكى تحديدًا عن الشمبانيا والألعاب النارية التي عادت بها زوجته إلى المنزل بعد أن وصلته موافقة الجريدة على اقتراحه، لم أتحمل هذه الشفقة نحو الذات التي كانت تنضح من كلامه، وفي

النهاية تحول إلى التهكم الخالص عندما قال:

"بالطبع لم يجعلني هذا مراسلاً حربيًا"، لم يكن من الممكن أن ينطق الكلمة بطريقة أكثر احتقارًا مما فعل. "من الواضح أن كافة المؤهلات اللازمة لذلك كانت تنقصني."

كنت أود لو رددت عليه قائلاً إنه ليس بحاجة إلى تحقير ذاته، إلا أنه لحسن الحظ سرعان ما أشاح بيده، ولم يكن من البلاهة بحيث يصرخ وكأنه ممثل في فيلم أمريكي ويقول إن زوجته ما زالت تحبه.

"عندما أتذكر أنني سافرت معها عدة كيلومترات بعد فترة قصيرة من تبادل إطلاق النيران في سلوفينيا، وأننا عبرنا الحدود لنرى ما إذا كان قد بقي شيء نتفرج عليه، أشعر بأنني أثير بذلك سخرية الآخرين"، هكذا بدأ من جديد، ولم يكن من الممكن إخفاء الاستسلام الذي شف صوته عنه. "ظللنا نروح ونجيء على المعبر الصغير، دون أن نفكر حتى بالسفر إلى ليوبليانا، ثم مررنا في رحلة العودة على شبيلفلد، ولكن الرحلة كلها كانت فكرة صبيانية".

حسبما يزعم فإنه لا يكاد يتذكر شيئًا من ذلك اليوم، غير الاستحمام في مياه نهر الدراو الباردة برودة ثلجية، وأنهما لم يكتشفا شيئًا جديرًا بالاهتمام إلا في رحلة العودة على الجانب النمساوي، عندما صادفا دبابة

واقفة بين الشجيرات في مكان ما، وحفنة من جنود متناثرين كانوا يقفون مشمري الأكمام على حافة الشارع وكأن قنبلة فرقتهم.

لن ألومه على تهكمه، ولكن مع ذلك تحتّم عليه أن يقول إنهم تركوا لديه انطباعًا بأنهم لا يثقون في قدرة أي أحد على الدفاع عن الحدود في حالة الخطر، لا يثقون حتى في أنفسهم، ولا حتى يومًا واحدًا. كانوا كلهم يدخنون، على الأقل احتفظ بصورتهم هكذا في ذاكرته، كانوا يضحكون، ويلوحون، وفي النهاية قاموا بإيماءات خليعة عندما انتبهوا لوجود زوجته. ومن الطريقة التي تحدث بها عنهم استنتجت أنه يصورهم على هذا النحو الساذج لأنه كان قد كوّن هذه الفكرة مسبقًا عنهم، وأراد أن يؤكدها. ما زلنا نتقدم بسرعة السلحفاة، وكنت سعيدًا أن خطر سقوطه في شِباك الصمت مجددًا لم يكن ماثلاً على الأقل في هذه اللحظة. لم أكن بحاجة إلى أن أتكلّم كثيرًا، إذ أنه أسهب فجأة في الحديث، وحتى عندما ظهرت الأشجار المُقتلعة على حافة الطريق، واستند على الشباك ليرى على نحو أفضل كيف كان رجلان من رجال المطافئ ينشران الفروع الكبيرة، فإنه لم يتوقف عن الكلام. وسواء كان ذلك مقصودًا أم لا، فقد جاء كلامه عفويًا عندما شرع فجأة يتحدث عن المرات القليلة التي أغارت فيها الطائرات على مناطق القتال، وتغلغلت في

المجال الجوي النمساوي، بل وصلت - على الأقل مرة واحدة - إلى جراتس، حيث طارت فوق أسطح المنازل. كان منفعلاً عندما قرأ في صحف اليوم التالي عن الأمل المرعب الذي انتزع المرء من سباته.

كان كلامه بالنسبة لي واضحًا وضوح الشمس حتى إنني لم أستطع منع نفسي من سؤاله إذا كان يتمنى أن يحدث شيء مماثل عندنا نحن أيضا، إلا أن رد فعله بين أنه بوغت.

"أعوذ بالله!"

نبرات صوته كانت عالية، ثم انفجر قائلاً:

"أنت لا تريد إلا استفزازي. لا أستطيع التخيل أنك جاد فيما تقول."

ودون أن ينتظر ردًا، حكى لي أنه آنذاك لم يفعل شيئًا طيلة أسابيع سوى الخروج للتمشية مع الكلب، من المنزل في إيجنبرج إلى القصر الكائن هناك، ثم العودة، ولكن كلما استفاض في الحديث، ازدادت حيرتي بشأن ما يرمي إليه بالضبط. منذ اندلاع الحرب لم يكتب سطرًا، وعندما يصر الآن على أن توقفه عن الكتابة لم يكن ضررا، فإنني لا أعرف ما ينتظره مني - هل ينتظر اعتراضًا؟ لم أصغ إليه إصغاء حقيقيًا إلا عندما قال إنه بالرغم من القلق الذي كان يشعر به، فإن تلك الفترة لم

تعد تلعب أي دور الآن؛ قال ذلك وكأن هذه الظروف وحدها عذر كافٍ لفشله. استسلم للعاطفية المؤثرة عندما راح يبرر موقفه، ومع ذلك تركته يتحدث، رغم أن انطباعًا لم يفارقني بأنه يحاول أن ينزع نفسه فحسب من دوامة الأحداث التي تورط فيها بغباء.

ومع أنني كنت قد مللت حديثه، اقترحت عليه أن نشرب كأسًا من البيرة في حي سان باولي، وفي الطريق المحفوف بالنخيل شرع من غير مقدمات يتحدث مرة أخرى عن غرابة الرحلة التي قامت بها زوجته مع ألماير. كان يتطلع ناحية السماء التي بدت فجأة مشققة، تجميعا لرقع من الغيم الضئيل فوق الأسطح، وكأنهم أطلقوا لتوهم صواريخ نارية ضخمة. وشعرت بتفاهة ما يقوله عن الاثنين، ربما بسبب نظرته الحانية العطوف. وعندما راح يحكي عن استقبالها له استقبالاً قلبيًا حارًا بمجرد وصوله إلى شلادمينج، بدا أنه يحبس أنفاسه قبل أن يزفر زفرة عميقة، وكأنه كان يريد أن تعامله معاملة الغريب، ولم أعرف إذا كان يقصد بجد ما يقول، أم أنه كان يسخر من ذاته. إذا كان وصفه صحيحًا، فإني لا أفهم كيف لم ينفعل أدنى انفعال عندما رآهما معًا، كان حزينًا فحسب، ولم يفكر سوى في تصرفاتهما التي بدت ساذجة ومبالغًا فيها، وأن العلاقة بين الرجل والمرأة تبدو عمومًا بلهاء وسخيفة بمجرد أن يتأملها المرء من الخارج.

وقع كلامه على أذني وكأنه سلسلة من الادعاءات التي تبني سورا للدفاع عن الذات. وشعرت بالارتياح عندما قال إن ألماير لم يسأله في ذلك الموقف بالطبع عن المكان الذي أتى منه لتوه.

"لم أتكلم معه كلمة واحدة عن فينكوفيتشي أو عن المقابلة الصحفية التي أجراها هناك"، استطرد وكأن ما يعنيه ليس واضحًا. "لا بد أن زوجتي حكت لي ذلك كله بعد مرور فترة طويلة."

لم يتحدثا كثيرًا، نصف ساعة في أحد المقاهي، أشياء تافهة، إلى أن جاء اليوم الذي لم يعد فيه أحد يتحدث عن "البقاء ليوم آخر"، وهكذا انطلقوا عائدين، في المقدمة هو وزوجته، وخلفهما ألماير بسيارته التي تركت الأيام عليها آثارًا واضحة. كانت الخبطات تغطي سطحها كلها تقريبًا، وبدلاً من الشباكين الجانبيين الخلفيين ثُبتت قطعتان من الكارتون، قُصتا بغير إتقان، وغُلقتا بشريط لاصق عريض على الصاج. ربما أكون مخطئًا، ولكن طريقة باول في الوصف حملتني مرة أخرى على الاعتقاد بأن نبرات صوته تشي بإعجاب كامن، وخاصة لأنه كان يحاول أن يترك انطباعًا باللامبالاة التامة.

"طبعًا تصرفت وكأنني لا ألاحظ شيئًا"، قال محاولاً من جديد أن يسخر من ذاته. "مع أنني أدركت من بعيد

أنها عبارة عن كومة من الخردة تسير على أربع."

لم يزل الموقف يبهجه، وأتذكر كيف ضحك وكأنه يرى في المرآة الأمامية ذلك السائق الذي يقود سيارته الغريبة وراءه بالضبط، والذي كان يرشق طوال الرحلة سيجارة مشتعلة بين شفتيه، ومن حين لآخر يحاول تخطيه، وفي كل مرة يقود سيارته مسافةً قصيرة جانبه، ثم يلوّح ويعود إلى الخلف مرة أخرى. وقال:

"كان يعتقد على ما يبدو أن عليه أن يمثل دور المهرج، وإلا فكيف نفسر سلوكه الأهوج؟".

استمر الوضع هكذا إلى أن فرّقت بينهما الطرق، وانحرف هو في اتجاه فيينا. واصل باول وزوجته السفر في الليل الشتوي، وظل ينصت إلى صوت الإطارات فوق الإسفلت، وإلى الهدوء الذي كان يعم الطريق شبه الخالي. لم يوجّه إليها أسئلة، سيطر عليه خوف غير عقلاني، الخوف من أن يستثير شيئًا سيظل كامنًا طالما بقي على صمته، لم يحاول أن يلمسها أو أن يمد يده إلى راحتها، أو أن يلف ذراعه حول كتفيها كما اعتاد أن يفعل، كان يشعر بالفرحة لمجرد وجودها، الفرحة لأنه يستطيع - هذه المرة - أن يرافقها حتى البيت. كأن بقعة ضوئية ابتلعت دربًا لم يبق منه شيء، هكذا شعر في غمار الظلمة التي كانت تتراجع على كلا الجانبين، وعندما وقف الكلب في الجزء الخلفي من

السيارة، وظل واقفًا مدة ناظرًا إليهما، لم ينهره أحد بأن عليه أن يرقد مرة أخرى، لا هو ولا هي، فسار الكلب إلى الأمام ولمسهما بخطمه وكأنه يريد التأكد أنهما ما زالا على قيد الحياة.

ها هي قد عادت، تلك النبرة العاطفية المؤثرة، إذ راح باول يولول فجأة قائلاً، إن تلك كانت - من دون أن يعرف - اللحظات الأخيرة من التفاهم الكامل معها، ومنذئذ بدأت هوة الخلاف تتسع بينهما إلى أن انفصلا.

"كنت أفضّل ألا أصل على الإطلاق"، ولم يتضح لي أن كلامه لا يحمل معنى صوفيًا إلا عندما واصل حديثه:

"أخذت أبطئ من سرعة السيارة لكسب أطول وقت ممكن". ثم أتبعَ ذلك بعبارة من عباراته التي كانت تكتسب أهمية زائفة من فترات الصمت التي يختارها بين الكلمات.

" رغم كل شيء، ربما لم أنبته بما فيه الكفاية".

كان الرد على لساني، ولكنني لاحظت أنه يسدد نظراته من جديد إلى كفيه، وهي عادة تناسب بالأحرى رجلاً طاعنًا في السن لا رجلاً في عمره. وعندما راح بأصابع منفرجة يمر في شعره، ثم دعك عينيه، اعتقدت في البداية أنه يمثل تمثيلية أمامي، ولكن كان يكفي أن أنصت إلى صوته الجاف المتقطع لأعرف أنه لم يتعمد شيئًا على الإطلاق. بدا عليه التعب، وبدا أنه فقد ذلك

الزخم الفوار الذي لم يكن يستطيع كبته، والذي كان يدفعه إلى أن يحكي لي كل تلك الأشياء عن حبه الكبير، وكما فعل عندما تحدث عن هيلينا من قبل، على العكس، بدا الآن مستغرقًا في التفكير في زوجته، مستسلمًا تمامًا لعبثية ما حدث وعدم جدواه، رغم أنه راح في تلك اللحظة أيضًا يتشبث بتفاصيل ظهرت لي قليلة الأهمية.

"ما زلت أتذكر تمامًا أنها كانت تضع على رأسها قبعة سوداء تصل حتى الأذنين ومن دون حافة"، قال وكأن هذا كافٍ لتفسير كل شيء. "وبسبب القبعة بدا وجهها شاحبًا في العتمة، ومن بين كل صورها في ذاكرتي تبدو لي هذه الصورة تحديدًا هي الوحيدة التي لم يصبها خدش أو سوء".

ضياع شظايا من ذكريات متفرقة هو الذي جعل الرابط بينها معدوما، البقية ألم شبحي يبدو أنه هو نفسه لم يكن يتبين كنهه، ولكن قبل أن يغرق في ألمه أكثر فأكثر، سألته عما إذا كان ألماير زارهما فيما بعد.

"ربما مرتين، أو ثلاث مرات".

كان تردده واضحًا. ثم أضاف:

"بالتأكيد ليس أكثر من ذلك. آخر مرة كانت حتمًا قبل بداية حصار سراييفو".

اعتقدت أنه سيستفيض في الحديث، لكنه لم يقل

أكثر من أن ذلك كان في مطلع أبريل، وبعدها لم يتبق له سوى نحو ثلاثة أشهر في جراتس إلى أن انتقل في نهاية الفصل الدراسي إلى زيوريخ، لأن زوجته قبلت العرض الذي قدمته لها الجامعة هناك.

"كان مشروعًا بحثيًا يستغرق عدة سنوات، محوره التحركات الجليدية في جبال الألب"، قال وكأنه لا يستطيع تصديق أثر ذلك على حياته الشخصية. "وبذلك فقدنا الاتصال به تلقائيًا".

بالإضافة إلى ذلك لم يعد يقرأ الصحيفة التي كان ألماير يكتب لها ريبورتاجاته، ولكن عمومًا كانت الأخبار التي تصل إليه عن طريق أصحاب مشتركين من أيام إنسبروك قد ندرت، ثم انقطعت في السنوات التالية تمامًا عندما انتقل إلى هامبورج، حيث كان يريد الالتحاق بمعهد الصحافة هناك بأي وسيلة، ثم تزوج، وبالطبع تغيرت الأماكن التي كان يكتب عنها تقاريره، دائمًا يسافر إلى أماكن جديدة، مناطق موت جديدة، ثم انتقل إلى البوسنة، حيث كتب سلسلة من المقالات تبدو بلا نهاية، وصلت ذروتها الختامية بالحادث الذي تعرّض له في كوسوفو.

الأسماء المتعاقبة التي تلاها باول في سلاسة، والتي لم تعنِ في الواقع شيئًا، كانت لبلاد متناثرة حول نصف الكرة الأرضية، وكأن سائحًا يهوى المغامرات

والكوارث يمتدح لآخر بين رحلتين جويتين أفضلَ الأماكن التي زارها، ثم ازداد تعجبي عندما سمعته في اللحظة التالية يقول إنه لم يتحدث بعد ذلك مع زوجته عن ألماير إلا نادرًا.

"المرة الأولى التي تحدثنا عنه مرة أخرى، كانت في جنازته. وربما في ذلك اليوم أخذنا نحوم بالكلام حوله، ونلف وندور".

لم يكن ثمة ابتذال في القول أكثر مما قاله بعد ذلك، ولم أعرف إذا كنت في سري قد توقعت أن أسمع منه تحديدًا هذه الجملة التي لخّص بها الموضوع قائلاً:

"سألتها إذا كانت نامت معه".

فعلَ ذلك في المقهى الذي ذهبا إليه بعد الجنازة، وهو في الحقيقة بار صغير ليس فيه ما يلفت النظر، توافد عليه في أثناء وجودهما بقية المعزين حتى اكتظ بالزبائن، وأتخيل ردة فعلها، وكيف استاءت استياءً يجمع بين الغضب التلقائي والمصطنع، بلغ ذروته في صرخة مكتومة.

"غير معقول!".

حسب روايته، راحت تكرر هذه العبارة، وكل مرة يخفت صوتها عن المرة السابقة، ولم يستطع باول أن يؤكد إذا كان رأى فجأة دموعًا في عينيها، ولكنه يتذكّر تمامًا ميلها إلى الكلام العاطفي المبهرج:

"المسكين يرقد منذ أقل من ساعة تحت الأرض، وأنت لا تجد ما تفعله سوى مواجهتي بتلك السخافات"، هكذا انفجرت في وجهه حسبما روى لي. "هل هذا هو كل ما جادت به قريحتك؟ يا لسقامة ذوقك!".

نبرات صوتها كانت قد ارتفعت قليلاً حتى إن كل الجالسين حولهما انتبهوا، ولم يعد يعرف في أي اتجاه ينظر، فحاول أن يأخذ يدها حتى يهدئ من روعها، لكنها صدته.

"أخذت تقذف رأسي بحمم من هذا الكلام"، قال لي، وكانت آثار المفاجأة لا تزال واضحة على وجهه. "لم تمنحني فرصة لأرد، وهكذا تركتها تتكلم."

ثم عقّبَ متهكما أنه ابتداء من نقطةٍ ما راح يعد المرات التي قالت فيها: "كريستيان"، وفي كل مرة - عندما تنطق الاسم - كان يتحكم في مشاعره حتى لا يقهقه، ثم سألني عدة مرات متتالية إذا كنت أتخيّل أنها لم تترك مناسبة دون أن تلفظ اسمه. مرة ثانية شعرت بأنه يناور ويراوغ حتى لا يعترف بمدى تأثره بكلماتها، إلا أنني لم أتجاوب معه، وتصرفت وكأنني لا ألحظ نظراته إليّ وتطلعه إلى رد مني. شيءٌ ما في إلحاحه جعلني أشعر بأنه ينتظر غفرانًا، دون أن أعرف: غفرانًا لأي شيء؟ وكأنه ينتظر حكمًا بالبراءة يؤكد له أن كل ما فعله كان صحيحًا. لم يكن في مقدوري إصدار مثل هذا

الحكم، لذا ازداد شعوري بالضيق عندما تملكه الانفعال، إلى أن قال في النهاية إنها راحت تكرر كلامها كالأسطوانة المشروخة. قال ذلك دون أن يحاول على الأقل أن يقلل بعض الشيء من لهجته المنبرية.

في تلك الأثناء كنت قطعت شارع ريبربان، وانحرفت إلى شارع دافيد، وبعد عدة محاولات ودورات وجدت مكانًا للسيارة أمام معهد أبحاث المناطق الحارة، وهناك أسرع بالقول إن زوجته بدت أكبر سنًا مما تصورها، وعلى النقيض، هكذا بدا لي، من كل ما قاله عنها فيما قبل.

أعقب ذلك فترة الصمت الإجبارية، ثم، بلا تمهيد، جاءت الجملة الختامية التي جعلتني أحبس أنفاسي.

"ربما يتوجب عليّ أن أفرح لأنها جعلتني أسافر"، قال وكأنه يكلّم نفسه. "لم أكن لأتحمل رؤيتها تحتضر".

لم يزل الوقت باكرًا حتى يقف المرء في ساحة شبيلبودن ليتفرّج على الشمس الغاربة، ولكن، ولأنني أخذت على حين غرة، بُحت له بأنني أعشق الوقوف هناك عندما يتلاشى الضوء شيئًا فشيئًا. ربما كانت الرائحة المتصاعدة من مصنع البيرة القريب هي السبب الذي جعلني أود لو أمسكته من يده، وأواصل السير قليلاً، وأنتظر أمام المسرح إلى أن يومض النور في النوافذ، بينما يغطي السماءَ ناحية الغرب اللونُ الأزرق

الحليبي الذي يبدو لا أرضيًا، غير أنني بدلاً من أن أفعل ذلك لم أتوقف عن الكلام، وكأنني لا أريد أن أعطيه فرصة ليمسك خيط الحديث مرة أخرى. وسواء لدي إن اعتبرني مخبولاً عاطفيًا أم لا، لقد حكيت له عن الشوق الذي يستولي علي في تلك اللحظات قبل أن يرخي الظلام سدوله، عندما تشع حتى أكثر الشوارع قبحًا وداعةً موجعة، وعندما توحي الأبنية الواطئة فجأة بأنها مجرد شيء عابر مؤقت، تمامًا مثل الواجهات العالية التي بُنيت على عجل في مدينة أمريكية متداعية، بل حتى أكثر الحانات الداعرة بؤسًا تعدُ بشيء، وتمسي منطلقًا لشيء آخر.

لا أعرف طول المدة التي بقيناها في السيارة، وما إذا كان أنصت إليّ على الإطلاق، إلا أنني نجحت في أن أجعله يلزم الصمت. وعندما اقترحت عليه أن نذهب لمقهى في شارع الميناء، أجابني بإيماءة رأس، وما زلت أتذكر أنه كان يسير خلفي بنصف خطوة، وأنه جلس جواري إلى مائدة من الموائد على الرصيف أمام المقهى، وأننا أخذنا نلقي النظر إلى أسفل على أحواض السفن وفوضى رافعات الشحن الكبيرة وأذرعها التي بدت ممدودة تجاه السماء الآخذة في التلاشي. لم يكن ثمة زبائن غيرنا، وكانت الخادمة قد شرعت تمسح الكراسي التي ما زالت مبللة بماء المطر، ثم أحضرت لنا أغطية نتقي بها البرد. أعتقد أنني نفذت إلى ما يقصده عندما

طلب - دون أن يسألني - زجاجة نبيذ أبيض بكاملها خلافًا لعادته. كان ما يهمه هو الوعاء الذي طلبه مع الزجاجة، وقعقعة مكعبات الثلج داخله، أشياء تكمل له صورة معينة، إلا أنه لم يكن حتى متأكدًا: هل سيتمنى عندئذٍ أن تكون تلك الصورة حقيقية؟ وفجأة قال:

"ربما أجعل أحد المشاهد في الرواية يدور هنا". نطق بالجملة بسرعة. "سيكون ذلك بلا شك مشهدًا نمطيًا بعض الشيء، إلا أن خيالي كفيل بمعالجة الأمر".

كنت أعرف أنه لا يستطيع إلا أن يتصرف على هذا النحو، ومع ذلك كرهت أن أسمعه يتحدث هكذا، وخاصة لأنني كنت أدرك ما سيؤول إليه كلامه.

"مشهد روائي؟".

وذهشت أنا نفسي للغضب الذي شف عنه صوتي.

"أنت تجلس معي وتفكر فيما إذا كان هذا المكان يصلح لمشهد روائي؟ هل يمكنك أن تتخيل أن هذه الفكرة لا تجعلني أطير من الفرح؟".

لم يجب إلا بإشارة لا إرادية من يده، وكأن هذه الشكوك لا تزيده إلا سأمًا، ثم قال متهكمًا، لا ينقص كثيرٌ وأتحدث مثل زوجته.

"كانت تقول دائمًا إنني لا أقدر على استقبال أي شيء بحواسي طالما لا أراه مكتوبًا أمامي"، قال هازئًا

بها. "وربما يصح ذلك أيضا، لكني لا أعرف لماذا تريدان أن ترفعا في وجهي عريضة اتهام من أجل ذلك؟".

ثم أشاح وجهه بحدة عني، وانطلق يتلو قصائد لا تنتهي عن جمال الدنيا، وكأنه يريد أن يبرهن لنفسه أنه يستطيع ذلك وقتما يريد، ولم يكن ينتهي من قصيدة إلا ليشنف آذاني بأخرى، ثم أخذ نفسًا عميقًا دون أن يتفوه بكلمة، وفي النهاية سدد تجاهي نظرة شعرت بها قلقلة مرتبكة. لم يكن الطقس باردًا، لكنه التحف بالغطاء، ثم قرّب كرسيًا ووضع فوقه قدميه، وبدا في جلسته مثل مريض في إحدى المصحات المقامة على سفوح الجبال، الفارق الوحيد أن نظرته لم تكن مرسلة إلى قمم الجبال. لم يفتني أنه ينصت إلى كل صوت يتغلغل إلينا من ناحية الميناء ويغطي للحظات على ضجيج المرور الآتي من الشارع الذي لم يكن يُرى من مجلسنا والذي كان يسير بحذاء النهر. بدا مرهقًا من هيجان العواطف التي تتصارع في صدره، تكور على نفسه، وعندما أحضرت الخادمة النبيذ، ونزعت السدادة بحركة مسرحية، ثم لفت منديلاً ورقيًا حول عنق الزجاجة قبل أن تسكب قليلاً في كأسه ليتذوق الرشفة الأولى، فإنه راح يراقبها بمشاعر جامدة، ولم يخطر على باله أن يقرع كأسه بكأسي، بل أفرغ الكأس الأول في جوفه بجرعة واحدة.

للأسف تحدثث معه مرة أخرى عن ليلي. لم أخطط للأمر على الإطلاق، ولا أعرف لماذا فعلت ذلك، إذ أنني قبلها كنت شعرت بالراحة لأنه توقف أخيرًا عن نخزها بالكلام الحاد، ورغم أنني سألته، لا أستطيع أن أدعي أنه كان يهمني أن أعرف ما إذا كان ألماير قد ظل على علاقته بها في الفترة التي قضاها في جراتس أو بعد ذلك، لكنه استجاب بالطبع لسؤالي وراح يفيض علي بمعلوماته.

"لا أستطيع أن أحدد ما إذا كانا تقابلا كثيرًا. فقط مرة واحدة ذكر أمامي الرسائل التي كانت تبعثها له."

لم يكن في كلامه ما يلفت الانتباه، ولم ألحظ أنه يريد أن يشن هجومًا جديدًا عليها إلا عندما واصل حديثه.

"من الواضح أن الرسائل لم تكن موجهة إليه".

بدا أنه يستمتع بملاحظة ذلك.

"إذا صحَ ما أسرَ به إليَ، كانت تلك بالأحرى رسائل إلى العالم بعد وفاتها"، هكذا جاء تفسيره التهكمي. "قال لي إن شعورًا لم يفارقه عند قراءتها أنها كانت تفكر في أثناء الكتابة في إصدار طبعة صغيرة أنيقة".

حسبما تراءى لي، لم يكن باستطاعته أن يتحدث عنها بطريقة مغايرة، وندمت لأنني ذكرته بها، إذ أنه بدأ يتحدث ثانية عن أن همومها كانت في بعض الأحيان

تُشعِر ألماير بالضيق عند رجوعه من كرواتيا ليجد في صندوق بريده مظروفًا من مظاريفها، وعليه الختم الرسمي لنادي الأدباء الذي تنتمي إليه، وداخل المظروف لم يكن يجد شيئًا سوى تلك الشكوك التي كان يحفظها عن ظهر قلب".

كل تلك المخاوف لم يكن لها أدنى علاقة به، بحالته الشخصية، بظروف حياته وكيف يتعامل معها، بتعرضه للخطر، وكيف كان يتعايش مع مصرع الناس يوميًا، أناس من حوله، دون أن يستطيع أن يفعل شيئًا. لم تكن ترد على محاولاته الهادفة إلى أن يعرف شيئًا عن العالم العادي، حسب تعبيره، ماذا كانت تقرأ في تلك الأيام، أو هل تفرجت مؤخرًا على مسرحية. لكنها كانت دومًا تسعى إلى الكلام الفارغ عن القضايا الكلية، وتثرثر بكل سهولة حول ذلك. يجب إيقاف عمليات القتل والإبادة، هكذا كانت تكتب للمرة الألف دون أن يكون لكلامها بالطبع أي عواقب، كان يحق له أن يصاب باليأس، ولم يعد يعلم إلى أي بقعة من العالم ينتمي. عندما أدرك موقفه إدراكًا واضحًا، كان الشوق يغلبه ويدفعه إلى إطلاق العنان لسيارته، ثم العودة حتى لو كان طريقه يمر بالجحيم. لم يشعر بأنه كان بعيدًا عن بيته ووطنه كما شعر في تلك اللحظات، لم يشعر أبدًا بالخوف أنه تجاوز كل الحدود حتى أن العودة باتت مستحيلة، مثلما شعر عندما قرأ احتجاجاتها المستهلكة ونصائحها

الفاترة، كان يكفيه أن يتصور ما سيحدث إذا ذهب لمخيمات الأطفال اللاجئين ليقول لهم إنه يأمل أن يحل السلام قريبًا، ولا شيء غير السلام، أن يلوك الإكليشيهات المعتادة أمام الرجال والنساء الواقفات عند بيوتهم المحترقة، وأن يلقي المواعظ هناك عن عدم استخدام العنف، أو أن ينصحهم من بعيد ألا ييأسوا أبدًا. عندما يتخيل هذا يود لو استطاع أن يسد فمها، إلى هذه الدرجة شعر أن كل كلمة تقولها عبثية وفارغة وكاذبة. ورغم شعوره بالعجز الصارخ عندما رأى ذات مرة طفلة، ربما في الرابعة أو الخامسة من عمرها، بلا ساقين راقدة في بركة من دمائها، لم يتمن خلال كل الاشتباكات التي عايشها أن يحمل سلاحا، لم يخطر على باله أن عمله لا جدوى منه، وأن عليه أن يستبدل البندقية بآلته الكاتبة، على العكس، كان يعتقد دومًا أن حروف الأبجدية هي كل ما يملكه، إلى أن أشعرته بالخجل من نفسه، كم كانت متهورة في ردود أفعالها، وكم كانت مختالة بنفسها، وعندما كان يتخيلها تجلس في مكتبها بالحي الثالث في فيينا، تنظم دواوين شعرية جديدة، لم يعد يعرف ما الصواب وما الخطأ.

الانفعال المتزايد كان منهجًا لدى باول، لذا توجب عليّ الانتظار حتى يهدأ، ثم سألته عما إذا كان يبالغ قليلاً:

"هذا الكلام من اختراعك طبعًا؟".

مثل دور الغاضب، ناظرًا إلي وكأنني أتهمه بأبشع الاتهامات.

"اختراعي؟".

لم يكن من الممكن أن ينطق الكلمة بطريقة أكثر رفضًا مما فعل.

"لستُ بحاجة إلى اختراع شيء"، قال وكأن الاختلاق ليس أحب الأشياء إلى قلبه. "إن القصة تتحدث عن نفسها بلسان طلق، وأي إضافة ستنتقص منها!".

ثم حكى أن ألماير قال له غير مرة إنه كان يستيقظ بالقرب من الجبهة وهو يشعر - منذ أن عايش معركة للمرة الأولى، في منطقة ما على ضفاف نهر السافه - بأنه باتَ أقرب إلى أكثر زعماء المحاربين توحشًا، منه إلى أفضل أصدقائه في الوطن، وأنه كان يفزع عندما يكتشف أن تعاملاته أمست مقصورة على أولئك المقاتلين ذوي الكروش ونظارات الشمس، الذين يظهرون من اللاشيء بسيارتهم الجيب، ويستطيعون أن يتحكّموا في حياتك أو موتك، بينما ضعفت علاقته بمعارفه السابقين الذين يعيشون في عالم آخر بدا له بعيدًا لا يمكن الوصول إليه.

لا أعرف ما إذا كانت نبرات صوته وشت بأنه يوافقني بالفعل على رأيي، وبعد كل ما قاله من قبل، لم

يكن ذلك ليفاجئني.

ومما أكد ظني أنه استشهد بجملة قالها ألماير عندما تحدثا ذات يوم عن الكتب الصادرة حديثا، إذ إنه ظل يحاول متابعتها حتى في معمعة الحرب:

"إذا وقع المرء يومًا وسط اشتباك ناري وعايشه عن كثب، فإن ثلثي الأعمال الأدبية تفقد معناها على الفور."

كان هذا قولاً صبيانًيا ومفعمًا بالأحقاد والضغائن، وخاصةً عندما لاحظت فجأة كيف يثير إعجابه البالغ. إنه يشي بموقف بغيض يرى أن مَن لم يكن على الجبهة لا يحق له أن يتحدث على الإطلاق. وعندما حاولت أن أشرح له وجهة نظري، أشاح بيده وقال إنه لا فائدة من الحديث معي، طالما أنني لا أريد من البداية إلا إساءة فهم كلامه. كان واضحًا أنه لا يريد أن يقول أكثر من ذلك، وإما أنني أغضبته بالفعل، أو أن ثمة سببًا آخر حمله على الصمت، فراح يتلفت حوله وكأن كل لحظة أخرى يقضيها معي هي فوق ما يحتمل.

وأتذكر أنني سألته متى كان فراقهما، ليلي وألماير، لكنه لم يجب بأكثر من: لا أعرف، ثم سكب قطرات النبيذ الأخيرة من كأسه على الأرض، وفجأة أراد أن يدفع الحساب بسرعة، ثم نفح الخادمة بقشيشًا ضخمًا وكأنه يتباهى بثرائه، ونهض بلا مقدمات. ثم جاء هذا التعلق الصامت، لا أعرف كيف أصفه بكلمات أخرى، هذا

التعقب للطريق من خلفي، وهو ما كان مألوفًا لي، مثل إيماءاته عندما يتحدث معي ونحن نجلس على مستوى واحد، وعندما عرضت عليه أن أوصله بسيارتي إلى أي مكان، رفض قائلاً إنه سيتصرف، عندئذ لفت انتباهي لأول مرة أنني لا أعرف على الإطلاق أين يسكن. سار معي قليلاً تجاه موقف السيارات، ثم ظل واقفًا عند التفريعة الموصلة إلى جسور المعديات، ثم ودّعني وسألني عما إذا كان عليه أن يرسل تحياتي إلى هيلينا عندما يزورها لاحقًا، ووضع على وجهه ابتسامة لم تفارق ذاكرتي حتى الآن، هي خليط من التهكم والرضى.

كنت قد تعمدت ألا أسأله عنها، فأومأت برأسي، وكوَّر هو قبضته وكأنه يريد أن يلكزني في ساعدي الأعلى، لكنه كبح اندفاع قبضته قبل ذراعي بقليل، وكمن قُبض عليه متلبسًا سحب يده، وانتظر لحظات عدة، وفي النهاية نقر بإبهامه عليّ برفق متناه. ثم حرك شفتيه من غير أن ينبس بحرف، وقلت لنفسي: الآن ستأتي خطبة طويلة، لكنه ما قاله لم يخرج عن المألوف.

"إلى لقاء قريب."

لم أكن قد أجبت بعد، عندما كرر ما قال، ولم ينقص إلا أن يرفع إبهامه في وجهي.

"عليّ أن أمشي الآن"، قال معاودًا النظر إلى ساعته، ومع ذلك لم يتحرك. "أنا آسف، ولكن لا يمكن أن أبقى أطول من ذلك."

في تلك الأثناء كانت الغيوم قد غطت السماء مرة أخرى، لون أصفر كالسم، لذا بدت الأضواء الأولى للمدينة كأنها مخدوشة، واستمتعت وأنا أراه يراجع بينه وبين نفسه ما قاله، وكنت أود أن أمسك به عندما تحرك في النهاية. لقد بات هذا طقسًا حقيقيًا من طقوس الوداع، هذه الطريقة في الانصراف، ونسيت للحظات أنه لا يقف بثبات على الأرض، رأيت تراخي خطواته، والتفاته مرات عدة إليّ مطوحا يده في الهواء وكأنه يريد إفزاعي. ثم اكتشفت لأول مرة على مؤخر رأسه منطقة فاتحة شفيفة، ورغم أنني شعرت بأن ما أفعله به شيء من التلصص وانتهاك الحرمة، فقد ظللت أحملق في تلك البقعة الصغيرة التي اعتقدت أنني ما زلت أراها حتى عندما ابتعد مسافة كبيرة.

بعد ذلك قابلت باول عدة مرات قبل سفرته المشؤومة في اتجاه الجنوب، لكن أحاديثنا لم تكن أبدًا مثلما كانت في ذلك اليوم، ولم أتحدث معه أبدًا مدة طويلة هكذا عن ألماير. إذا اعتمدنا هذا المقياس فقد كانت لقاءاتنا عديمة الجدوى، ولكنني لا أستطيع القول إنني شعرت بالتعاسة لأنني تخلصت من هذا الموضوع،

وإنني كنت أتحدث معه عن أشياء تافهة ليست بذات بال على الإطلاق، أو أن أصغي إليه وهو يرسم أحيانًا صورة مفصلة للأسابيع المقبلة، وكأنه سائح مثل غيره من السياح. مع كل الخطط التي كان ينسجها، بدا أنه لم يعد يفكّر ليلاً ونهارًا في روايته، ما أثّر عليه تأثيرًا إيجابيًا؛ رغم أنه كان يبعثر جهوده بين اهتمامات عديدة، ويتحدث عن هذا المكان وذاك عندما يفرد خريطة يوغوسلافيا في مكان ما، وأتذكر أنني في كثير من الأحيان كنت أوقفه عند حده عندما تأخذه الحماسة وتسيطر عليه، وبملاحظة صغيرة أُذكّره بالحرب. كان قد فكر في أكثر من طريق يسلكه للذهاب إلى هناك، وكما يتضح من ورقة احتفظت بها، وما زلت أتذكر أنه كان يغير قراره حتى اللحظة الأخيرة من السفر حتى يزيد من بهجته المسبقة بالرحلة، ولم يكن يمل السؤال: هل عليه أن ينطلق من زغرب إلى دالماتيا، أم يسير على الطريق الموازي للبحر؟ أم أن الأفضل ربما أن يركب المعدية في رييكا، أو أن يأخذ مركبًا إلى جزيرة كريس، ثم يكمل السفر من مالي لوشيني إلى زدار؟

---

2 من روايات الكاتب الألماني بيتر فايس (١٩١٦ - ١٩٨٢). (المترجم)

3 إحدى مدن النمسا الكبيرة. (م)

4 أي "الطائر الصياح". (م)

الفصل الثالث

طرق ساحرة في يوغوسلافيا

كان الصيف على وشك الانتهاء قبل أن أسمع عن حادثة باول. كنت أعرف أنه يعتزم قضاء أسبوعين في كرواتيا، وعندما لم يتصل بي آنذاك اعتبرت ذلك شيئًا عاديًا، وحتى عندما اتّصلت به مرات عدة من دون جدوى لم يخطر لي على بال أن يكون قد حدث له شيء. لعله لم يرجع بعد، أو ربما يكون - بصورة استثنائية - مشغولاً جدًا وليس لديه وقت لي، هكذا كنت أقول لنفسي. ثم سافرت أنا لعدة أيام إلى هارفيتش بالعبّارة الإنجليزية، وهو ما كنت أنتويه منذ مدة طويلة، ومن هناك سافرت إلى لندن ثم ويلز، ولم أعد أفكّر فيه إلى أن عدت إلى الوطن.

حدث ذلك بالتأكيد في عصر أحد أيام الجمعة، في متنزه المدينة، في يوم من تلك الأيام التي أهيم فيها على وجهي بلا هدف، شاعرًا بالرعب من اقتراب عطلة نهاية الأسبوع. في نهاية تجوالي وقفت عند أحد المروج أتفرج على مباراة كرة قدم. عارضتا المرمى كانتا عبارة عن فانلتين على النجيلة، ولكني في الحقيقة لم أهتم بمتابعة الكرة، بل رحتُ أراقب امرأتين كان الرجال المحيطون بهما، والذين كانوا يخرجون بالفعل ألسنتهم، يشوطون الكرة في اتجاههما كلما اتيحت الفرصة، وبمجرد أن تصل الكرة إلى إحداهما كانت صحيات التهليل ترتفع، وأيضًا عندما تلمس إحدى

المرأتين الكرة. أعرف، كان عليّ مواصلة المشي، حتى لا أصاب بتلك الحالة البائسة التي يختلط فيها الخجل بالاشتياق، ثم لا أجد مفرًا من طرح هذا السؤال على نفسي: أي خطأ ارتكبته؟ إلا أن الحالة كانت قد تمكنت مني ولم أستطع مغالبة شعوري، لذا وضعت ابتسامة على وجهي وكأنني أريد أن أبرهن لنفسي العكس تمامًا، ابتسامة لا يمكن أن تثير أي انطباع إلا بالبلاهة.

في تلك اللحظة تحديدًا تدحرجت الكرة في اتجاه قدمي، وقبل أن أشوطها، أتت إحدى اللاعبتين تركض، ورغم زيّها الغريب - سروال التدريب والكاسكيت الذي كانت تهم بنزعه - تعرفت عليها في النهاية: هيلينا. وقفت أمامي مثبتةً يدها في خصرها، وأحسستُ بأنني ضُبطت متلبسًا عندما عبرت عن شعورها بالمفاجأة، فقلت ما جاء على لساني، إنها صدفة، ورحت أرمقها من فوق لتحت، ثم أنقل بصري بينها وبين الآخرين في الملعب الذين راحوا بدورهم يسددون إلينا النظرات منتظرين أن تنتزع نفسها مني. سقط شعرها على وجهها، فكانت تعيده بحركات بطئية، ثم تجفف عرقها على جبهتها، بينما رحت أنا أحملق في القطرات الدقيقة على كتفها العاري متعجبًا من أنها كلَمتني ثانية بـ"حضرتك"، مثلما حدث في أول لقاء لنا، ثم صححت نفسها ورفعت التكليف.

لم تستمر المباراة بعد ذلك سوى دقائق قليلة، وعندما جلست معها على النجيلة، بعيدًا قليلاً عن

الآخرين وسألتها عن باول، لم تستطع أن تصدق أنني لم أسمع ما حدث له.

"كادت الحادثة تودي بحياته"، قالت وكأنها لا تريد أن تتأثّر بما تقول. "فليحمد ربه على أنه لا يزال على قيد الحياة".

لم تزل تلهث من اللعب، وعندما قالت إنه منذ ثلاثة أسابيع يرقد في غرفة العناية المركزة، لم ترَ عيناي سوى طريقة خلعها للحذاء ونزع الجوربين، ثم تمددها على النجيلة حافية مستندة على مرفقيها. راحت تحصي كل شيء بدقة متناهية، وربما لم أكن لأتذكر بعدها مباشرة ما حدث له بالضبط، ولكن كلامها كان على كل حال مروعًا يقشعر له البدن: سلسلة من الكسور في الضلوع أوجبت أن يتنفس اصطناعيًا، اضطراب في خفقان القلب، تهشّمت ساقاه وحدثت كسور في فكه السفلي، هذه أمثلة على ما بدأت به كلامها، ثم استفاضت في شرح كل نقطة، مستعينة بأصابع يديها في بعض الأحيان. كان الأمر عبثيًا، هي تحكي لي عن إصاباته المختلفة هنا وهناك، بينما رحت أنا أتجوّل بعينيّ على وجهها والجزء الضئيل من البشرة البيضاء اللامعة بين سروالها والكلوت الذي انزلق لأسفل؛ كانت هي تعبّر عن خوفها من احتياجه إلى شهور حتى يرقعوا جسده ويستطيع الحركة، بينما تركت أنا نظراتي تنساب على ذارعيها، على طول كتفها حتى عظمتي الترقوة البارزتين بوضوح، ثم إلى عنقها، ولم ألحظ أنها

تنظر إليّ إلا عندما صمتت فجأة.

"كنا على موعد في زغرب"، قالت وكأنها حتى الآن لا تستطيع التصديق أنه لم يأتِ إلى هناك. "لم أسافر معه بالسيارة حتى أوفر على نفسي مشقة الطريق، ولكنه كان يريد أن يحضرني من المطار".

انتظرَته على ما يبدو أكثر من ساعتين، ثم ركبت سيارة أجرة إلى المدينة، وذهبت إلى مقهي في ساحة يلاتشيتش كانا قد حدداه بمعونة كتاب سياحي كمكان بديل للقاء، ولم تشعر بالقلق فعلاً إلا مع هبوط الظلام. لم يكن لديها حتى رقم تليفونه، وقرب منتصف الليل انتهى بها الأمر إلى المبيت في أحد الفنادق، ولم تعرف ما حدث إلا في صباح اليوم التالي عندما اتّصلت بأمه بعد أن حصلت أخيرًا على رقم تليفونها. على الفور استقلت قطارًا إلى سالزبورج حتى تزوره في عصر اليوم نفسه في المستشفى، لكنهم لم يسمحوا لها سوى بالاقتراب من باب غرفته. لم ترَ إلا شاشة فوق سريره، وعلى الفور أخفضت بصرها، وكأنها كانت تخشى أن تهبط منحنيات نبضات قلبه على الفور.

هذه هي الحقائق التي أحصتها، وكأن المهم هو كتابة محضر دقيق للغاية لكل تحركاتها. لم أقاطعها إلا عندما انهمكت في تحديد الأوقات، ثم استغرقت في التفكير كي تقرر متى حدثت أتفه التوافه، وهل كانت قبل أم بعد هذا الشيء أو ذاك.

"لا تلومي نفسك"، قلت لها مهدئًا بتلقائية. "مهما قلبت في الأمر، الذنب ليس ذنبك".

بدا أنها لا تستطيع أن تحسم أمرها، هل تومئ أم تهز رأسها نفيًا، والنتيجة كانت رعشة خفيفة لا تكاد تُلاحظ.

"ما كان لي أن أتركه وحده".

كان وقع كلامها على أذني كمَن يعتذر لأنه خرج من الأمر سليمًا، ومهما كان الأمر عبثيًا، لم تُجدِ معارضتي شيئًا. لم تسمح لي بمناقشتها، وراحت تكرر هذه الجملة فحسب:

"ربما ما كانت الحادثة وقعت".

لم أرد عليها، لكنني رحت أنصت إليها وهي تشهق بصوت مسموع وتبتلع مقاطع من الكلمات، وتذكرت أن باول كان يتكلم بحماسة كبيرة عن ذلك. حسب ما روى لي، كان يعتقد في تلك اللحظات أن صوتها هذا له وحده، طبقة الصوت ذاتها - قلتُ لنفسي - التي قالت له بها لأول مرة "أحبك"، قريبًا جدًا من أذنه حتى إنه شعر بطراوة أنفاسها فأصابته قشعريرة. أحببتُ بَحّة صوتها، ذلك الصوت المتقطع الندي، ووجدت أن الموقف مثير وفظيع في الوقت نفسه: إنها تتحدث معي عنه، وتبوح لي بأدق تفاصيل علاقتهما، وأنها كانت ستفعل الشيء نفسه، بالدفء ذاته، وبالإصرار عينه، وبنبرة الصوت المهزوزة نفسها، لو كان قد فارق الحياة.

لا أعرف لماذا حوّلت مجرى الحديث إلى ذلك الاتجاه، ولماذا قلت لها إنهما تعارفا منذ سنوات طويلة، ولماذا سألتها مرة أخرى أين ومتى تعارفا، وكأنني أشك في صحة المعلومات التي قالها لي. لم يكن الدافع هو شعوري بالذنب تجاهه، وإنما - أعتقد - لأنني لم أجد موضوعًا آخر أتحدث عنه، كما أنني حاولت إقناع نفسي بأنها بذلك لن تلاحظ نظراتي المثبتة عليها إذا تحدثنا طيلة الوقت عنه وحده. وبعد أن استمعت إلى كل ما حكاه لي بحماس بالغ، أتيحت لي الآن الفرصة للاستماع إلى الحكاية من وجهة نظرها هي، في جمل معدودة، وبرؤية مختلفة تمامًا، إذ إنها اقتصرت تقريبًا على لقائهما الأول قبل سنوات، لتقول في النهاية جملةً لم أنسها منذ ذلك اليوم:

"كل ما كان يهمه هو الزمن الضائع".

بدت الجملة غاية في التصنع، ولكن عندما حكت لي بعد ذلك عن الشعور بالثقل الذي كان أول ما لفت انتباهها عند رؤيته بعد انقطاع طويل، عندما حكت لي عن خجله، وتهذبه الذي لم يعد مناسبًا للعصر، التهذب الذي كان يختفي في بعض الأحيان تحت سلوكه الفظ، اعتقدت أنني فهمت ما قصدت.

"لم يتوقف عن رسم صورة لما كان سيحدث لو لم يسر كل منا في طريق آخر"، قالت مستطردة. "مع أنني أحسست بأنه شعر بالارتياح لأن هذا هو ما حدث".

لم أعد أتذكر هل قالت لي آنذاك، أم في أحد لقاءاتنا اللاحقة، أن شعوره بضياع شبابه سدى قد أتى على هواه، وإن لقاءها صدفةً وافقه، لأنه أكد شعوره السابق. لعل ما أقوله يبدو غريبًا، لكنها أسرّت لي بأنه منذ البداية كان يتذرع بالحجج ويقول إنه ليس الرجل المناسب لها، وأن أكبر دليل على حبه لها هو أن يتركها في سلام. كان ذلك من الشذوذ بحيث إنها بالتأكيد لم تخترعه. غير أنني لا أستطيع القول إن ذلك أثار اهتمامًا خاصًا لدي، فكل هذا الكلام - بعد كافة معلوماتي عنه - كان مجرد تُرّهات وتخاريف، تنبع من جبنه وعجزه عن الإمساك بزمام حياته من دون أية ضمانات. إنه جنون العظمة الذي لم تظهر علاماته بعد على شخص ظل منتظرًا وراء الستار إلى أن تنتهي المسرحية، وعندما يكون الجميع غارقين في دمائهم، يزحف متسللاً ليعلن كاذبًا أن الأمر لم يكن سينتهي على نحو أسوأ لو كان هو قام بدور البطولة.

على كل حال، في ذلك الأصيل سألتها عما إذا كانت تعرف ماذا كان يطلق عليها.

"ربما من الأفضل ألا تعرفي إطلاقًا"، واصلت حديثي عندما لم تُجب، ثم عقّدتُ الأمور بكلامي الذي كان خاليًا من أي لباقة. "الأفضل أن تنسي الأمر كله".

لم تفتني ملاحظة الرجفة التي ندت عنها رغم أنها حاولت أن تخفيها. سددت النظر أمامها عبر المروج في

اتجاه خزان المياه ومرصد النجوم، وعندما التفتت إليّ، لاحظت أن نظرتها رقّت ولانت، قبل أن تقسو مرة أخرى. رفعت زاوية فمها، ولكن ذلك لم يترك انطباعًا بالسخرية، بل ترك تعبيرًا مترددًا بين الخوف والتحدي جعلني أتعاطف معها تمامًا، إذ بدت لي فجأة رقيقة الشعور للغاية، وفظة وخشنة في الوقت نفسه.

ثم زدتُ الطين بلة ونطقتُ بالكلمة، وكان ذلك بلا شك خطأ، وهو ما أدركته في اللحظة نفسها لأن رد فعلها كان سريعًا.

"مَلاك الموت"، كررَت من بعدي. "ملاك الموت".

شحب لونها، وبرقت عيناها بألق ندي عندما راحت تحرك يدها ببطء معذب وكأنها تمحو الكلمة.

"وربما هناك ما هو أسوأ".

وضحكت، ثم شَرِقت، وشرعت على الفور في سعال مصطنع لم يرد أن يتوقف، وكنت سعيدًا أن الآخرين نادوا عليها في تلك اللحظة، وأنها نهضت وسألتني ما إذا كنت أرغب في الانضمام إليهم. ورأيت أحد الشباب - كان قد لفت نظري قبل ذلك بشعره المتطاير في الريح - يرمي إليها علبة بيرة، وعندما سمعت نفسي أقول "لا"، وتحججت كاذبًا أن لدي ما يجب أن أفعله، كانت هي قد اختفت وسط الشلة. أدركت أن المطاف سينتهي بي في عرض من العروض المتأخرة بإحدى دور السينما، وأنني سأبحث بعد ذلك عن خمارة لا يشعر المرء فيها بأن

وحدته داعرة، وأنني لن أنام إلا عندما تطلع بشائر النهار وفي يدي قصة بوليسية. لم تكن مثل هذه الأمسية ما اصطلح الناس على تسميته أمسية جميلة، ولكنني أتقبلها كأمسية عادية، حتى وإن كنت أشعر الآن بالارتباك بعد أن تناهى صوتها إلي سمعي، وشعرت بأنها تتحدث عني لأن الرؤوس كلها التفتت ناحيتي، بل لقد اعتقدت أنني أسمع شذرات من كلمات، ثم أرسلت بصري إلى ملابسي ولاحظت أنني أرتدي ملابس ثقيلة لا تتناسب مع الطقس الذي أضحى جميلاً وأنني أمسك بالشمسية كأنها أداة أحتاج إليها لعملية ما.

ربما أكون مخطئًا، إلا أنني أتخيل أن طريقة التعامل بيننا قد تحددت بصورة نهائية منذ ذلك اليوم. اللقاءات التالية تشابهت مع اللقاء الأول، وفيها احتل باول دائمًا صدارة الاهتمام، حتى لو لم نذكر اسمه إطلاقًا، لقد ظل هو محور أحاديثنا، سواء كانت ذاهبة لزيارته في مصحة إعادة التأهيل التي حول إليها في مكان ما بإقليم التيرول، أو عائدة من هناك بأحدث الأخبار. والآن يبدو لي أنني لم أقترب منها في الفترة التالية، مثلما فعلت في ذلك اليوم، وربما كانت المشكلة كامنة هنا تحديدًا، صراحتها المهينة تقريبًا في البداية، التي لم تجعلها فيما بعد مضطرة لأن تُذكّرني به مرة بعد أخرى، وتحكي لي عن التقدم الذي كان يحرزه. لو لم يكن باول بيننا، لكانت طريقتنا في تبادل الحديث متناسبة أكثر مع بار سيئ الإضاءة، في وقت ما بعد منتصف الليل، لا

مع فترة العصر المشمسة التي كنا نتقابل خلالها. وسألت نفسي: هل هي الصدفة؟ أم أنها تعمدت ذلك منعا لسوء الفهم واللبس؟

عندما اتّصلت بها في الصباح التالي، وتواعدنا في مقهى "تحت أشجار الزيزفون"، كانت الجملة الأولى التي نطقت بها بمجرد أن وقفت أمامي أنها كلمته بالتليفون، وأنه على ما يبدو في حالة طيبة. لم تذكر شيئًا عما إذا كانت قد أوصلت إليه تحياتي، ولا ما إذا كنا نتقابل. وقبل أن نجلس كانت قد شرعت تحكي أنه خلال أيام سيغادر أخيرًا الكرسي المتحرك، وسيسير مستندًا على عكازين، وعموما فإنه يستجيب للعلاج - حسب ما قالت - استجابة ممتازة. كانت التعبيرات الطبية التي تستخدمها تنم عن تشبث، وكأن استخدامها يبعد عنها الرعب والفزع. حاولت أن أتخيله وهو يقطع ممرات المصحة ذهابًا وإيابًا، متحسسًا طريقه إلى الحديقة الموجودة هناك بالتأكيد، ثم يجلس تحت شمس الظهيرة، ويطالع الصحيفة للمرة الأولى بعد أسابيع، ثم يقلب فيها ذاهلاً عما حوله، لا يتوقف إلا عند الصور كعادته. أصغيث إليها دون أن أنطق بكلمة، وعندما فَرَغَت، راحت تتلفت حواليها صامتة لبرهة قبل أن تتكلم ثانية، وتقدم نوعًا من التلخيص لما حدث:

"أهم شيء أنه يستطيع الآن أن يتكلم. كان الأمر بالتأكيد فظيعًا عندما كان فمه كله مخيطًا بالأسلاك، فلم يكن يستطيع أن يأكل شيئًا تقريبًا، ناهيك بأن ينطق

مع فترة العصر المشمسة التي كنا نتقابل خلالها. وسألت نفسي: هل هي الصدفة؟ أم أنها تعمدت ذلك منعا لسوء الفهم واللبس؟

عندما اتّصلت بها في الصباح التالي، وتواعدنا في مقهى "تحت أشجار الزيزفون"، كانت الجملة الأولى التي نطقت بها بمجرد أن وقفت أمامي أنها كلمته بالتليفون، وأنه على ما يبدو في حالة طيبة. لم تذكر شيئًا عما إذا كانت قد أوصلت إليه تحياتي، ولا ما إذا كنا نتقابل. وقبل أن نجلس كانت قد شرعت تحكي أنه خلال أيام سيغادر أخيرًا الكرسي المتحرك، وسيسير مستندًا على عكازين، وعموما فإنه يستجيب للعلاج - حسب ما قالت - استجابة ممتازة. كانت التعبيرات الطبية التي تستخدمها تنم عن تشبث، وكأن استخدامها يبعد عنها الرعب والفزع. حاولت أن أتخيله وهو يقطع ممرات المصحة ذهابًا وإيابًا، متحسسًا طريقه إلى الحديقة الموجودة هناك بالتأكيد، ثم يجلس تحت شمس الظهيرة، ويطالع الصحيفة للمرة الأولى بعد أسابيع، ثم يقلب فيها ذاهلاً عما حوله، لا يتوقف إلا عند الصور كعادته. أصغيتُ إليها دون أن أنطق بكلمة، وعندما فَرَغَت، راحت تتلفت حواليها صامتة لبرهة قبل أن تتكلم ثانية، وتقدم نوعًا من التلخيص لما حدث:

"أهم شيء أنه يستطيع الآن أن يتكلم. كان الأمر بالتأكيد فظيعًا عندما كان فمه كله مخيطًا بالأسلاك، فلم يكن يستطيع أن يأكل شيئًا تقريبًا، ناهيك بأن ينطق

بكلمة واحدة".

تحكّمت في نفسي حتى لا أذكر الصور التي رأيتها قبل فترة قليلة في كتاب مصوَّر عن الحرب العالمية الأولى، صور إصابات جسيمة في الرأس للذين ضاعت وجوههم، ولم يبقَ منها سوى فجوة حلقومية سوداء تؤدي إلى العدم. بدلاً من ذلك سألتها عما إذا كان قد عاد ليرهق أعصاب الجميع بحديثه الدائم عن روايته.

في البداية ترددت، وكأنها أرادت أن تحتج، إلا أن السؤال الذي طرحته كان ملتبسًا كل الالتباس:

"هل تقصد أن ذلك سيكون إشارة إلى أنه استعاد عافيته؟".

فجاوبتها بضحكة، ثم حكت لي أنه سأل عن الملف الذي كان موضوعًا في السيارة وقت الحادثة، كما سأل عن المظروف المتورم الذي ضم ملاحظاته ومقالات ألماير المنسوخة.

«على الغلاف كانت كلمة (يوغوسلافيا) مكتوبة بخط ضخم، وعليها صليبان سميكان»، قالت بلهجة مَن لا يستطيع أن يصدق. «ليس من الممكن تخيل رمز أكثر فجاجة وبلاهة».

من لحظة لأخرى تلبّسها عنف مفاجئ حتى إن الشابتين اللتين كانتا تجلسان معنا على الطاولة في الحديقة قطعتا حديثهما وتطلعتا إليها. لم يرتفع صوتها، ومع ذلك كان الجميع يسمع كيف تتحدث الآن عنه،

ليس بتفاخر الأم التي تتكلم عن طفلها الذي يمشى أولى خطواته، وإنما باحتقار كاد يكون واضحًا. ويبدو أن باول لم يكن السبب في وصولها لتلك الحالة، بل بالأحرى ذكرى ألماير التي كانت كافية لتلقي عليه ضوءًا مختلفًا.

«لقد تغير منذ الحادثة في كوسوفو حتى إنه من الصعب التعرف عليه»، هكذا ادعت. «قبلها لم يكن يهتم أبدًا بما يحدث هناك، وفجأة لم يعد في الدنيا شيء يشغله غير ذلك».

ورغم أنني ما زلت أتذكر تمامًا كيف كان باول حذرًا في استخدام كلمة «صديق»، قلت لها إنه فقد بموت ألماير صديقًا على كل حال، ولم أكن بحاجة إلى النظر إليها لأعرف أنها تتطلع في وجهي وكأنها لم تفهم ما قلت.

«أستطيع أن أحكي لك أشياء أخرى تمامًا عنه»، قالت بعد برهة. «هل تعرف أنه اتصل بي مباشرة بعد لقائنا؟».

لذتُ بالصمت، فواصَلَت:

«كان على ما يبدو يود لو استطاع أن يجرني إلى سريره جرًا، حتى لو كان في نفس الأمسية يعاملنى وكأنني حثالة الحثالة».

ولم يكن ذلك هو ما يشغلها فعلاً. ما كان يشغلها هو أن باول بدأ بين عشية وضحاها يوجّه إليها الأسئلة

مثله، وأنه كان ينبش في ماضيها كي تجيب عن الأسئلة السخيفة ذاتها؛ أين كانت عندما وقعت أفظع المعارك في كرواتيا، وماذا فعلت آنذاك، ثم يحاصرها باتهاماته قائلاً إنها كانت تحيا حياة جميلة، بينما أهلها يموتون كالكلاب، على حد قوله.

«لقد أخذ عنه تلك السخافات المجنونة».

تعجّبت، لأن باول أظهر غير مرة اشمئزازًا كبيرًا تجاه ألماير، لأنه كان يعاملها كالخائنة من دون أي سبب ولا داعٍ.

«لا يمكن أن يكون اتهمك بأنك لم تخاطري بحياتك»، قلت لها. «بنفس الحق والمنطق يمكنه إذن أن يجعلك مسؤولة عن العالم كله».

لا أعرف إذا كان ردها ينم عن ازدراء، ولكن نفاد صبرها لم يكن له في الحقيقة علاقة بي، بل بها هي.

«ربما كان هذا هو هدفه بالفعل».

يبدو أن الفكرة لم تخطر على بالها إلا الآن.

«على كل حال، جاءت اللحظة التي لم أعد أستطيع بعدها أن أسمع هذا الكلام السخيف الذي كان يختلقه مستندًا على كل ما حكيته له عن نفسي»، قالت محاولة أن تشرح لي سبب ضيقها. «ورغم كل ذلك كان من الممكن ألا أهتم بما يقول، لكنه وصل إلى درجة أنه صدق بكل جدية أنه يعرف شيئًا عن حياتي».

قالت لي ذلك خارج المقهى، في مكان ما بالمدينة، بعد أن نهضنا ومشينا، ولكنني لم أفهم ما تعنيه إلا تدريجيًا، وبعد مرور فترة من الوقت. ازدحم المقهى بالزبائن، وعندما وقف على مدخل الحديقة الملحقة بالمقهى مغنٍ جوال يبيع أغانيه المستهلكة عن الحب واللوعة مقابل عدة قروش، وجدنا أنفسنا مدفوعين إلى مغادرة المقهى، وطوال الوقت الذي تجولنا خلاله في المدينة لازمني الشعور بأن ثمة خطأ ما في قربها مني، رغم أنها تحدثت معي هذه المرة كما تتحدث ربما امرأة مع امرأة لا مع رجل، إلا لو كانت نامت معه وباحت له بذلك همسًا في أذنه على الفراش، قبل أن تغدو الأسرار المكنونة في غبش الفجر أكثر النوادر ابتذالاً. ربما يرجع ذلك إليّ، فقد أكون أيقظت داخلها شعورًا بالضعف جعلها تبحث عن الحماية وترى فيَ نديمًا وحافظًا لأسرارها. ما لفت انتباهي هو أنها بدت بعد ذلك مختلفة، أقل تصميمًا وحسمًا، وليس كما رأيتها وسط الناس، حيث تترك انطباعًا بأنها تعرف تمامًا ما تريد.

بلا شك، كانت البداية عندما حدثتني عن زوجها الذي لم يذكره باول أبدًا من قبل. ربما يكون الأمر مثيرًا للسخرية، وما زلت أتذكر تمامًا مدى فشلي في إخفاء وقع المفاجأة عليَ.

"أنتِ كنت متزوجة؟".

كان من الواضح للغاية أنني سألقي هذا السؤال،

وهكذا كان رد فعلها أيضًا، رغم أنها منحته نبرات منفعلة وكأنها فهمت بغتة لماذا أستغرب.

"الحقيقة، أنا نفسي لم أعد أصدق".

وضحكت وكأنها تدافع عن نفسها.

"كنتُ بنتًا صغيرة".

أثّرت فيّ جملتها، وكان عليّ أن أنتبه حتى لا أجيب بأسى رجلاً رومانسيًا غارقًا في النوستالجيا؛ وبدلاً من ذلك سألتها كم كان عمرها آنذاك، لكنها أشاحت بيدها، وقاطعتني:

"لا أعرف إلى أي شيء تريد أن تصل؟ ليس معنى ذلك أنني ارتكبت جريمة في حق نفسي".

ثم قالت إنني أتصرف كما تصرف باول عندما سمع عن زوجها الأول، وإن النوبة نفسها من الغيرة تلبّسته، الفارق الوحيد أنه كان يبالغ ويتوهم أغرب الأشياء. كان يكفي - على حد قولها - أن تحكي له أنها قضت في بداية الحرب عدة أسابيع تتجوّل في أمريكا مع زوجها، حتى يخرج عن طوره تمامًا.

ثم قالت: "لم يكن يملّ سؤالي أين كنت في تلك الفترة، وأنا كنت أكرر دائمًا نفس العبارة". كان من الممكن ملاحظة مدى ضيقها الشديد لأنها لم تدافع عن نفسها على نحو أقوى. "وسرعان ما يرضى عندما أجيب بأدب أنني كنت في الدنيا الكبيرة الواسعة".

حملقت فيها غير مصدق.

"أهذا هو ما كان يريد سماعه منك؟".

تمنيت أن تقول لا، لكنها توقّفت فجأة، وأمالت رأسها لدرجة أنني خشيت أن تفقد توازنها، ثم أرسلت إلي نظرة تهكمية.

"وبالحرف الواحد"، كانت إجابتها. "بل ولم يكن يخجل من أن يصحح لي أي تغيير ولو طفيف".

وددت لو أمسكت يدها، لكنني لم أجرؤ، وواصلت سيري بجانبها صامتًا، بينما أسرعت هي في الخطو. وعندما كانت تبطئ سيرها، لأنها لم تجد ما تريد أن تقوله، أو لأنها كانت تريد أن تتأكد أنها تستحوذ على انتباهي، كانت تشد كمي برفق أو تلمس برقة كوعي، إلا أنها كانت تجفل في كل مرة عندما ألتفت إليها. كنت مستغرقًا في الإنصات إليها لدرجة أنني لم ألحظ أي الطرق سلكنا، لذا تعجبت أننا وصلنا إلى نهر الألستر، وما كدنا نعبر "جسر كندي" حتى توجب علينا أن نبحث عن ملجأ من زخة المطر المفاجئة، وتحت إحدى البواكي التقينا ثانية وقد استولى علينا الارتباك وكأننا مراهقين في الثانية عشرة يختليان لأول مرة بين أربعة جدران. على الأقل هذا ما شعرت به لأنها كانت تتحاشى نظراتي، مرسلةً بصرها إلى سطح المياه المتكسر، وهي تبدّل باستمرار القدم التي ترتكز عليها، تمامًا كما رأيتها واقفة مع باول عند التقاطع في ساحة "سوق الخيل".

ثم حكت لي أنها استيقظت ذات يوم في غرفة أحد الفنادق، وتحديدًا في لوس أنجلوس، نصف دائخة بعد ليلة لم تتوقف فيها عن الرقص، ثم شاهدت على شاشة التليفزيون، من دون صوت، بيوتًا تحترق، ودبابة تحرك ماسورتها يمينًا ويسارًا. أصيبت برعدة، ورأت سحابة من الدخان ترتفع من بعيد، ثم - سيان إذا كنتُ أصدق أو لا أصدق - تعرفت فجأة على الحقول، الهضبة العالية ومن خلفها الضباب الذي يكاد يخفي وراءه السلسلة الجبلية في السهول المنخفضة، هناك، حيث كانت تمشي حافية وهي طفلة في أثناء العطلة الصيفية، لا بد أنها كانت صغيرة وفتية، ولا بد أن وقتًا طويلاً سوف يمر حتى تشهد هذه المنطقة بنتًا صغيرة وفتية مثلها.

"اتصلت على الفور بوالدي"، وقبل أن تكمل جملتها، ترددت وكأنها تتمعن في كلماتها. "كان أبي على التليفون، وبمجرد أن بدأ ينطق اسمي، انسابت دموعي".

لم يكن بحاجة إلى القول إن الجدة التي تعيش في قريتها بالقرب من زادار تواجه خطر الوقوع في أيدي العصابات الصربية الزاحفة ناحية المدينة، وعندما سمعت دوي طلقات المدافع، كانت قد عزمت على العودة بأسرع ما يمكن إلى ألمانيا.

"لحسن الحظ تمكنت من اقتناص رحلة طيران في نفس اليوم. لا أعرف ماذا كنت سأفعل غير ذلك".

كأن الضفة الأخرى قد اختفت لدقائق معدودة خلف

زجاج مغبش، وعندما هدأ المطر وأصبح رذاذًا خفيفًا، تحركنا إلى المرسى، حيث كنا نريد أن نأخذ مركبًا، إلا أنها كانت لا تزال تتحدث عن إحساسها الفجائي بأن الغشاوة قد زالت عن عينيها، وكان تعجبها من نفسها لا ينتهي.

"لا أصدق كيف كنتُ عمياء طوال تلك المدة؟".

خلا المرسى من أي ركاب غيرنا. وعندما انطلقت المركب قالت إنه بغض النظر عن رأيها في الحرب عند نشوبها، فإنها لم تكن تستطيع أن تخدع نفسها بعد عودتها إلا بصعوبة بالغة. ركاب المراكب الشراعية الصغيرة الذين كانوا بالتأكيد يقطعون النهر بأعداد كبيرة من ضفة إلى أخرى، وكما يفعلون دائمًا في عطلة نهاية الأسبوع، كانوا قد اختفوا تمامًا من الشاشة، كما يقولون، وكأن يدًا محتهم من صفحة المياه. عبر الألواح الزجاجية التي غطتها قطرات المياه رحت أرسل النظر إلى خارج الكابينة، حيث ساد الرمادي بكافة أطيافه، وشيئًا فشيئًا كانت الألوان تعود، بينما أخذت هي تحكي لي أنها كانت تزور والديها يوميًا تقريبًا، بعد أن كانت لا تراهما لمدة أسابيع. حاولت أن أتخيل كيف كان أعمامها وعماتها يجلسون حول مائدة المطبخ يستمعون إلى الإذاعة الألمانية الموجهة إلى يوغوسلافيا، أو - على حد تعبيرها - إلى «البرنامج اليوغوسلافي من كولونيا»، مع الأقارب الذين كانوا يأتون أفواجًا من دون موعد، ومعهم قصص جديدة مفزعة، وعندما يرن جرس

التليفون، يتبادلون النظر في حذر. لعل السبب في ذلك يعود إلى مشينا المتهادي، إلى الأمواج المتأرجحة التي كادت تصل إلى مستوى النظر، إلى هذا الحد كانت المقاعد منخفضة، أو إلى إيقاع المحرك الرتيب، ربما لهذا شعرت بأنها تنقلني إلى زمن مضى، ليس إلى السنوات العشر الفائتة فحسب، كلا، إلى زمن أقدم؛ وعندما قالت إنها أحست بالألم لرؤيتها كيف أصبحوا جميعهم معرضين للخطر مرة أخرى، وكأنهم لم يقضوا أكثر من نصف حياتهم في ألمانيا، وكأنهم لم يستوطنوها إلا منذ فترة قريبة، كأنهم ما زالوا عاجزين عن التحدث بلغة أهلها، وما زال على كل ثلاثة أو أربعة أن يتقاسموا غرفة ضيقة من دون دش في أحد بيوت العمال وقد سيطر عليهم الخوف من أن يطالبهم أحد بين عشية وضحاها أن يرحلوا، وألا يرى أحد وجوههم بعد اليوم، أو أن تصلهم رسالة حكومية تنبئهم بأنه لم يعد لهم مكان هنا إذا لم يتوقف أصدقاؤهم في البلقان عن ذبح بعضهم بعضًا.

«كان الأمر فظيعًا. لأول مرة أرى والديّ كأجانب»، قالت دون أن تنظر ناحيتي. «ليس هناك شيء ينقبض له قلبي أكثر من أن أشعر بالشفقة تجاههما، ومع ذلك لم أنجح في التخلص من هذا الشعور».

ها هما يجلسان هناك، من ناحية كانا يعلمان أن باستطاعتهما أن يستديرا ويعودا، ما زالا على العتبة، من ناحية أخرى، ثمة شعور برابطة الانتماء التي لا

يمكن فصمها، ذلك الشعور الذي كان يجثم على صدرها في بعض الأحيان ويعيقها عن التنفس، العبء نفسه الذي تشعر به ويحملها على ألا ترتكب خطأ، وأن تكون ابنة بارة وألا تخيب أملهما فيها، لأنهما هجرا وطنهما وتركا كل شيء - مهما كان قليلاً - حتى يبدآ مرة أخرى من الصفر في بلد غريب، من الصفر بكل معنى الكلمة.

«فجأة، ومن دون مقدمات، حطت المصائب كلها فوق رؤوسنا مرة أخرى».

الطريقة التي لفظت بها الكلمات لم تجعل وقعها مريرًا، وإنما بالأحرى مستسلمًا. ثم رأيت تعبيرًا بائسًا في عينيها عندما حكت لي ما تذكرته عندما كانت تعود - في سن الرابعة أو الخامسة - من حضانة الأطفال، لم تكن تريد أن تتحدث معهم تحت أي ظرف من الظروف باللغة الكرواتية، وفي الوقت نفسه بدأت تشعر بالخجل من اللغة الألمانية المكسرة التي كان أهلها يدبرون بها أمورهم.

«لا بد أن ذلك كان كارثة بالنسبة لهم»، واصلت كلامها بعد برهة صمت. «وإلا ما كانوا كرروا المحاولة دائمًا، حتى بعد مرور فترة طويلة».

ورغم أنها تنحنحت عدة مرات، فقد لاحظت أن صوتها يتهدج، فحاولت قدر الإمكان أن أهدئ من روعها قائلاً:

«وماذا تنتظرين من طفلة؟».

بدا عليها أنها لا تنصت إليَ على الإطلاق.

«لا شيء»، قالت باضطراب، «لا شيء». ورفعت يديها وكأنها تصد شيئًا.

«ما يهمني هو لماذا شعرتُ فجأة الشوق إلى أشياء سببت لي، هي بعينها، الرعب طوال السنوات السابقة».

لم يكن ذلك يتناسب مع الصورة التي كونها ألماير عنها، ناهيك عن باول ونوباته العصبية، ولكنها ضحكت فحسب عندما سألتها عما تقصده بالضبط.

«من الممكن أن تكون أكثر الأشياء تفاهةً».

ثم تحدثت عن رائحة معينة، عن الاجتماعات التي كانت تقام في شقق صغيرة تكتظ بأعداد هائلة من الناس، يجتمعون للاحتفال بعيد من الأعياد، وأنها فجأة بدأت تفتقد بحرقة فترات بعد الظهر في المدرسة اليوغوسلافية، تلك الفترات تحديدًا التي كانت تتعذب خلالها والتي لم تكره شيئًا مثلها، هاتين الحصتين في شارع فيرشو، حيث كانت أمها تصحبها دومًا إلى هناك.

«كلما رحت أعد هذه الأشياء، تناقصت»، قالت، وكان من الواضح أنها نفسها قد فوجئت بتشتت ذكرياتها وضبابيتها. «الأفضل ألا أفعل ذلك على الإطلاق».

كانت تلك محاولة للتهرب من سؤالي، إلا أنني لم ألحّ عليها، ورحت أتفرج على المركب وهو يرسو ليركب

شخصان يرتدي كل منهما معطفًا شفافًا واقيًا من المطر، ثم واصل المركب رحلته في اتجاه الشاطئ الآخر قبل أن يجلسا أخيرًا. اعتقدت أنها لن تذكر ذلك مرة أخرى، لكنها قالت عندئذٍ إن الحرب بالنسبة لها هي اللوعة والحسرة على شيء تراه يختفي ولا يمكن استعادته، حتى لو لم يكن لهذا الشيء وجود في حياتها، ثم لوّحت فجأة بيدها في حيرة ونظرتها مثبتة على منطقة المياه الآخذة في الاتساع والتي كانت تفصلنا عن المرسى. راحت تحملق في الأمواج المتلاطمة خلف السفينة، ثم تحدثت وكأنها تناجي نفسها، وكأنها تنتبه لأول مرة إلى هذا التناقض، ولم تكن تنتظر على الإطلاق أن أهتم بما تقول، ولا حتى أن أفهمه.

«لم يكن البلد هو ما يعنيني»، كانت جملتها ذات نهاية مفتوحة على أقصى اتساع. «كان شيئًا آخر».

ما زالت تنظر في اتجاه آخر. لست متأكدًا تمامًا، لكنني أعتقد أنها ذكرت بعد برهة حكاية المعلبات التي تبدو مضحكة، معلبات السمك التي كانت الجدة - حسب روايتها - قد اختزنت منها كمية كبيرة. صندوق خشبي ممتلئ بقي سنوات، إن لم نقل عشرات السنين، دون أن تمسه يد وسط الكراكيب العديدة في مخزنها. لم يكن ذلك ينم عن شيء يلفت الانتباه سوى الحرص والتقتير المبالغ فيهما من شخص عايش حربًا، ولم يكن يستطيع أن يتخيل إلا أن الحياة البشرية ستنتهي حتمًا بكارثة، إن آجلاً أو عاجلاً. وما زلت أتذكر أنني سألت نفسي:

ماذا تقصد بكلامها؟ كانت الورقة المُلصقة على العلب هي ما تقصد. وعندما أخبرتني بذلك، كانت تستطعم كل مقطع تنطق به، ما زال صوتها في أذني، النبرة المنتصرة، وما زلت أراها أمامي وقد سددت نظراتها ناحيتي فجأة.

«على العلب كانت عبارة «صُنع في يوغوسلافيا»، ولكن ما يضحك هو أنهم بدلاً من أن يكتبوا تاريخ انتهاء الصلاحية، كتبوا جملة تمنح المحتويات صلاحية غير محدودة».

كان من الممكن أن تكون تلك حكاية طريفة، ولكن حتى لو تولد لديها آنذاك الانطباع بأن كل ما تسمعه ليس إلا نوادر وحكايات، سواء كانت صحيحة أو مكررة إلى حدٍ تفقد فيه أي معنى وتكتسب حقها الخاص في الوجود؛ مع ذلك كانت ثمة حقائق معينة ظلت لا تستطيع تجاهلها. أبوها، مثلاً، الذي كان يغرق كل يوم في صمت أعمق من اليوم السابق، إلى أن استقل الباص إلى دالماتيا كي يرى ما إذا كان عدد من اللاجئين قد استولوا على منزله، إصراره على إتمام الرحلة رغم استمرار الاضطرابات، ورغم أن الطرق البرية كانت مقطوعة والطريق الوحيد كان يمر بجزيرة باج؛ أو أمها التي شرعت ثانية تهيم على وجهها كالشريدة في سوق حي ألتونا، لا لشيء إلا لأنها كانت تأمل في أن ترى هناك وجوهًا مألوفة؛ ومرة أخرى يتضح لها أنها لن تستطيع أن تتخلص من أسر تلك الحقائق، حتى لو سافرت بعيدًا،

إلى نهاية العالم. وفجأة شعرت بأنها أمست ابنتهما كما لم تكن منذ فترة طويلة، وعندما طُلب منها أن تستضيف لفترة ما ابني عمها من ليكا - شابين «عظمهما طري» على حد قولها، في السابعة عشرة والتاسعة عشرة، لا يعرفان كلمة ألمانية واحدة، هربا من وطنهما حتى لا يتم استدعاؤهما للتجنيد - فإنها كانت تقضي أمسيات بأكملها معهما، وتظل مدة طويلة معهما على مائدة الإفطار، كان من المؤكد أن تصل كل يوم متأخرة إلى المكتب، لم تكن لتشبع من صحبتهما، تنصت إلى ما يحكيانه، وتحكي هي أكثر من عادتها، كانت تتحدث وتتحدث، شاعرةً بالمفاجأة لسهولة انسياب الكلمات على لسانها، وللهدوء والثقة اللتين تمنحهما اللغة الأم.

ولعل هذا هو ما وسّع شُقة الخلاف بينها وبين زوجها، رغم أنه بذل جهدًا فائقًا في الاهتمام بضيفيها: تعامله اليومي معهما، كيف كان يكرر عليهما أن يشعرا بأنهما في بيتهما، كيف فتح الأبواب كلها على مصراعيها في الشقة هائلة الاتساع، وكيف أحضر في الأمسية الأولى أفضل زجاجة نبيذ لديه من القبو، ثم صب لهما رشفة وانتظر ليسمع حكمهما على جودة النبيذ، وكأن حياتهما تخلو من أي هموم أخرى. لم تكن على يقين: هل كانت متضايقة لأنه يسلك بالفعل سلوكًا متعطفًا، أم أن هذه الاحتمالية وحدها كانت تكفيها؟ في كل تصرفاته كان واضحًا وضوح الشمس أنه نشأ في بيئة أفضل منها، وبدءًا من نقطة معينة لم تعد ترى فيه إلا

أنه من طبقة أخرى. من ناحية شعرت بأن هذا أمر بديهي، ومن ناحية أخرى أنه يبالغ عندما يؤكد بإشارات من يده لا تخطؤها العين أن بإمكانهما أن يستخدما أشياءه. بدا لها أنه يتعامل معهما كما يتعامل المرء مع المعوزين المحتاجين، ولم يخفف من شعورها أنهما كانا يتوجهان إليه بالشكر، ويتطلعان إليه بإعجاب واحترام بالغين، لا لشيء سوى لأنه يرتدي أغلى البدل والكرافتات، ولأنه يمتلك سيارة لم يروها ولا في الأحلام. لم يكن ثمة مفر من أن ترى نفسها فيهما، سواء أعجبها ذلك أم لم يعجبها.

دون أن تمعن في التفكير حول هذه الأمور كلها، كانت ترفض في تلك الفترة كافة اقتراحاته وتجدها سخيفة، مثلاً عندما يقترح عليها أن تسافر معه عدة أيام إلى جزيرة سولت في بحر الشمال، رغم أنهما بعد حفل الزفاف كانا يسافران كل أسبوع تقريبًا إلى هناك. لم يصل الأمر إلى شجار، إنها أشياء صغيرة، اختلافات طفيفة في وجهات النظر لم تكتسب في السابق أي أهمية، أخذت تراها الآن على ضوء منشئها وأصلها، بدءًا من الهدايا التي كان يتودد بها إليها، زجاجات البرفان، الألبسة الداخلية المصنوعة من الحرير، والمفاجآت التي كان يصنعها لها عندما كانا يقضيان ليالي في أفخم الفنادق، أشياء تتناسب مع سيدة من المجتمع الراقي، وهي لم تكن ولا تريد أن تكون مثل هذه السيدة. كل ما كان في السابق يؤثر فيها تأثيرًا محرجًا أمسى باعثًا

على نفورها. كانت تقول لنفسها، ليست هذه حياتها، أن تشيخ بجانب شاب مترف، عجوز وهو بعد في مرحلة الشباب. وعندما عادت ذات فجر مع ابني عمها من حفل موسيقي أقيم في شارع دانتسيج، أوجعها للغاية أن تشعر به غريبًا في شقته. كان يجلس وحيدًا إلى مائدة المطبخ وأمامه زجاجتا نبيذ فارغتان، صورة مجسدة للشعور بالضياع.

كان ذلك حسب روايتها يوم سقوط فوكوفار، كانت أمسية محمومة كادت تصير في كل لحظة كارثة. الموسيقيون جاءوا من جزيرة براتش التي استطاعوا أن يغادروها رغم الحصار، ولم يكن هناك ما هو أكثر عبثية في عينيها من وجوده الصامت.

«عندما رأيته جالسًا، نصفه في الظلام ونصفه في الضوء، شعرت بأنه ينتمي إلى كوكب آخر»، نطقت بهذه الجملة دون أن تحاول إخفاء تأثرها بما تذكرته. «بالتأكيد كان ذلك يرجع أيضًا إلى التناقض بين صخب الحفلة وصمته، لذا بدا لي كالمنتمي إلى جنس منقرض».

ثم استطردت قائلة، إن الكلام ربما يبدو مستهلكًا، ولكن - لم يكن هو السبب، إنها الحرب التي دمرت زيجتها.

لم أعرف بأي شيء أجيب، فالتجأت إلى أكثر الأسئلة بؤسًا:

«ولكن، ماذا أدى إلى القطيعة؟».

رد فعلها كان حيرة خالصة.

«أحيانًا أسأل نفسي هذا السؤال أيضًا»، قالت بصوت بدا متعبًا. «ما زلت لا أستطيع تصديق أنه لم يحدث بيننا أي خلاف كبير».

فجأة، تراءت لي غائبة في أفكارها، ثم نطقت متعجبةً بكلمات لم تكن تريد تصديق أن لها معنى:

«قلت له ببساطة، إنني لا أنتمي إلى هذا المكان».

حدث ذلك في عطلة نهاية الأسبوع، جلسَت معه طويلاً على مائدة الإفطار، ابنا عمها كانا قد غادرا المنزل منذ فترة، وعندئذٍ سألها عما بها، إذ إنها لم تلمس شيئًا من الطعام.

«في الحقيقة، كنت أريد في البداية أن أتهرب من الإجابة على سؤاله، ولكن عندما أصر على معرفة السبب بحثت عن تفسير، ولم أجد. مع أنني كنت لحظة السؤال أشعر بالرضا، ولم يخطر على بالي أن أشكو حالي».

لو لم تلفت نظري لما لاحظت أن علينا النزول، ولكنت وددت أن أظل طيلة العصر جالسًا على ظهر المركب. لم أنتبه إلى أننا رسونا مرتين قبل ذلك من غير أن ينضم إلينا ركاب جدد، إلى هذا الحد كنت مستغرقًا في الإنصات إلى حكايتها. لا بد أن الكائنين اللذين يرتديان معطفين واقيين من المطر قد اختفيا في مكان

ما، تحت البلاستيك الشفاف لم يكونا ينتميان إلى الواقع، بلا جنس، غير مرئيين. مرة أخرى أصبحنا بمفردنا، وعندما وقفنا في الخارج على المعبر الخشبي وضعَت لبرهة يدًا على كتفي، ولم أجرؤ على فعل أي شيء حتى لا أدمر تلقائية الحركة وبداهتها، ولو أن جمودي أدى بالطبع إلى ذلك تحديدًا. انتظرنا حتى بدأ القارب يتحرك ثانية، ثم تمشيت معها في منطقة «هارفسته هوده» الناعسة أبدا، حيث الشوارع ما زالت مبللة بالمطر وعامرة بالأوراق المتساقطة من الشجر، حيث تُصفِّر الرياح بالفعل بين الأشجار مثلما هو الحال منذ مئات السنين. تمشينا في الطرق التي تحفها الأشجار من الجانبين، وبدت المنازل المبنية في الخلف أكثر تغلغلاً في العمق مما تبدو عليه في الأيام الأخرى، ولهذا السبب وحده بدا المنظر أسطوريًا، جميلاً وشنيعًا في آنٍ واحد.

دون أن أعرف السبب وجدت نفسي أتوقف عن طرح الأسئلة، هي أيضًا صمتت فجأة، وكأنها شعرت بالحرج لأنها أفضت إليّ بكل هذا. كانت هي التي اقترحت أن نمر بمتنزه «إنوسنتيال» لتريني أين كانت تسكن آنذاك، ومع أن المتنزه كان في طريقنا، فإنها اقترحت تأجيل ذلك إلى مرة قادمة. ربما يكون فضولي قد أثار فزعها، إلا أنني رافقتها رغم ذلك حتى باب منزلها، واتصلت بها تليفونيًا بعد ساعة، وفور وصولي إلى البيت سمعتها تقول «آلو»، ثم أنفاسها، وحاولت أن

أتخيل كيف أنها تقف بالتليفون أمام النافذة، وقد لفت ذراعًا حول بطنها، متطلعةً إلى السماء التي بدأت تصفو وتشف شيئًا فشيئًا حتى كادت تمسي بلا لون تقريبًا. بدا الصمت وكأنه يتسع في كل مرة تأخذ فيها نفسًا بلا صوت تقريبًا، يتسع ويتسع، قبل أن أضع السماعة، وعندما حاولت مرة أخرى سمعت الصوت الصادر من جهاز الرد الآلي، كان صوتها أكثر رسميةً مما أعرفه، صوتًا مهنيًا، كررت رقم تليفونها فحسب، ولم تزد شيئًا، لا اسمًا ولا أي شيء آخر.

بالطبع، لم أنسَ باول، إلا أنني شعرت بالإحباط عندما حدثتني على الفور عنه بعد أن تمكنت من الاتصال بها أخيرًا بعد مرور يومين أو ثلاثة. كنت قد حاولت عدة مرات أن أتصل بها في المنزل دون جدوى، إلى أن عثرت على رقم تليفونها المحمول. كانت الشركة قد أرسلتها في مهمة عمل، ولم يكن لديها إلا دقائق معدودة، ومع ذلك لم تجد شيئًا تفعله سوى سرد كافة الأخبار الجديدة عنه، وبالتفصيل الممل. كنت أريد أن أستمع إلى أي شيء آخر غير أنها تحدثت معه قبل قليل، أو تلك الجمل المكررة، أنه يستبشر خيرًا، وكله أمل في ألا يقضي نهاية الأسابيع القادمة في المستشفى، وأن الأمور إذا سارت سيرًا حسنًا فقد يخرج من المستشفى. لم تأتِ على ذكر لقائنا بكلمة، أو على موعد لقائنا القادم، وبدا لي من اللامعقول أن أسمع منها بدلاً من ذلك أنه بدأ يعمل من جديد، وأنه يشخبط في

دفتر كلما سمحت آلام رأسه التي لم تخف بعد، وأنه ينسج أكثر الخطط شططًا بشأن روايته.

لم أعاود الاتصال بها بعد ذلك، وعندما اتصلت هي بي تلفونيًا وسألتني عما إذا كنت أود أن أمر عليها خلال ساعة لنتناول الطعام معًا، كانت ثلاثة أسابيع قد مرت. اتضح أنها لم تهيئ الطعام بعد، غير أنني شعرت بسعادة أكبر وأنا أجلس في مطبخها متفرجًا عليها وهي تطهو. بتلقائية وعدم تكلف كانت تقلب في وعاء تلو الآخر، ثم تجلس إليّ وترشف من كأس نبيذها، وهو ما حررني من الخوف أن يكون قد تغير شيء في علاقتنا منذ المرة الأخيرة، وأنها تريد أن تصدني وتبعدني عنها. كان يكفي أن ألاحظ أنها راحت تتحدث طيلة الوقت، وتحكي لي عن رحلات العمل التي تقوم بها، وتسخر منها، كل ذلك جعلني أنسى شكوكي بأكملها على الفور، وأتابع مسحورًا كل حرف يخرج من شفتيها، حريصًا على ألا تلاحظ كيف أمسيت بين لحظة وأخرى أسير هواها.

«لو كنت تعلم مع أي نوع من البشر أجتمع»، قالت متحمسة. «عندهم وصفة جاهزة لكل شيء، ليسوا مثلك بشكوكك الأبدية».

لأول مرة أسمع آراءها عني. لم يكن واضحًا ما إذا كانت تعتبر حكمها في صالحي أم ضدي، وعندما استفسرت أشاحت بيديها. بعد ذلك قالت إنها تريد أن تصل إلى شيء آخر، فاعتقدت أنني أتلفت كل شيء،

رغم أنها أزالت كل لبس أو سوء تفاهم:

«عندما كانت الحرب دائرة، كانت هناك زبونة تسألني دائمًا عن رأيي: ماذا يجب على المرء أن يفعل مع الأطراف المتصارعة؟ وبالطبع كانت على الفور تقدم هي الإجابة».

ترددت هنيهة قبل أن تبوح لي بما تقصد، وكأنها لم تفهم حتى الآن كيف تخطر مثل هذه الفكرة على بال إنسان:

«دعيهم ينزفون حتى الموت يا عزيزتي، حتى الموت».

تطلعت إليها، فأكدت هي ما قالت.

«بلد بهذا الجمال، وأناس بلا عقل، كانت تكرر ذلك عليّ المرة بعد الأخرى، ثم تتنهد وتنظر ناحية السماء نظرةً متضرعةً».

ما زلت أذكر أنها كانت قد رفعت شعرها وثبتته، وهو ما جعل عينيها تبدوان أكثر ألقًا مما هما في ذاكرتي. قفاها العاري أشعرني بضعفها ورهافة مشاعرها، لا سيما بشرتها البيضاء التي تكاد تكون شفافة وأكثر عريًا، وما زلت لا أجد لذلك تفسيرًا، غير أنني كلما أطلت النظر إلى قفاها كنت أشعر شعورًا مؤثرًا، لكنه غير مريح، ومع ذلك لم أكن أستطيع إلا بصعوبة انتزاع نظراتي بعيدًا عنها؛ وكأنني كنت في تلك اللحظات أكتشف أنها ستموت يومًا، فكنت أبحث عن تأكيد أنني

مخطئ عندما أنظر مضطربًا إلى يديها محاولاً أن أثبت نظرتي ببراءة على الخاتم بحجره الأسود اللامع في إصبعها الأوسط، والأسورة المنزلقة إلى حافة اليد والتي انحشرت في زاوية غريبة تحت معصم يدها.

كان أول ما فعلته عند دخولي هو أنها قادتني عبر الشقة كلها، فاتحةً كافة الأبواب، ثم مدت ذراعيها وهي تقف قائلة:

«تفرج كما يحلو لك».

كانت تلعب معي لعبة لم أفهمها إلا بالتدريج.

«افتح الخزانات إذا أردت»، قالت لي. لكن صوتها بدا أقل جرأة مما حاولت أن توحي، وهي تكرر ما قالته مرة بعد مرة.

«ألقِ نظرة تحت السرير، فتش في الحقيبة حتى لا يفوتك شيء، ولا تنس البلكونة».

كانت تنتظر على الأقل أن أتصرف وكأنني أستجيب إلى إلحاحها، عندئذٍ قدمت لي أول تفسير، وبكل احتقار قالت:

«ربما تجد علمًا مخططًا مثل رقعة الشطرنج».

لم أفهم تمامًا ما تريد أن تقوله، فرحتُ أتلفت حولي إلى أن ذكرت اسم ألماير، عندئذٍ عرفت ما كانت تقصده. حاولت أن أهدئها، لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين.

«ماذا فعلت له حتى يسمح لنفسه بأن يصورني

كمجرمة، فقط بسبب والديّ؟».

أنا أيضًا لم يكن لدي تفسير.

«إنه لا يستحق أن تنفعلي هكذا من أجله»، كان ذلك كل ما استطعت قوله. «كان يريد أن يتفاخر أمامك، ما صدر عنه ليس إلا حماقات، هذا هو كل شيء».

تغاضت عما قلت، ولكن فيما بعد، بعد أن أكلنا وجلسنا معًا على الكنبة في غرفة المعيشة، لم تستطع تجاهل الموضوع، فكانت تعلق عليه وتعود إليه المرة بعد الأخرى، بينما رحتُ أقلب في الكتاب المصور الذي دفعت به إليّ. كان كتابًا ضخمًا، عنوانه: «طرق ساحرة». ها هو مرة أخرى، هذا البلد الذي يمكن اكتشافه عبر طرق مختلفة وعديدة، بدءًا بالجبال المغطاة بالثلوج في الشمال وحتى أسواق الجنوب التي يظهر فيها رجال مطربشون يحتسون القهوة، صور تبين مناظر فلكلورية تمامًا، من أعشاش اللقالق في بقعة ما من سلوفينيا حتى أجواء الغروب الكئيبة على ضفاف بحيرة على الحدود الألبانية، ومع أنني أحببت أن أراها وهي تتعرف على مكان ما أو أن تقول إنها كانت هنا يومًا، أو تريد الذهاب إلى هناك، فإن الشيء الوحيد الذي لفت نظري في الكتاب حقًا هو تاريخ صدوره. لم أستطع في البداية تصديقها على الإطلاق عندما ذكرت التاريخ، ولذلك رحت أبحث في الكتاب عن بيانات

الطبع. كان ما قالته صحيحًا، لقد صدر الكتاب في العام السابق على اندلاع الحرب في كرواتيا. وعندما ادّعت أنه حتى في ذلك الوقت كانت هناك مناطق تعتبر غير آمنة، فإنني شعرت أن الأمر أكثر عبثيةً.

«في ذلك الصيف تحديدًا، وأمام قرية بائسة في كرايينا، وجد أحد معارف والديّ نفسه في طريق محظور السير فيه، واثنين من الفتية يهددانه بأسلحة نصف آلية»، قالت لي. «عليه أن يعترف أن كان محظوظًا. آنذاك كانوا في تلك المنطقة قد اعتادوا إطلاق الرصاص على السيارات المارة».

بالطبع، لم تكن هذه هي الحقيقة بأكملها، تمامًا مثل ظاهر الصور التي كنت أتفرج عليها. وما زلت أتذكر أنني لأول مرة اعتقدت أنني بدأت أفهم شيئًا عن ذلك البلد عندما أرتني بضع صور لعائلتها. لم تكن صورًا لافتة، بغض النظر عن أنها لم تكن قديمة جدًا كما اعتقدت للوهلة الأولى، وما زلت حتى الآن أتعجب من تاريخ التقاطها. ليس السبب - كما ظننت في البداية - هو أن صورًا كثيرة كانت بالأبيض والأسود، ولم يرجع أيضًا إلى الإطار الأبيض الذي يحيط بالصور، أو حوافها المشرشرة، كلا، بل إلى الطريقة التي كان ينظر بها جميع الأشخاص إلى الكاميرا، طريقة تبين استقامة وصلاحًا كبيرين يظن المرء أنهما انقرضا، كانت الصور توحي بتصورات جامدة عن الكبرياء والشرف والعزاء الرخيص الذي يشعر به الفقراء، وهو ما تحدثت عنه ذات مرة،

الانتصار التافه الذي حققوه بعدم الاستدانة من أحد، خليط من الصور التي تثير في معظم الأحيان - وعلى الرغم من تلقائيتها الشديدة - انطباعًا وكأنها التقطت في استديو تصوير.

أما الصورة التحفة فكانت لأبيها وإخوتها الثلاثة، غير بعيد عن منزل والديها، صورة التقطت في فترة ما، كانوا جميعًا يعملون في أثنائها بألمانيا، ثم حضروا معًا لأول مرة لزيارة الأهل في الوطن. رغم ذلك فإن الشعور الذي تولد لدي خلال رؤية الصور هو الشعور بالفقد، كانوا يشبهون تمامًا مهاجري مطلع القرن الذين رحلوا إلى أمريكا بحثًا عن الذهب، والخبر الوحيد الذي كانوا يرسلونه إلى أقاربهم عبارة عن صورة لهم تظهرهم في وضع الرجل الناجح، ثم لا يعودون بعد ذلك أبدًا. كانوا يرتدون البدل والكرافتات، والمعاطف الخفيفة تستريح على الذراع - رغم أن الشمس في كبد السماء تقريبًا ولا بد أن القيظ لافح - يقفون في زهو كالديوك الرومية، ينظرون بالفعل إلى لا شيء، أشخاص غير حقيقيين بالمرة في وقفتهم أمام الطبيعة الرافضة، بشعرهم المنفوش وأحذيتهم الغريبة مدببة الحافة، مشيرين بفخر إلى السيارة خلفهم، سيارة ضخمة، بيضاء ذات سقف أسود ومؤخرة تشبه الزعانف، كان من الممكن أن تكون راقدة في قاع بحيرة مجففة، سيارة لا تتناسب مع المكان إطلاقًا، بجانب عدة شجيرات عجفاء، وبرميل تتجمع فيه مياه المطر الذي لم يسقط ربما منذ

أسابيع طويلة، ولفتين من الأسلاك المتشابكة تشابكًا لا يمكن فكه.

كان الانطباع المتولد هو الضياع التام، ولا سيما أن قناصًا أردى جنديًا ألمانيًا قتيلاً هناك خلال الحرب العالمية الثانية، كما روت لي هيلينا وهي تضع سبابتها على الصورة.

«يقولون إن ذلك حدث في نفس المكان بالضبط».

يبدو أنني نظرت إليها نظرة مستغربة متسائلاً عن سبب ذكرها ذلك الآن، إذ إنها كررت ما قالته ثم أضافت أن أباها - الذي كان آنذاك في الخامسة أو السادسة من عمره - رأى ما حدث.

«كان واقفًا أمامه مباشرة»، أكملت كلامها دون أن يبدو أن ذلك أثّر فيها على نحو ما. «إذا صح ما كان يدّعيه على الدوام، فقد كان الجندي قد دسّ في يده للتو بعض البسكويت، ولكنه تأخّر في التعبير عن شكره، إلى الأبد».

منذ تلك اللحظة لم تفارق الصورة رأسي: الصبي بالشورت الذي لم يسبق له أن رأى غريبًا من قبل، وأمامه الجندي في زيه العسكري، في مكان ما في هذا القفر، ابتسامة داعية ودودة، وفجأة بدت عيناه المحملقتان في جمود، نقطة حمراء على الجبين، الدم المنبثق ببطء، ثم عندئذٍ الفرقعة، تدحرج مدوٍ عبر التلال، يصل حتى البوسنة، على حد تعبيرها، ثم هدوء

مرعب، من المنزل تتردد صرخات، وقع خطوات، وكلب يشرع في النباح ثم ينتهي إلى عويل. وما زلت أذكر أنني انتظرت أن تكمل كلامها، ولكن بالنسبة لها كانت هذه هي الحكاية كلها.

«لم يكن هو القتيل الوحيد»، قلت دون أن أتمعن في الأمر. «ولكن ربما يكون ما حدث بعد ذلك هو ما يمنحه الإطار الصحيح».

كنت قد قرأت في أحد مقالات ألماير عن الإجراءات الانتقامية التي كانت شائعة آنذاك، وعنها رحت أتحدث.

«كان حدثًا يوميًا، ومقابل كل ألماني ميت كانوا يطلقون الرصاص على عدد سبق تحديده من الرهائن».

تركت لها مهلة حتى تقول شيئًا، غير أنها لزمت الصمت.

«يُقال إن النسبة كانت واحدًا إلى مائة»، أضفت عندئذ. «في بعض الأحيان كانت قرى بكاملها تُمحى محوًا تامًا من الوجود».

لم يكن واضحًا لي كيف استقبلت كلامي. دون أن تحرك ساكنًا ظلت جالسة في مكانها ضامةً ساقيها، فأخذت أتجوّل ببصري فيما حولي، على رفوف الكتب، والصناديق الخشبية الموضوعة بجانبها. عدا ذلك لم يكن ثمة أثاث سوى الكنبة التي جلسنا عليها. على الجدار المقابل عُلقت لوحة تُظهِر من على بعد كبير بيتًا أحمر على تل أصفر، وكلما أمعنت النظر فيها انتابتني

رعدة، إلا أن اللوحة جذبتني في الوقت نفسه، ثم سددت البصر إليها إلى أن لاحظَت والتفتَت برأسها أخيرًا ناحيتي قائلةً إن عائلتها كانت لديها دومًا علاقة خاصة مع الألمان.

في سياق ما قالته سلفًا كان من الممكن فهم كلامها على وجهين، وعندما سألتها عما تقصد، تجاهلت سؤالي وأكملت قائلة إنها تعني بذلك النمساويين أيضًا.

«لقد بدأ كل ذلك قبل الحرب»، قالت في النهاية. «يرجع ذلك بالضبط إلى نهاية القرن الأخير».

وفق تصويرها للأمور لم تنقطع العلاقة يومًا، بدءًا بجدها الكبير الذي سافر عدة صيفيات على باخرة سريعة تابعة لشركة «لويد» النمساوية، بين تريستا وكوتور، ومرورًا بجدها الذي كان يعمل خلال الحرب في أحد مصانع الذخيرة في جيستهاخت بالقرب من هامبورج، وانتهاء بوالديها اللذين هاجرا نهائيًا إلى ألمانيا.

«ولكنهم يقصرون ذلك دائمًا على أسوأ الأوقات»، أضافت بعد أن أسهبت وفصّلت كما يحلو لها. «أما نتيجة ذلك فواضحة».

لم أفهم تمامًا سبب تركيزها على هذه النقطة، وعندما أردت أن أقول لها ذلك، سبقتني بسؤال لم تنتظر عليه ردا.

«من أين يأتي هذا الصراخ الأبدي إذن؟».

ثم حكت لي أنهم كانوا يعتبرونها ألمانية حتى وهي بعد طفلة في أثناء زيارتها لقرية جدها، عندما كانت تلعب مع أطفال الجيران، بالطبع هم الفدائيون الذين يتجمعون في شلة متوحشة ثم يهجمون عليها صارخين: «شفابو فاشيستا، شفابو فاشيستا»[5]. كانت نبرتها متحسرة وهي تقول إنها لم تتمن شيئًا سوى أن تنتمي إليهم، وأن تشتري «كاسكيت» الفدائيين بعد أن امتنع والداها عن ذلك، وأن تلبس الكاسكيت لنفسها فحسب دون أن يراها أحد، الطاقية الزرقاء بالنجمة الحمراء التي ستحميها من أي هجوم، وتجعلها طفلة من الأبطال تتمتع بحماية على أعلى مستوى، أي ستجعلها جندية في جيش حقيقي صغير. أكثر ما كانت توده هو أن تقف وتلوح بعلم صغير مثل الجميع، واصلت كلامها، كانت ستقف هناك منتبهة مثل صبي حقيقي، عندما يحررون في المنطقة جزءًا من شارع أو أي شيء آخر، ويسلمونه للشعب، أو عندما يظهر أعضاء الحزب. ولكنها كانت ممنوعة من كل ذلك، رغم أنه كان مسموحًا لأولاد عمها وبناته أن يفعلوا ذلك، ولهذا تحتم على أبيهم أن يقبع في الحبس لمدة يوم أو يومين، لا لشيء سوى أنه غنى مرةً في المطعم الأغاني الخاطئة.

«آنذاك لم أكن قد وجدت بالطبع كلمة تصف ما يحدث، لكنني لم أعد أستطيع أبدًا تخيل تلك الفرحة بالمقاومة»، قالت لي. «بعد عشرين عامًا من انتهاء الحرب كان البلد كله يعيش بالتأكيد في نشوة الانتصار

التي أعمته عن أي شيء آخر».

لا بد أنها هي نفسها شعرت بأن كلامها تبسيطي ومخل، فصححت نفسها وكأن انسياقها وراء تلك التأكيدات قد سبب لها الإحراج.

«على الأقل كانت تلك هي النظرة الرسمية للأمور».

سددت إليّ نظرة، غير أنني أومأت فحسب. بدا عليها التردد في البداية، غير أنها كانت في الحقيقة تعني موقفها هي، ثم أضافت:

«لقد أفاق كثيرون من سكرتهم عندما وصلوا مرحلة البلوغ. وبينما مضت حياتهم في كد وتعب لا ينتهيان، بدأ السياح الألمان يتقاطرون على شواطىء دالماتيا، ولم يكن مظهرهم يوحي بأنهم الخاسرون».

لم أنتبه إلى أن نبرتها كانت تزداد مرارة، وعندما واصلت كلامها بعد وقفة قصيرة كان صوتها باترًا على نحو لم أعهده من قبل.

«على كل حال لقد سمحوا لهم بأن يعملوا على الفور سعاةً وخدمًا، كما كانوا دائمًا بالنسبة لهم».

وكما انفعلت بشدة، همدت فجأة وصمتت. ثم حاولت أن تخفي انفعالها دون أن تنجح فعلاً. لم يعد شهيقها وزفيرها يُسمع إلا بالكاد، ولكن سرعان ما اتضح أنها تكبت أنفاسها المبهورة. بدا عليها الحرج لأنها انساقت وراء عواطفها إلى هذا الحد، ولهذا اعتذرت في

النهاية بطريقة معقدة ملتفة.

«لكن كل هذه الحكايات لا يمكن أن تثير اهتمامك»، قالت. «إنها تبدو لك بالتأكيد وكأنها من عالم آخر لا علاقة لك به».

اعتراضي لم يفد بشيء، إذ أنها لاذت منذ تلك اللحظة بالصمت. لم تحتفظ ذاكرتي إلا بشذرات مما حدث بقية الأمسية، ولم أعلم هل يرجع السبب إلى صمتها، أم إلى النبيذ الذي احتسيناه. غير أنني ما زلت أتذكر أنني وقفت بعد مرور فترة ما عند النافذة، ورحت أتطلع إلى الخارج، إلى الطريق العلوي المخصص لمترو الأنفاق الذي كان يمكن رؤيته بصعوبة عبر الأشجار، وفوقه كانت عربات المترو ساطعة الإضاءة تنزلق قبل أن يبتلعها الظلام الزاحف، بينما كانت هي تقف عند المسجل الموسيقي. اقتربت مني وظلت واقفة خلفي تمامًا حتى إنني شعرت بأنفاسها خلف عنقي. لم يكن عليّ إلا أن أستدير وآخذها في أحضاني وأطبع قبلة على شفتيها، إلا أنني لم أفعل، وعندما بحثت فيما بعد عن السبب، لم أجد تفسيرًا سوى أنني كنت أحبها، وإنْ كان هذا التفسير يبدو معوجًا، بل لعله لم يكن صحيحًا على الإطلاق.

فيما بعد انتبهت إلى أننا لم نذكر باول بكلمة طوال الوقت، وربما لذلك لم أكن أريد أن أتوقف برهة عن الحديث عنه في أثناء لقائي بها في المرة التالية. غير

أنها لم تتِح لي فرصة الكلام، إذ راحت تحكي لي أنها لم تتحمله إلا بصعوبة بالغة عندما زارته مؤخرًا، وأنه كلما شعر بتحسن حالته الجسدية، ساء سلوكه على نحو لا يُطاق. ثم كررت قولها إنها في بعض الأحيان لا تعلم كيف ترضيه. وعندما تساعده على ارتداء ملابسه أو عندما تنحني دون أن يطلب منها كي تربط حذاءه، تجد نفسها مجبرة على سماع استنكاره وهو يتساءل: هل تعتقد أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك وحده؟ أما عندما يشتبه أدنى اشتباه في أنها تشك في قدرته على التذكر فإن رد فعله يكون عنيفًا يصل إلى نوبات غضب جنونية، وعندما توجه إليه أكثر الأسئلة براءةً، فإنه يتهمها بأنها تريد أن تختبره، مثلاً عندما تسأله عن عام تعرفه إلى ألماير، وهو شيء نشرته الصحف قبلها بيوم، أو أشياء تافهة من هذا القبيل.

حدث ذلك بعد أيام قليلة من تناول العشاء لديها، خلال ساعة استراحة الظهيرة بالقرب من الشركة التي تعمل بها. لم تكف عن الاعتذار لأنها ثرثرت أكثر من اللازم، رغم أنني كنت أعارضها على الفور. وإذا لم يخدعني شعوري، فقد كان واضحًا منذ الوهلة الأولى أن شيئًا ما كان مختلفًا عن المرات السابقة، بدت في عيني أكثر تحفظًا، ولكن عندما سألتها عما بها، لم تقل سوى: لا شيء، رغم أن الابتسامة التي وضعتها عندئذٍ لم تكن مقنعة. صحيح أنها لم تكن ابتسامة هازئة، كما اعتقدت في البداية، إلا أنها كانت ابتسامة متكلفة ومُغتصبة،

وكأنها توقعت رد فعلي هذا تحديدًا. في النهاية كانت سعيدة عندما انصرفَت. بقيتُ جالسًا أتفرج عليها وهي تنتظر سيارة أجرة في الخارج كانت طلبتها تليفونيًا، وهي تروح وتجيء على الرصيف، ثم في النهاية ظلت واقفة بذراعين متشابكين، امرأة غريبة - هكذا رأيتها من المنظور الجانبي - لا أكاد أتخيل أنني كنت لتوي أتحدث معها.

ولم يتغير شيء في ذلك، ومهما حاولت أن أجمَل الأمر فيما بعد، فإن كل لقاءاتي التالية بها أثارت لدي انطباعًا بأنها تتحمل عبء تلك اللقاءات حتى تجعل علاقتنا غير ملزمة كما كانت قبل حادثة باول. كانت تنطق عدة جمل عن حالته، عدا ذلك ظل همها الأساسي هو ألا تسمح بحديث حقيقي بيننا، حتى تستطيع عند عودته أن تجلس أمامي بنفس النظرة اللامبالية والرافضة التي لم أكن أخشى شيئًا مثلها. كانت موجودة عنده عندما رأيته مرة أخرى. تَظاهرت بأنها لا تلاحظ وجودي، ثم لاذت بصمت لا يمكن أن يوصف إلا بأنه فظ وثقيل، وكأنها تريد أن تؤكد تأكيدًا مضاعفًا أن العلاقة الآن قد عادت لتكون بيني وبينه فقط. كان اللقاء في المقهى في أوتنسن، ولم أعرف هل كان الأمر مصادفة أم مؤشرًا على اتفاقهما عندما سألني مباشرة بعد تبادل التحية عن عدد مرات لقائي بها في فترة غيابه.

«أرجو أن تكون فَرِحًا لعودتي»، قال. «لن أختفي

عن الساحة بهذه السرعة التي ربما تتخيلها».

منذ اللحظة الأولى كان يستظرف معي بخشونة، وكأنه فقد الشعور بالمسافة الصحيحة التي تفصله عن الناس. كان طفيليًا في لقاءاتنا الأولى، وكان يؤكد هذا الشعور عندما يضحك ضحكة فجائية. ظللت أنتظر أن يتوقف سيل كلامه، لا سيما أنني في بعض الأحيان لم أكد أفهم من غمغماته شيئًا، فقد كان يبتلع مقاطع وينثر الرذاذ في أثناء الحديث. كان يلمسني بطريقة بديهية تمامًا، وكلما قبض على ذراعي وكأنه يريد أن يمتلكني، كانت هيلينا تضع يدها على كتفه وتتركها هناك إلى أن يُفهمها بحركة متراخية أنه لا يريد ذلك، أو إلى أن ينظر إليها دون كلمة، فتنكمش على ذاتها.

ورغم أننا في مطلع الشتاء، كان وجهه متوردًا وكأنه عائد لتوه من العطلة، وقبل أن أسأله عن السبب، قال لي إنه في حالة طيبة، رغم أنه - بسبب قصر إحدى ساقيه - كان يتأرجح في كل خطوة يخطوها في أثناء ذهابه إلى دورة المياه. لم أكن أحب أن أتخيل أنه يتدلل، غير أنه كان رغمًا عنه يقلد شخصية العائد إلى الوطن بعد انتهاء الحرب، بعاهاته التي حاول أن يخفيها عبر سلوكه المتظاهر. كان الانطباع الذي يولده لدي انطباعًا مُتكلّفًا عندما كان يخرج من جيب سترته زجاجة الكونياك الصغيرة ثم يصب جرعة في قهوته، أو عندما يطلب سيجارة من الجالسين في المائدة المجاورة لنا ثم يشعلها، ليدهسها بعد ذلك في المنفضة

بطريقة مرتبكة، بدلاً من أن يتركها تحترق عن آخرها كما تعود، ثم يقول إن الأطباء منعوه من التدخين وكأن تقيده بتلك التعليمات مجرد مزاح.

لا أستطيع التذكر ما إذا كان قد أكثر الحديث في تلك المناسبة عن ألماير أو عن روايته، وعندما سألته عن ذلك قبل انصرافي بقليل، قال حرفيًا إنه أنجز أعمالاً تمهيدية منذ أن غادر المستشفى، ثم رسم على شفتيه ابتسامته الراضية عن الذات، لكنه ما لبث أن تراجع عن نصف ما قاله عندما أضاف أنه يمرن أصابعه فحسب. وفي اليوم بعد التالي وجدت في بريدي مقالة نُشرت في صحيفة نمساوية، وإذا به يتصل بي تليفونيًا ولم أكد أفرغ من قراءتها، ثم يسألني عن رأيي. أدركت أنه لن يتوقف عن الإلحاح، لذا حاولت أن أرضيه ببضع كلمات، لكن النتيجة كانت رغبته في سماع المزيد والمزيد.

كان تقريرًا عن صور أليس شاليك التي رآها في معرض بالمتحف اليهودي في فيينا، وقد ضمَنَ التقرير أفكاره غير المثيرة وشبه المسروقة من مجلة «الشعلة»، عن الفارق بين المراسل الحربي والصحفي الذي يكتب لقسم الرحلات في جريدة. أما دافعه إلى كتابة ذلك فهو أن المرأة حاولت أن تمارس كلتا المهمتين معًا، فهي قد تنقلت من معركة إلى أخرى في أثناء الحرب العالمية الأولى، كما اكتشفت قبل الحرب وبعدها آخر البقاع الإكزوتيكية في القارات المختلفة. دون معرفة الصور لم

يكن في استطاعتي القول إذا كان محقًا في نظريته، وهي أن الحرب لديها تبدو كالسلام، والسلام كالحرب: مجموعة مسافرين على البحر الميت، النساء، وهي من بينهن، مختبئات خلف نظارات الشمس، ورجال يقفون حولهن في حيرة، ومما يؤكد أنهم في المكان الخاطئ أنهم يضعون فوق رؤوسهم ما يشبه كاب القبطان الأبيض. هذه الصورة لم تكن تختلف كثيرًا عن فرقة موسيقى عسكرية تقف أمام المصورين في مكان ما في منطقة غاليتسيا البولندية، شخص يرتدي رداء فضفاضًا يقف وحيدًا في الصحراء الليبية، لا يختلف كثيرًا عن جندي الحراسة مشدود القامة الذي يؤدي التحية العسكرية على ضفاف بحيرة جاردا الإيطالية. لم يطبعوا في الصحيفة سوى صورة واحدة، تُظهر خمس نساء يسرن نحو الرائي، يرتدين ملابس بيضاء وعلى وجوههن أحجبة سوداء، وعندما قرأت تحت الصورة: «موكب التركيات في موستار، يوغوسلافيا ١٩٢٩»، فقد كان تعليقه حول ذلك عبثيًا، إذ أنه قال إن هذه الصورة واحدة من أكثر الصور التي التقطتها حيويةً، وأنها تخلو من الجمود الذي يسيطر على المحاولات الأخرى التي قامت بها، وفيها يبدو معظم الأشخاص الذين تصورهم كالموتى، وكأنهم تماثيل شمعية تقف في طبيعة مجمدة، حتى في أثناء الحر.

لم أقل له رأيي، وأعتقد أنني حاولت بعبارات مستهلكة أن أنسحب من الأمر برمته، ويسعدني أنني لم

أعد أتذكر الآن شيئًا. يكفيني أن أتذكر أنه لم ينزعج، بل ولم يعترض عندما سألته من دون مقدمات عن هيلينا، وبسرعة بادرني بالإجابة.

«يبدو أنها في حالة جيدة».

قالها بنبرة من يريد أن يجعلني أفكّر في الأمر، هل أصدقه أم لا. ثم واصل قائلاً: «إنني أحسدك على ما تحكيه لك. فهي معي تبدو منغلقة تمامًا، لذلك فأنا أبذل جهدًا في السيطرة على نفسي حتى لا أندفع وأسألك عنها.

لم يكن واضحًا بالنسبة لي ما إذا كان جادا فيما قاله، إلا أنني أسرعت وهدأته، بينما تمهل هو في الرد.

«لقد تحدثت عن نظراتك».

بذلت أقصى جهدي حتى لا أكرر ببلاهة ما يقول.

«وماذا عنها؟».

«تقول إنك تنظر إليها بطريقة مختلفة تمامًا عني. إنها تشعر بأنك تمنحها إطارًا، بينما تشعر معي بأنها تنساب إلى كل الجوانب».

رغم أن كلامه بدا غامضًا للغاية، فقد امتنع عن إيضاح ما يقصد، وعندما اجتمعت به المرة التالية، لم يُظهِر أدنى اهتمام بالتحدث عنها، كما بدا أقل مرحًا عن لقائنا الأول، ثم اعتراه فجأة مرة أخرى عدم الثقة بالنفس وكأنه في المكان الخطأ، وبالتأكيد شعر هو أيضًا بذلك. استخدم ما قالته هيلينا ذريعةً كي يعرف أين

موقعه، ولم يعد يذكرها بكلمة، سوى في البداية عندما أبلغني تحيتها، وفي أثناء ذلك - سواء عمدًا أم لا - بدا متصلبًا مثل زوج مغفل يتحدث عن امرأته الخائنة. مر بعض الوقت إلى أن بدأ يلمح ويهذر قائلاً إنني «وضعت عيني عليها». لكنني لم ألاحظ أن الموضوع يشغله إلى هذا الحد إلا عندما جاءني يومًا نصف سكران وانفجر قائلاً إنه كان سيقبل لو نمث معها، شريطة أن أترك له حكاياتها دون أن أفسدها عليه، وألاّ أحرض هيلينا عليه حتى تتوقف عن تزويده بتلك الحكايات.

في تلك الفترة كان يحاول جاهدًا أن يتصل بأكبر عدد ممكن من الناس الذين تعرفوا إلى ألماير كي يعرف المزيد عنه. قام بعدة محاولات فاشلة في هذا الصدد، بدءًا بزوجته التي فقدت السيطرة على نفسها عندما طلب منها أن تحكي له كل ما تعرفه عنه وكل ما تتذكره، فلم تتوقف هي عن سؤاله: متى سيبلغ أخيرًا مرحلة النضج ويقلع عن الجري وراء أوهام في رأسه لن تفيده بشيء مطلقًا، مطلقًا بكل معنى الكلمة. وسواء كان الأمر يدور حول الأرملة في زغرب، أو مؤجرة الغرفة بالقرب من المحطة، والتي كانت قد توفيت قبل سنوات، أو شرايفوجل - ذلك الصحفي النكرة الذي ينحدر من أصول ألمانية يوجسلافية والذي كان قد كتب عنوانه، غير أنه كان في ذلك الوقت يكتب التقارير عن القضايا التي تنظر فيها محكمة الجزاء الدولية، وحسب أقواله لم يكن لديه وقت - فقد بدا أن النتيجة

التي كان يتوصل إليها دائمًا واحدة لا تتغير. وعندما تمكن من التحدث مع المصور الذي أُصيب بالرصاص في كوسوفو، فإنه لم يتمكن من أن يوجه له أسئلة، بل تحتم عليه أن يسمع منه طوفانًا من الكلام حول تلك المذابح المثيرة للغثيان، حول فظاعة وعهر تلك الصور التي كانت قد نُشرت في صحيفة ما والتي تظهر شخصًا يحتضر على حافة الطريق أمام أعين العالم كله.

وحدها الممرضة البلجيكية التي كانت في الموقع أفادته بأقوالها، رغم أنها في البداية صدته قائلة إنه ليس بحاجة إلى المجيء خصيصًا إلى بروكسل، وإن بإمكانه أن يكتفي بالتليفون. وما زلت أتذكر أنه حكي لي أن كل ما سمعه يمكن تلخيصه في عبارة واحدة لا تزيد عن كلمتين، كانت تنطق بهما بصعوبة وتكررهما المرة تلو الأخرى.

«هل سأموت؟».

هذا هو السؤال الذي كان ألماير يوجهه إليها، بينما أخذ الأطباء بعد وصولهم إلى مكان الحادث يحاولون إسعافه، فربطوا رباطًا ضاغطًا على بطنه، ثم راحوا يحومون حوله بعصبية وهم يوصلون أنابيب المحاليل والأكسجين. كانت هي الوحيدة التي بقيت هادئة. أمسكت بيده منحنية عليه وهي ترى في حدقته تلك النظرة المنطفئة التي رأتها كثيرًا، النظرة الزجاجية التي تبدو منكفئة على ذاتها.

«لن تموت».

كان باول يحكي لي ذلك بتردد، وكأنه يريد أن يوقف كل شيء حدث في الماضي، وأن يهمس في أذن الممرضة بالتعويذة السحرية التي تنقذه، وبينما رحت أتخيلها وهي تهمس بتلك الكلمات الخانقة، تنحنح هو حتى لا يبين تأثره.

«لن تموت، صدقني، لن تموت».

رفع كلتا يديه وتخشب لحظات، قبل أن يواصل كلامه بصوت بدا فجأة أعمق بكثير مما سبق: «وماذا كان بوسعها أن تقول غير ذلك؟».

لم أكد أسمع ما يقوله، إلى هذا الحد كان صوته خافتًا.

«لا بد أنها أثرت عليه بكلامها، وكأن عليه اجتياز موقف بسيط محرج، وإذا اجتازه فسيكون محصنًا ضد كل شيء، وليس عليه عندئذٍ أن يخشى شيئًا»، هكذا واصل كلامه. «رغم أنه مع كل كلمة كان يبتعد عنها شيئًا فشيئًا».

أتخيل السماء فوقه زرقاء في ذلك اليوم التعيس من شهر يونيو الذي ربما كان حارًا، ثم أصبح في فترة العصر معتدلاً جدًا، تتخلله النسائم اللطيفة المخملية التي داعبته برقة، وهو ما جعل الفظائع تبدو أكثر بشاعة.

«هل قال شيئًا آخر؟».

فوجئ باول بالسؤال على ما يبدو.

«لا أعرف».

انتابته رعشة قبل أن يقول إن الممرضة لم تحكِ له شيئًا غير ما روته للصحف: إن المسكين ظل يسأل عن زوجته دون أن يتوقف عن الكلام عن مدى حبه لها. ثم استطرد قائلاً:

«يُقال إنه في الحقيقة لم ينطق بكلمة واحدة عن هذا الموضوع. رغم ذلك فإن هذا الكلام هو بالضبط ما يريد الجميع سماعه».

هذا ما فكرت فيه بعد فترة ليست بالطويلة، يوم الثلاثاء أو الأربعاء التالي لعيد الميلاد، عندما تعرفت أخيرًا إلى إيزابيلا. لم أكن متأكدًا بشأن طريقة تعاملها مع الأمور، هل كانت الجَلَبَة الدراماتيكية المثارة حولها باعتبارها أرملة ألماير تعزيها بالفعل، أم أنها اعتبرتها إهانةً لا يمكن الرد عليها.

على كل حال كان ردها: «لحسن الحظ فإن كل هذه المبالغات لا تعنيني على الإطلاق. أستطيع من دونها أن أتخيل على نحو أفضل كيف حدث كل شيء بالفعل».

تردد باول في البداية، لكنه اتفق معها رغم ذلك على لقاء، ثم طلب مني أن أرافقه لأنه لم يكن يعلم كيف يواجهها وحده. جلست هناك ولم أتدخل، تاركًا إياه يوجه الأسئلة، ومصغيًا في معظم الأحيان إلى ما

حكته. كان اللقاء في شقتها بالقرب من متنزه «شترن شانتسن»، وهي الشقة التي احتفظت بها بعد الحادثة، رغم أنها كانت واسعة جدًا على شخص واحد، وبينما راح هو ينزلق على الأريكة - حيث أشارت له بالجلوس - ثم يرجع إلى الوراء وقد ركبه القلق، غصت أنا في مقعدي مستمتعًا بأنها كانت على ما يبدو توجه الحديث بالأحرى لي، وليس له. على كل حال كانت تنظر إليّ كلما ألحّ عليها ولو عن طريق الإشارة، وكأنها ليست بحاجة إلى من يذكرها بالنقاط الواجب التحدث عنها، وأنها تود أن تحتفظ بحكايتها لمستمع يبتعد تدريجيًا مع كل كلمة تنطق بها، إلى أن يختفي تمامًا.

كانت قد تزينت استعدادًا لمجيئنا، فارتدت «تاييرًا» غامقًا بدت فيه كالمتنكرة، إلى أن خلعت الجاكت، ثم جلست هناك ببلوزتها البيضاء، شاردة اللب، وقد أبعدت ما بين الساقين. على شفتيها وضعت درجة من الأحمر الفاتح، ونثرت - كما يبدو - المساحيق على وجنتيها. بدت شاحبة إلى درجة غير طبيعية في أثناء ضوء النهار الذي كان ينساب عليها من الشباك العالي، ولعلها لم تكن بحاجة على الإطلاق إلى النظارة التي كانت تضعها على أنفها، وهي نظارة من دون إطار، ربما مجرد جزء مما أرادت أن تمثله، وسيلة أخرى حتى لا تجعل أحدًا يقترب منها أكثر من اللازم. وعندما كانت تنهض من وقت إلى آخر لتختفي بضع لحظات في المطبخ، أو عندما كانت تخطو خطوات قليلة في اتجاه الحائط

لترتكن إلى أحد رفوف المكتبة، كانت عندئذٍ تنظر إلينا وكأنها تتساءل من أين أتينا.

لسبب من الأسباب ظللت أسأل نفسي منذ البداية كيف تتحرك في الشقة عندما تكون وحدها، كيف تسير إلى الشباك وتلقي نظرة إلى الشارع الذي يكاد يخلو من الحياة، كيف تتمدد على الأريكة وتقرأ الصحيفة، أو تستلقي هناك لا تفعل شيئًا سوى الحملقة في السقف. ليس معنى ذلك أنها المرة الأولى التي تهاجمني فيها مثل هذه الخاطرة - مثل هذا التعجب الذي لا يرتكز على شيء، التعجب من حياة أخرى لا أدرى عنها شيئًا - ولكنّ شيئًا ما في سلوكها جعلني أفكّر أكثر من المعتاد في أنها، إذا نظرنا إلى طريقة سيرها، لا يمكن أن تسير أو تقف لنفسها فحسب، ضحكتها ما زالت لها وحدها، عندما كانت تميل برأسها بعض الشيء، وتلمع عيناها وكأن الدمع سينهمر منهما في أي لحظة. في تلك اللحظة أثّرت فيّ وقفتها، وعدم جدوى تلك الوقفة. تطلعت إليها بين الحين والآخر وكأنني لا أستطيع التصديق، وكأنني أنتظر أن أراها تنهار فجاة.

بمجرد دخولي كنت أبحث عما يشير إلى وجود ألماير، غير أنني لم أجد شيئًا، إلا ربما بعض الكتب في الأرفف، ومن المحتمل ألا تكون جميعها كتبه. لم تكن ثمة صور له، ولا حتى بين الأشياء التي أخرجتها فيما بعد للعيان، لا تذكارات سياحية من أكثر مناطق العالم غرابة التي ذهب إليها عبر السنوات، ولا تذكارات

استعراضية من الحروب: رصاصات، فارغة أو معمرة، القشرة الخارجية لقنبلة يدوية تحولت إلى منفضة سجائر، أو خوذة مصفحة اخترقتها رصاصة. بل حتى غرفة مكتبه، حيث لم تلمس شيئًا تقريبًا منذ وفاته، لا تكاد تبوح بشيء عن صاحبها، أو كانت تبوح بالأشياء التي بدت للوهلة الأولى تتحدث عنه، فباستثناء الأثاث الضروري كانت غرفته خاوية تمامًا - طاولة وكرسي وكنبة - وحسب كلامها لم تكن الغرفة تحوي حتى في أثناء حياته أكثر من ذلك، وعندما رأيت المربعات التي تكونت من ضوء الشمس على الأرضية الباركيت، حادة الزوايا، مشوهة، وفوقها ذرات الغبار المتراقصة في النور، لم أستطع في غمرة شعوري المفاجئ بالضياع سوى أن أتخيل أنها كانت أحيانًا - بعد عودته من رحلة في مكان ما - تضع له زهورًا على حافة النافذة، مزهرية مليئة بالزهور، هي التي رسمت اللوحة بالتأكيد، تلك اللوحة المعلقة على الجدار العاري في المنتصف تمامًا، والذي كان يخلو من أي شيء آخر، اللوحة الباهتة المرسومة بالألوان المائية والتي تُظهر كلبًا برأس مائل، يتلكأ في مشيته تحت رذاذ المطر الكئيب، صورة غير حقيقية بالمرة، وتحتها عنوان مناسب تماما: Ghost Dog.

ما زلت أتذكر أن إيزابيلا قالت عندما فتحت باب الغرفة وتركتنا نلقي نظرة داخلها، إن علينا ألا نتعجل في استنتاجاتنا، وألا نجد في هذا كله دليلاً على أي

شيء كان. ثم أضافت:

„لم يكن هو بالإنسان المعتزل الذي يشق طريقه وحده، كما قد يبدو". وبذلك أتت هي لأول مرة على ذكر هذه النقطة. „لقد كان يعاني بالأحرى في بعض الأحيان من جوع وحشي إلى الحياة".

لم أكن متأكدًا إذا كنت قد أخطأت السمع، فنظرت إلى باول، ولكنه كان يحملق فيها بفم مفتوح، ولذلك لم يعد ثمة شك في أنها قالت ذلك بالفعل. لم أسألها إذا كان ما قالته مجرد تعبير لا تقصده على النحو الحرفي، أم أنها تقصد شيئًا آخر. هو أيضًا لزم الصمت، وبعد المفاجأة الأولى تماسك، ولم يجعل شيئًا مما يعتمل في باطنه يظهر على ملامحه. كان يجيد ذلك، رغم حيرته في البداية، عندما توجب عليه أن يشرح لها ما كان يريده منها، وكنت أدرك أنه لا ينتظر مني سوى الموافقة، كان يكفيه أن أتصيد نظرته من حين لآخر، ثم أومئ موافقًا على ما يقول، دون أن يلفت نظرها ذلك.

رغم ذلك كان الحديث متعثرًا، إلا إذا أتى هو أو هي مباشرة على ذكر المتوفى. ولكن أيضًا عندما بدأ يتحدث عنه، فقد ظل وقتًا طويلاً يقتصر على العبارات المهذبة والمجاملات، ذكريات لطيفة عادية، مثلاً ما عايشاه معا، وهو ما جعل حيرتها تزداد، إذ إنها لاحظت عبر ذلك كيف كان يحاول بلا لباقة أن يكسبها في صفه، وأن يبيعها تذكاراته معه. كان يتجنب ذكر اسمه

مضطرًا، أما إذا سهت هي وقالت „كريستيان"، فإنها كانت تتلعثم على الفور، وكأن ذلك غير لائق، ثم تبذل جهدًا واضحًا في التحدث حديثًا رسميًا عن زوجها، ولكن ذلك لم يكن يثير سوى انطباع بالمبالغة، كانت تعطي الانطباع بأنها غادرت المدرسة منذ فترة قصيرة، لذا فقد أرادت تمويه ذلك بالتصرف مثل سيدة رزينة، سواء نجحت في ذلك أم لم تنجح.

ورغم أنهما كانا يتحادثان حول صغائر الأمور، فإن الموقف كاد ينقلب إلى سوء تفاهم حقيقي عندما حكى أن لقاء كان مرتبًا بين الثلاثة، ولكنها في البداية لم تتذكر شيئًا عن ذلك إطلاقًا، ثم بين لحظة وأخرى غيرت رأيها قائلة:

„أتذكر هذا اللقاء". لم يكن من الواضح في البداية إذا كانت تعمدت أن تفعل ذلك، أم أنها تذكرت الأمر لتوها. „ولكن للأسف لم أستطع المجيء".

وافقها بهزة رأس، ولكن عندما ادّعت أن ألماير ظل طيلة الليلة يتنقل معه، لم يعد يعرف عن أي شيء تتحدث، فما كان منه إلا أن نظر في حيرة ناحيتي، ثم ناحيتها، إلى أن شرحت له في النهاية ما تقصد:

„لم يظهر في البيت إلا في ضحى اليوم التالي، وعلى الفور سقط على السرير، ثم استغرق في نوم لم يستطع أحد إيقاظه منه حتى الصبح".

الضحكة التي شرعت في إطلاقها كانت متكلفة،

فوافقها، وكأنه لا يريد أن يبين لها أنه يسمع عن ذلك للمرة الأولى.

„إذا لم تخني الذاكرة، كان ذلك حتما في بداية مارس. كان عائدًا لتوه من بلجراد ليكتب عن حالة الناس هناك"، قال بعد برهة دون أن يتجاوب مع نبرة صوتها التي تراوحت بين الجدية والمزح. „كان ذلك قبل سقوط القنابل الأولى على المدينة، ولم أره بعد ذلك إلا مرة أو مرتين".

وسواء أراد ذلك أم لا، لقد أصبح الآن في قلب الموضوع، ولاحظت كيف تغيرت ملامح وجهه بين لحظة وأخرى. في البداية قلت لنفسي: ربما يكون بذلك قد اقترب أكثر من اللازم منها، ثم اتضح لي أن عبارته قد أراحتها بعض الشيء، لأنه توقف عن اللف والدوران ودخل أخيرًا في صلب الموضوع. في أثناء كلامه صبت الشاي الذي كانت قد أعدته وتركت الكيس بداخله طويلاً، ثم رحت أراقبها وهي ترفع فنجانها مع صحنه بطريقة تكاد تكون احتفالية، ثم وهي ترتشف قليلاً منه، وتضع الفنجان مرة أخرى، وفجأة تخشبت في جلستها وضمت ساقيها.

„لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يسهر فيها طوال الليل بعد رجوعه من الحرب"، قالت أخيرًا. „لا بد أن ذلك كان أكثر الأشياء عاديةً في العالم".

ثم حكت كيف تعرفت إليه، وفي لمح البصر تبخر

كل التهكم من كلامها، وراحت تتكلم بتؤدة وحذر وكأنها تتعامل مع طفل.

„بعد أكثر من أسبوع ستكون أربع سنوات بالضبط قد مرت“، بدأت كلامها بعد برهة. „أحيانًا يبدو لي الأمر وكأن عمره بدأ منذ اللحظة التي مات فيها“.

حدث ذلك قبل رأس السنة بقليل، عندما ظهر في المقهى في ساحة „شولتربلات“، حيث كانت تساعد بين الحين والآخر في إعداد المشروبات. كان يقف أمام الباب في الصباح عندما فتحت المقهى في الساعة العاشرة صباحًا، ثم جاء مرة أخرى في الرابعة بعد الظهر، وكأنه كان ينتظر بكل جدية أن تطلب منه الدخول. هذا ما لفت انتباهها، وأيضا كيف ظل جالسًا في مكانه وكتاب في يده. لفترة طويلة كان هو الزبون الوحيد، وعندما رجع في اليوم التالي كانت تعلم أنه سيطلب الطلب نفسه، قهوة بحليب كثير، وأنه سيجلس في المكان نفسه ويتطلع إلى الشارع، أو يقرأ في الكتاب ويتفرج عليها عندما تنظر في اتجاه آخر. لم تستطع أن تقول لماذا، لكنها لم تستطع أن تطرده من رأسها منذ ذلك اليوم، وهكذا أخذت تنتظر مجيئه، وبقلق لا تسمح لأحد بالجلوس إلى مائدته، وإذا مر وقت مجيئه، كانت تذهب إلى المدخل من حين لآخر لتلقي نظرة على الشارع، ثم جاء اليوم الذي وجدت فيه نفسها تلتقي معه.

ما زلت أتذكر أنها ترددت قبل أن تفشي لنا أنها وجدت نفسها مضطرة في نهاية سهرة إلى أن تسأله أمام باب المنزل عما إذا كان يريد أن يقبّلها لأنه ظل واقفًا في مكانه بلا حراك. وأضافت:

„لم أجد حرجًا في تكرار ما قلته، إلا أنه أومأ برأسه فحسب. عندئذٍ أمسكت بيده، وأخذته ببساطة معي".

لاحظت أن باول أخفق في كتم ضحكته، وخشيت أنه سيقول شيئًا على شاكلة أن ألماير كان في السابق يسلك سلوكًا مخالفًا، غير أنه لزم الصمت إلى أن واصلت كلامها قائلة إنه لم يكد يحكي شيئًا في البداية عن نفسه.

„لا أقصد أن ذلك كان سيغير من الأمر شيئًا، ولكنني ظللت فترة طويلة لا أعرف أي شيء عما يفعله".

لم تعرف ذلك إلا عندما نظرت خلسة في دفتر ملاحظاته، تلك الكراسة الضئيلة ذات الورق المرسموم بالمربعات والتي لم يكتب إلا على صفحاتها الأولى. بدأ الدفتر بالتاريخ: „زوبانيا في ٣١ ديسمبر ١٩٩٥"، وهو تاريخ لم يكن قد مضى عليه أكثر من شهر، وتحته كتب: „الأمريكان، أخيرًا الأمريكان، وإنْ كانوا تأخروا ثلاثة أعوام"، وشيئًا فشيئًا فهمت أنه يقصد دخول القوات المسلحة إلى البوسنة، ثم بعد ذلك بفترة وجدت في الأطلس تلك البلدة الحدودية على نهر السافه في أقصى شرق كرواتيا. وعندما قرأت أنه سمع ضجيج

مئات الدبابات ثم رأى عن قرب المركبات المتراصة المنتظرة، انفتحت عيناها، فحاولت أن تتخيل السيناريو، المعبَر الضخم المتحرك المُشيد لتوه في حراسة القوارب السريعة، وهو ما كتب عنه، على بعد أقل من مائة متر من الجسر الذي فُجر في الحرب والذي بدا ساكنًا وسط المطر المتواصل والهليكوبتر تحوم فوقه، مستنقع موحل، حيث فاضت المياه فوق الشطآن مكونة بحيرات فعلية في بعض الأماكن.

كان ذلك هو كل ما وجدته في دفتر الملاحظات، وصف ميدان الزحف البائس، إضافة إلى رقم تليفون في زغرب، وعدة ملاحظات مختزلة لم تفهمها، ثم عبارة على الغلاف الأمامي، قول مأثور على ما يبدو، يبدأ بجملة: „كنت أتمنى أن أحيا حياة أخرى".

„لا أعرف ما هي الجملة كاملة"، أضافت، „ولكن الكلام دار حول أشياء عاطفية، وانتهى تحديدًا بأمنية أن يُرزق المرء بطفل".

بعد أن تمعنت في الأمر برهة، واصلت كلامها قائلة، إن الفوضى عمّت السطور التي قرأتها: نقل أشياء عبر البحار إلى البرازيل، أن تكون حكيمًا في الهمالايا، أو في قارب بأحد الموانئ، حيث يستيقظ المرء في الصباح على نفير السفن التي تشق طريقها وسط الضباب، وحيث تعكس المياه أشعة الشمس.

„كان الوصف مبتذلاً إلى حد كبير".

ثم طرحت سؤالاً جاء مفاجئًا: „هل يعرف أحدكما من هو جفريلو برينسيب؟".

لم أكد أومئ برأسي حتى كان باول يتحدث مثل المعلمين الذين يلقون الدروس المحفوظة. استخدم العبارة الشائعة: „منفذ عملية الاغتيال في سراييفو"، وأنه هو الذي اغتال ولي العهد وزوجته.

„وما علاقة ذلك به؟".

لم يكن السؤال فظًا على النحو الذي ربما وصلها، ولعلي أكون مخطئًا، ولكن عندما أمعنت النظر فيها، بدا لي أن عينيها تترقرقان بالدموع. ثم قالت:

„العبارات تُنسب إليه. يُقال إنه كتبها وهو سجين على حائط زنزانته في „تريزين شتات"، قبل أن يلقى حتفه هناك".

ومن دون أي شرح إضافي نهضت وفتحت الباب المؤدي إلى إحدى الغرف المجاورة باحثة عن منديل، ولمحت في غرفة نومها شجرة عيد الميلاد المثقلة بالكريات الحمراء البراقة. رحت أحاول ألا أنظر في اتجاهها، ولكنني حاولت أيضًا ألا أحول بصري عنها، في تلك الأثناء كانت قد جلست مرة أخرى ونثرت رذاذًا على وجهها، وظلت تمر بيدها على سروالها في حيرة فاردةً إياه. بدت في جلستها المستقيمة، واليدان على الفخذين، وكأنها تنتظر، ولكن لا باول ولا أنا قلنا شيئًا، فأخذت تتحدث عن الوضع الراهن على الحدود مع

كوسوفو، وأنه وبعد مرور ثلاث سنوات ونصف السنة، لا يختلف كثيرًا عن الوضع آنذاك على الحدود مع البوسنة: حشود ضخمة من الجنود تنتشر في بلد لم يسد فيه السلام الحقيقي بعد.

ولكن الفارق في عينيها كان هو أنها عايشت الوضع هذه المرة من البداية، إذ إن ألماير كان يتصل بها تلفونيًا كل بضع ساعات، مرتين أو ثلاث مرات من الفندق في سكوبيا، حيث كان ينتظر مع الصحفيين الآخرين أن تبدأ المعركة أخيرًا، هكذا قالت، وعندما توقفت عن الكلام، انتهز باول الفرصة وذكر أنه تحدث معه من هناك أيضًا.

„أعرف"، أجابته بنبرة توحي أن لا شيء يثير سأمها مثل الحديث عن ذلك. „لقد ذكر لي هذا".

ثم حكت أن ذلك كان في يوم جمعة، وأنها لم تذهب إلى العمل، فهي لم تكن في وضع يسمح لها بفعل أي شيء، إلى هذه الدرجة كانت منفعلة.

„لسبب أو لآخر لم أنجح في تشتيت ذهني والتفكير في شيء آخر، كما تعودت أن أفعل، ولذلك كدت أفقد عقلي من التوتر".

كانت أفظع التقارير قد نُشرت حول ما وجدوه في البلاد، شائعات عن عشرات، بل مئات الآلاف من القتلى، لقوا مصرعهم على نحو وحشي في منازلهم أو في أثناء هروبهم، فيما بعد عرفنا أن هذه الأرقام مبالغ فيها،

وبالطبع كانت تشعر بالخوف على حياته. كان الأمر مختلفًا عن المرات الكثيرة السابقة، حيث كان يبتعد عنها إلى منطقة ما من مناطق القتال، لأنهما تشاجرا معًا حول أمر من التوافه في صباح اليوم نفسه الذي استقل فيه الطائرة، ولذلك لم تكن تستطيع أن تطرد السؤال من رأسها: ماذا سيحدث لو لم تره حيًا مرة أخرى؟ أي وداعٍ هذا، انصرافه واختفاؤه خلف الحواجز، دون كلمة، دون عناق، ودون أن يلتفت مرة أخرى ناحيتها. عندئذٍ اتضح لها أنها كانت تخدع نفسها طوال سنوات معرفتها به، لأنها كانت تعتقد بالفعل أنها اعتادت غيابه. كانت تلك أوهامًا حتى لا تجد نفسها مجبرة على التفكير في الأمر. كان الفزع الذي انتابها بسبب الزمن الضائع، الأيام المحذوفة ما بين سفره ووصوله، الظلمة، إن لم نقل الفراغ، بين قبلتين يطبعهما على شفتيها.

لأن صوتها رقّ، ثم كاد يتلاشى عندما حكت عن شعورها العميق بالراحة لأنه على الأقل اتصل بها تلفونيًا قبل يوم من بداية الهجوم البري.

„في المكالمة الأخيرة معه، قبل أن أذهب للفراش، كانت ربما العاشرة مساء“، أضافت بعد برهة. „تحدث بسرعة في السماعة، ولم يقل سوى إن اللحظة قد حانت“.

عندئذٍ انضم بالتأكيد مع المصور إلى القطار العسكري الذي انطلق تجاه الحدود، مارًا برتل لا ينتهي

من المركبات المصفحة التي لم تكن تتقدم في بعض الأحيان إلا بسرعة السلحفاة، ومارًا بالجمع الغفير الواقف على حافة الطريق، مهللاً وناثرًا قصاصات ورقية.

„على ما يبدو كان ذلك احتفالاً شعبيًا بكل معنى الكلمة".

كان مدهشًا كيف تحدثت بهدوء وبلا انفعال عن ذلك، وكذلك عن اللاجئين في المخيمات في الشمال، ومنهم كثيرون ظلوا لمدة طويلة يركضون بجانب القطار محاولين الانضمام إلى القافلة، بلهفة ظاهرة على العودة بأسرع ما يمكن إلى قراهم التي أجبروا على هجرها في الأسابيع الماضية.

„أحيانًا لم يكن ممكنًا إيقاف البعض"، هكذا قالت. „كان واضحًا أنهم يتصرفون وكأنهم عادوا إلى الوطن بعد سنوات من المنفى".

ورغم أن المسافة إلى سكوبيا لا تزيد على ثلاثين كيلومترًا، فإن ألماير - حسب وصفها - لم يصل مع موكب الإمدادات قبل منتصف الليل إلى „بلاسه"، وهو آخر الأماكن المقدونية قبل كوسوفو. كانوا قد أخلوا المعسكر الذي زاره في أيام الفصح، مدينة الخيام هذه التي نُصبت على عجل في حقل مفتوح، حيث أوقفوا أفواجًا من اللاجئين عبر أيام العيد، كثيرون منهم قضوا تلك الأيام في العراء، في البرد والمطر، ودون طعام

يُذكر؛ وكانت محقة في قولها إن رجوعه إلى تلك البلدة تحديدًا بدا عبثيًا تمامًا. لعله قضى بقية الليل منتظرًا في السيارة، وتخيلت كيف انقشعت الظلمة في غبش الفجر عن أطلال البيوت التي رأتها لاحقًا على إحدى الصور، تلك المباني غير المسقوفة والمحترقة عن آخرها في بقعة لا اسم لها على الخريطة، بيوت ذات فوهات سوداء كانت فيما قبل نوافذ، أطلال غير واضحة المعالم، رمادية اللون، وخلفها مداخن مصانع الأسمنت المدمرة على الجانب الآخر من الحدود.

عندما عاود الاتصال بها قبل الخامسة فجرًا بقليل، لم يقل سوى إن النهار قد طلع، تمامًا كما كان يحدث عندما يرقد بجانبها على الفراش ويستيقظ قبلها. كان صوته ضعيفًا، لم تكد تفهم منه شيئًا، ولم تعرف: هل كان الخط سيئًا، أم أنه كان يهمس؟ على كل حال كان يشبه طفلاً لا يستطيع التوقف عن التعجب عندما توشك الشمس على الشروق. وعندما قال لها إن الليلة كانت باردة صافية السماء، بدا الأمر لها وكأنه لا يريد أن يدخل الرعب على قلبها مرة واحدة، ثم أسهب وأطال في التحدث عن المرج الذي قضى فيه ليلته، وعن صف الأشجار في الخلفية الذي كاد يكون حدود المرج، وقضبان السكك الحديدية الموازية للنهر على الجانب الآخر، إلى أن سألته عن هدف اتصاله أساسًا، فبالطبع كان رتل الدبابات ينتظر في الطريق. عندئذٍ شرع يتحدث عن الجنود الذين توزعوا فوق الأسفلت المُندى،

حيث قضوا ليلتهم، والذين كانوا يهمون بطي أكياس النوم وإعداد الشاي على مواقد غاز صغيرة بجانب مركباتهم، ويفحصون أسلحتهم للمرة الأخيرة. قال إن الوضع هادئ. خافتةً كانت أصوات الجنود، حتى إن الضباط كانوا يتصرفون بهدوء وهم يقفون أمام السيارات الجيب، لا يفعلون شيئًا سوى التنقل ببصرهم بين الساعة والحدود. هناك كانوا يرون بعض الأشكال الضائعة بالزي العسكري، وبلا شك كانت عشرات المناظير المكبرة مصوبة ناحيتهم، ثم راح يسخر من تلك الأشكال مطلقًا عليها "لجنة الاستقبال السافلة"، ثم كرر ضاحكا عدة مرات متتالية اسم المكان على الجانب الآخر، دنرال يانكوفيتش، وهو اسم كان يبدو مزحةً ونذيرَ سوء في آن معًا.

قالت إيزابيلا هذه العبارات بنبرة توحي إنها حكت ذلك كثيرًا، وإنها كانت تنمق الموقف مرة بعد الأخرى بتفاصيل أكثر. ربما لذلك تولد لدي الانطباع بأنها تمرنت على الأمر عندما تريثت قليلاً، ولم يكن ينقص سوى أن تغلق عينيها وأن ترجع برأسها إلى الوراء بطريقة رثائية. أرسلَت النظر إلى النافذة، على جدار المنزل المقابل المغمور بأشعة الشمس، وإنْ بدا أنها لا ترى في الحقيقة شيئًا، إلى أن قالت أخيرًا إن ألماير كان بإمكانه أن يصمت، فالضوضاء التي انبعثت فجأة طغت على كل شيء، وفي اللحظة ذاتها أدركَت جدية الأمر.

لا بد أن ما سمعته إيزابيلا كان يشبه الانفجار

المؤجل، كان صوتًا يهدد نصف القارة بأكملها، وعندما بدأ القطار يتحرك، وشرعت المحركات تهدر فجأة وسط نسيم الصباح البارد، كان كل ما قاله: ينبغي أن أُنهي المكالمة الآن، ثم استجاب إلى طلبها وظل على الخط برهة.

"لا أعرف السبب، ولكنني أردت أن أُصغي بأي ثمن لما يحدث".

بدا صوتها ساذجًا وهي تقول ذلك. ثم واصلت كلامها قائلة: "للحظات طويلة لم أسمع سوى هدير رتيب منتظم، لم يتزايد ولم يتناقص، وكاد وقعه يكون مهدئًا بعد الصدمة الأولى".

على حين غرة بدا أن القلق اعتراها وهي تقول إن ألماير تحدث بعد ذلك، وبصوت منفعل انفعالاً غريبًا راح يتكلم عن المروحيات، سرب بأكمله، عشر أو اثنتي عشرة مروحية أو أكثر، ظهرت فجأة خلف التلال الجنوبية مقتربةً بسرعة في اتجاه منعطفات النهر. حاولت أن أتخيلها وهي تجلس دفعة واحدة على سريرها بعد أن حشرت السماعة بين الأذن والكتف، لتنصت إلى الدوي المتزايد. ثم واصلت حديثها أخيرًا قائلة: "كان هذا آخر ما تناهى إلى سمعي، ثم انقطع الخط، ولم أستطع الاتصال به ثانية".

عندما تركت نفسها تنهار على الكنبة وكأنها منهكة، تذكرت الصور الفوتوغرافية التي ظهرت بعد ذلك

بيومين في الصحف. كنت أود أن أقول لها إن الصور كانت في رأيي تعبر عن الانتصار أكثر من اللازم، تلك اللقطات للوحوش الجبارة التي تطير في الجو ومقدمتها إلى أسفل، الحمولة الثقيلة من الصلب في جوفها، الذبذبات التي صدرت عن المدافع والدبابات المربوطة بأسلاك معدنية وكأنها تحررت من الجاذبية الأرضية، غير أنني عندما تصيدت نظرتها ولاحظت لأول مرة الارتعاشة العصبية الصادرة عن جفنيها، أدركت أن اللحظة غير مناسبة لذلك، فلم أقل شيئًا. تطلعت إليها فحسب، وأحسست بدوار عندما رحت أتصور ما كانت تفعله عندما كان ألماير يتوغل أعمق فأعمق في البلد الخراب، كيف كانت تبدأ يومها، وتفطر وحدها على المائدة، حيث كان بالتأكيد يجلس قبالتها عندما يعود من رحلاته إلى البيت، قبل أن يتوجه إلى وسط المدينة كي يزجي وقته في أحد المقاهي أو بتمشية على امتداد نهر الألستر.

صعُب عليها أن تواصل الحكي بعد ذلك، وأن ترينا على الخريطة الطريق الذي سار عليه في كوسوفو، قالت إنها عندئذٍ لم تعد تهتم بأن تعرف بدقة أين كان ومتى، واكتفت بالقول إنه وصل عصر اليوم التالي إلى بريشتينا. على ما يبدو كانت الفوضى سيد الموقف هناك. وكلما زاد عدد الصور التي رأتها، لم تستطع إلا بالكاد أن تتخيله هناك، كل تلك اللقطات المقربة أو الصور الملتقطة من الجو للقرى المدمرة على طول

الطريق، والتي ظل التلفزيون يعرضها حتى السأم، تقارير عن مصادمات كادت تحدث بين المجموعات التابعة للحكومة، والتي كانت في معظم الأحيان لا تتقهقر إلا ببطء، والمتمردين السكارى بنشوة النصر التي دفعتهم إلى إطلاق النار فيما حولهم؛ تقارير عن المواجهات المتفرقة الخطيرة التي كانت تنشب هنا وهناك، المحطات التي كانت القوافل تجد نفسها مجبرة على التوقف عندها بين الحين والآخر لارتيابهم في وجود متفجرات، ثم قطارات الذين أجبروا على الهرب، والعربات المكتظة بالمتاع المنزلي التي تجرّها الجرارات الزراعية في الاتجاه المعاكس، إلى الشمال، في اتجاه نيش وبلجراد، ثم مجموعات من البشر، مئات مرة أخرى، آلاف من المشردين، بينما الذين شُردوا من قبل يتقدمون ويحتلون بيوتهم.

طوال اليوم ظل ألماير يتصل بها من حين لآخر، أضافت، غير أنه لم يكن يقول شيئًا في الحقيقة، كان دومًا على عجلة من أمره، ولا يني يكرر - وكأنه يتلو تعويذة - أن كل شيء على ما يرام. ثم واصلت قائلة:

"على كل حال عرفت منه أن الطقس أصبح جميلاً، فقد كان هذا هو الموضوع الذي يتحدث عنه معي".

أعقب تلك الملاحظة التهكمية أنها لذلك تستطيع على الأقل أن تقول إن الحرارة التي سادت في النهار انقلبت في المساء وابلاً قصيرًا من البَرَد، إلا أن ضحكتها

ماتت على الفور عندما تحدثت عن الأمطار الغزيرة التي هطلت في أثناء رحلة ألماير وسط الظلام إلى سكوبيا ليعود إلى فندقه.

صمتت، ومرت لحظات ثقيلة حاول خلالها شخص دون جدوى أن يدير سيارته، ثم في النهاية دار المحرك بعد نحنحات صدئة، ولاحظت أن باول قد استيقظ من حالة السبات التي استولت عليه تدريجيا. رحتُ أراقبه وهو يجلس مستقيمًا في الفوتيه ومثبتًا نظراته عليها. بدا أنه يريد أن يرد عليها بشيء، لكن عندما تطلعت إلينا متساءلةً، في اتجاهي أولا ثم في اتجاهه، ابتلع ما يريد قوله، وهكذا استكملت هي ما تحكيه قائلة إنها لم تستطع فيما بعد أن تتأقلم مع فكرة أن ألماير ظل حيًا حتى المساء وأن كل شيء كان من الممكن أن ينتهي على نحو مختلف تمامًا.

"عندما أيقظني رنين التليفون في صباح اليوم التالي كان رئيسه هو المتحدث"، قالت في النهاية وكأنها تتحدث فقط حتى لا تقع في تكهنات عاطفية. "بمجرد أن نطق اسمه، عرفت كل شيء".

منذ ذلك اليوم لم تسمع أي تفاصيل أخرى عن مجريات الحادثة. ثم اتصل بها أحد العاملين بالصحيفة مرة أو مرتين، لا لشيء إلا ليخبرها بأنهم لم يجمعوا بعد معلومات أكثر، ولكن هذه المكالمة كانت في الصيف الماضي. وحسب قولها فإنها لم تعد تنتظر أن يفي

المصور، الذي كان يرافق ألماير، بوعده ويتصل بها بعد شفائه من جراحه. تعليقها الوحيد على ذلك كانت الجملة التي نطقتها همساً: "ولمَ يتصل؟".

لم أنظر تجاهها، واستغرقت في الإنصات إلى الخطوات التي سمعتها على الدرج خارج الشقة، إلا أن الهدوء ساد في المنزل الذي غرق فجأة في السكون المقبض لفترة العصر، لا خرير في مواسير المياه، لا صراخ أطفال، لا شيء، حتى الشمس اختفت، أو على الأقل لم تعد تسطع على المبنى المقابل. لا بد أن مثل هذه اللحظات، حيث ينقض عليها فجأةً وغدرًا إحساسها بغيابه، هي التي جعلتها تقول إنها ما زالت تتخيله يظهر على حين غرة عند الباب، غير أن نظرة واحدة إليها أكدت لي أن الحقيقة هي العكس تمامًا. شيء ما في السكون كان نهائيًا، لذلك وددت لو استطعت أن أنهض وأفتح إحدى النوافذ حتى أسمع ضوضاء المدينة، غير أنها عادت لتتحدث ثانية عن أمسيتها الأولى معه، وظللت أنا جالسًا. لبرهة لم يصدر عنها سوى نظرات تبحث عن العون، كانت توجهها إليّ ثم إلى باول، أما يداها اللتان استراحتا على الكنبة فكأنهما قد انفصلا عنها: علامة على الحيرة الكاملة.

بدا ما تقوله في البداية عاديًا، مشاهد نوستالجية من الذاكرة، تمامًا كما تخيلتها عنه، غير أنها بجملة واحدة أوضحت أنها تقصد شيئًا آخر: "كان عليّ آنذاك أن ألاحظ أن نهايته اقتربت".

عندئذٍ رد باول أنه لا يستطيع أن يتخيل ذلك. قال ذلك بطريقة فظة، وكأنه يريد بذلك أن ينازعها على ملكية شيء. ثم قال: "في لقائي الأخير به لم يثر لديّ أي انطباع مختلف عن المرات السابقة. وما زالت أتذكر أن رأسه كان مليئًا بالخطط".

يبدو أنها لم تجد في ذلك ما يستحق الذكر. "هكذا كان دائمًا".

لم أفهم ما قصدته، وعندما استفسرت ضحكت في البداية، ثم قالت إنها لم تشك في ذلك أبدًا.

"على كل حال لقد توسل إليّ توسلاً حارًا بعد عدة أيام كي أتزوجه. ولمّا سألته لماذا، لم يجد سببًا أفضل من أن يقول إن خلاصه في يدي".

لم أكن بحاجة إلى أن أسألها كثيرًا حتى توضح ما تعنيه، إذ إنها حكت لنا أنهما تزوجا بعد ثلاثة أشهر من ذلك الحديث دون أن يخبرا أي شخص بالأمر، مراسم احتفال بسيطة خلال إجازة في أمريكا، وإذا كانت هي قد وافقت استجابة لنزوة، فإن الأمر بالنسبة له كان اليأس بعينه. كانت الصورة التي حصلت عليها الآن جديدة تمامًا، وكأن الرجل الجريء الذي عايش الشهور الأولى للحرب قد أمسى بعد خمس سنوات نسخة باهتة من ذاته، ولم يعد شيء باقيًا من سلوك الصحفي المحترف الذي يكتب تقاريره من مناطق الكوارث، السلوك الذي يتناسب بالأحرى مع الممثلين؛ على

العكس، لقد وصفته بالرجل الكسير، هكذا بالحرف الواحد، ومنذ ذلك الحين لم أستطع أن أطرد هذا الوصف من رأسي. وتذكرت أنني تخيلته في بعض الأحيان - وفق وصف باول الذي كان ألماير يزوره في جراتس - بوجه بارز العظام وأنف ملاكم، وكأنه خرج لتوه من فيلم فرنسي بالأبيض والأسود؛ والآن توجب عليّ أن أسمع أنه ترك لديها الانطباع بأنه أكبر بكثير من عمره الحقيقي، لا سيما عندما يشعر بأن أحدًا لا ينظر إليه، ورغم جسده الموحي بالصلابة كان يبدو هشًا على نحو غريب، وهو تناقض يرجع إلى عينيه، وإلى نظرته التي تبدو - كلما حاول أن يثبتها على شيء - وكأنها تنظر في كلا الاتجاهين في وقت واحد.

الصورة التي رسمتها لألماير كانت تتطابق على نحو ما مع الصورة النمطية الشائعة عن شخص تركت الحرب فيه جروحًا أبدية. من السهل أن يتفهم المرء أنه في بعض الأحيان لم يكن يستطيع بعد عودته من البوسنة أن يطرد من رأسه السؤال عن مصير الناس الذين تحدث معهم قبلها بساعات، ربما يحدث لهم الآن شيء، هل يُساقون الآن بعيدًا ليواجهوا مصيرًا مجهولاً، أم أنهم يلاقون الموت في قراهم، بينما يجلس هو يحتسي البيرة في مكان ما، أو يتقابل مع أحد أصحابه على العشاء منتظرًا أن يختار نوع النبيذ، غير أن كلامها كان من الممكن أيضًا أن يوحي بالجدة والطرافة، وبإمكانية نسج حكاية لطيفة من هذه الأحداث. ومما أكد هذا

الانطباع طريقة كلامها عن الخوف الذي كان - حسب كلامها - ينقض عليه غالبًا فيما بعد، بعد عدة أيام، وأنه في بعض المواقف البريئة تمامًا كان الارتجاف يصيبه، ولا يهدأ إلا بعد أن يعود ويقترب من مناطق القتال، شاعرًا أن الصمت يبتلعه، الفراغ الهائل الذي ينفتح أمامه قبل أن يسمع أول طلقة أو قبل أن يصطدم كالمعتاد بالصبية الأجلاف عند أول الحواجز. ثم واصلت كلامها قائلة:

"عندما كانوا يسألونه عما إذا كان مسلحًا، كانت إجابته دائمًا أنه لا يستطيع أن يمسك سلاحًا، فما بالك بأن يصوبه. كانت الإجابة تثير السرور لدى معظمهم، لذا كانوا يلوحون له ضاحكين وكأنه لم يعد يثير لديهم أي خوف، فهو ليس رجلاً".

لا أعرف بالطبع ماذا حكى لها ألماير، لا سيما في الليالي التي قضاها معذبًا بالأرق، لكن طريقتها في تصوير الأشياء أزعجتني. شعرت بتناقضات عديدة في كلامها، كانت تهدف من خلالها ألا ينفذ أحد إلى مشاعرها الحقيقية. نوادر عديدة لا يمكن أن تكون في الحقيقة رمادية إلى هذا الحد، من غير المعقول ألا تحتوي على شعاع واحد لامع، وما زلت أتذكر كيف حاولت، دون جدوى، أن أتخيلها راقدةً بجواره وهو لا يتوقف عن قص حكاية مرعبة بعد الأخرى. ربما يرجع ذلك إلى الحكم المسبق لدي، والذي لم أستطع التخلص منه، الفكرة التي رسخت في أعماقي بأنه كان حتمًا

سيصمت لو كان قد مرّ بكل ما تدّعيه، وأنه كان سيرتمي في أحضانها دون أن يتفوه بشيء، أو ينطق بعبارات لا رابط بينها، فإذا حاولت إيجاد علاقة ما، وجدت نفسها في فراغ.

لم أنصت إليها إلا عندما قالت إن العنصر الإنساني هو الذي جعل كل شيء يبدو شنيعًا على نحو خاص، ثم قالت إن ألماير لم يتحمل في النهاية أن يواصل الحياة في عالمين متوازيين. ثم أضافت شارحةً: "قال لي: إما أن يكون الإنسان بكامله في الحرب، أو لا يكون. لقد أربكه وشوّش فكره أن يرى كلا العالمين متعايشين على أضيق رقعة ممكنة". ثم أكدت على كلامها بمثال، وحكت - وهي تتنقل ببصرها بيننا - أنه كان ينفعل دائمًا وهو يحكي أن التلفزيون الكرواتي لم يتوقف في فترة التهديد الأخيرة للعاصمة عن عرض التمثيليات الميلودرامية الأجنبية الرخيصة المصحوبة بالترجمة، وعلى الدوام كانت تظهر على الشاشة عبارة "حالة تأهب عامة في زغرب".

"مثل هذه الأمور جعلت الوضع لا يُطاق بالنسبة له".

ولهذا لم يعد يذهب إلى المدينة إلا نادرًا، وذلك منذ أن اختفت أكياس الرمل، ولم يعد أحد يرى القناصة على أسطح البنايات. وفي الشارع كان الصاعدون من أوحال الحرب هم الذين يأمرون وينهون، أولئك المجرمون بنسائهم اللعوب المثيرات للضحك، على حد

قولها، وإنْ كان الوضع تغير الآن. كانت تلك طريقته في الدفاع ضد نوع من "العادية" لم يستطع أن يتأقلم عليه، رغم أن الأوضاع في وطنه كانت أسوأ من ذلك في بعض الأحيان. أتفه الأسباب كانت تكفي ليفقد السيطرة على نفسه.

"أي شيء كان من الممكن أن يفقده التوازن، عندئذٍ يبدأ مونولوجات طويلة تستغرق ساعات، أحيانًا كان من المستحيل تقريبًا تهدئته".

كان يفضل عندئذٍ أن يقضي جل وقته مع الكُتّاب، وتحديدًا مع أكثر الشعراء تصنعًا الذين يرصون القوافي رصًا، أولئك الذين كانوا يفدون في أفواج من العواصم الأوربية في إطار برامج ثقافية، ثم يجتاحون البلدان التي استقلت حديثًا، ويجلسون في ساحة تيرازيه في بلجراد أو ساحة يلاتشيتش في زغرب أو أمام أحد المساجد في باشتشارشيا في سارايفو، يتشمسون وكأن شيئًا لم يحدث هناك أبدًا؛ حالمون في الأغلب، فاقدون لكل صلة مع العالم الواقعي، غير أنهم كانوا في الوقت نفسه موظفين متكبرين. قارنهم بكل بساطة بالرعاع الذين أيقظوا أحلك المشاعر لدى شعوبهم قبل إطلاق الرصاصات الأولى، بل لقد أطلق عليهم ذات مرة "إخوانهم في الروح". إلى هذا الحد وصلت المبالغة، بل لم يكن يتورّع عن وضع مقالاتهم السخيفة إلى جانب "مذكرات الأكاديمية الصربية للعلوم" التي يتحدثون في كل مكان عن مفعولها الفتاك كالمتفجرات، دواوين

شعرهم الضئيلة ذات العناوين المبالغة في تأنقها بجانب أحد الكتب الكئيبة، مثل: Out of Bosnia أو Crying for Srebrenica، وكأن العنوانين شيء واحد، وكأنه ليس ثمة فرق بين المطاردة المحمومة وما تلاها من ابتذال، وكأن دفقات أفكارهم الصبيانية والتافهة عندما يمجدون الشعب المسلم الصغير المحب للسلام في البوسنة، تجعل مسؤوليتهم أقل من الآخرين الذين دبجوا القصائد المتعطشة لسفك الدماء. كان يقطّع أوصال تقاريرهم السياحية بمجرد نشرها، كل سطر وكل جملة، لا يقبل أي شيء مما ورد فيها، ساخرًا من أن كل دولة انفصالية تجد معتوهًا يتحدث ويدافع عنها، وينتهي دومًا بالحديث عن رحلة مجنونة قامت بها ألمانية متصابية - أطلق عليها آخر سائحات "القوة من خلال البهجة"[6] - ابنة أحد علية القوم من برلين، أتت في إطار دورة تدريبية في إحدى محطات التلفزيون، وكانت تقوم بمسح مناطق القتال السابقة، ثم تسهب في الحديث عن ذلك بجمل طويلة لاهثة؛ امرأة رومانسية متشبثة بما في رأسها من أفكار عندما تتبول في الشارع، في الهواء الطلق، فإنها تعتبر ذلك من أعظم المغامرات، تتسلل عمدًا مع كلبها إلى كل منطقة ألغام محظور دخولها، ثم ترسل رسائل قصيرة بالتليفون المحمول إلى كل العالم، مباشرة من مكان الحدث، حتى تخبرهم بالأخطار التي تواجهها الآن.

لم يكن يعجبه العجب إذا كان الأمر يدور حول

كيفية التعامل مع أسوأ الكوارث، ولكن بدلاً من أن ينأى بنفسه قدر الإمكان عن الموضوع، لم تكن تفوته شاردة أو واردة، فكان يتفرج على المعارض حسنة النية التي تُقام لصور المُعتقلين الذين كادوا يلقون حتفهم جوعًا، ثم ينفجر غاضبًا من طريقة تصويرهم الأنيقة، بل لقد اجتاح ذات مرة المنصة، حيث كانوا يعرضون فيلمًا عن آخر الصور التي التقطها مصور سينمائي قبل أن يرديه الرصاص قتيلا، لقطات مهزوزة تظهر جنودًا يجتاحون إلى المكان بظهور منحنية ورؤوس منخفضة، وفوقهم تعبر السماءَ في هدوءٍ سحبٌ بيضاء، منظر يكاد يكون لطيفًا، ثم لا شيء، فقط ظلام دامس، ثم لقطة مقربة للغاية للنجيلة، ثم لا شيء مرة أخرى، سواد بدا نهائيًا، وأخيرًا السماء التي برقت باللون الأزرق في عصبية. كان ضعيفًا وقليل الحيلة، لذا راح يبحث عن المذنبين، ولم يكن يتورع عن اتهام أي إنسان، سيان مَن. على سبيل المثال، المؤرخان اللذان شاركا في ندوة نقاش، أحدهما من صربيا والآخر من كرواتيا، ثم سألهما شخص عن الفارق بين لغتيهما، فظلا للحظات بشعة يتحدثان برطانة إنجليزية، وكأنهما لن يتفاهما بلغة أخرى، ثم شعورهما بالحرج وهما يحاولان تقديم إجابة، أو البُلهاء الذين كانوا يقدمون لهم العون باعتبارهم ممن يُدعون "الخبراء بمنطقة البلقان"، والذين كانت خبرتهم - إذا صدقناه - لا تتعدى ظهورهم بسترات فضفاضة وسراويل منتفخة عند الركبة، يكثرون من الشراب ولا

يسكرون بسرعة، مطلقين شاربًا ضخمًا يبدو وكأنه مُستقَر روحهم، مُضيّفون يودون أن يكونوا أكثر سلافيةً من ضيوفهم - أيًا كان معنى ذلك - متباهين ومتفاخرين بمنظرهم البائس، لم يكن ذلك منظرًا كاريكاتوريًا، بل كان مهزلة حقيقية. سيان إذا كان يعرف مدى ظلمه للآخرين أم لا، لم يكن أمامه سوى الثرثرة الدائمة عن كل تلك الجهود العبثية، كان في كثير من الأحيان يبالغ لدرجة أنه لا يعترف حتى بالمعونة الحقيقية، ويبدو أن قوله المأثور كان: حتى إطعام أفقر الفقراء في المناطق المحاصرة بشرق البوسنة لم تكن له فائدة عبر السنين سوى اليقين بأن مَن مزقتهم القنابل إربًا إربًا قد ماتوا ببطون ممتلئة على الأقل.

على ما يبدو انتقل احتقاره للناس إلى إيزابيلا، وكما يتبين من طريقتها في الكلام، وعندما قال باول إنه كان من الأفضل لو فعل المرء شيئًا بدلاً من التفرج بسلبية عليه، سددت إليه نظرة معلمة إلى تلميذ أدى ما عليه من واجبات منزلية، ثم هزت رأسها بطريقة لم أتوقعها منها، طريقة ظاهرها الرحمة، وباطنها الاستهزاء.

"ربما تكون على حق".

حتى تلك اللحظة كان قد نجح في إخفاء طريقة حديثه الخنفاء، لكنه راح يتلعثم فجأة مع كل كلمة يقولها، وتحتم عليه أن يعيد كلمة ما أكثر من مرة قبل أن تخرج من فمه جملة كاملة معناها أن ما تقوله عن ألماير يبعث على الاستغراب.

"لم أتخيل أنه كان متهكمًا إلى هذا الحد".

بالنسبة لها كانت هذه الجملة بمثابة تأكيد لكلامها.

"إذن فأنت لا تعرفه جيدًا".

أعادت إيزابيلا الفناجين إلى الصينية التي قدمت لنا عليها الشاي، ثم استدارت إلى زجاجة الشنابس على المائدة الصغيرة بجانب الكنبة التي لفتت نظري بمجرد دخولي الغرفة، ثم ملأت الكؤوس. وبطريقة احتفالية تقريبًا رفعت كأسها، فخشيت أن تقول عبارة مأثورة من عبارات شرب الأنخاب، غير أنها لم تزد على "في صحتكم"، وعندما واصلت حديثها تولد لديّ الانطباع أنها تريد بأسرع ما يمكن أن تتجاوز شيئًا يسبب لها الاحراج.

"كان يدعي دائمًا أن الإنسان لا يمكن أن يكون على مستوى الكلام عن الحرب إلا عندما يذكر أتفه التفاصيل وأكثرها بشاعة في آن واحد". ثم أضافت: "وإلا صار الحديث محض كلام أكاديمي، مجرد مهاترات لن تؤدي إلا إلى المزيد من سوء التفاهم".

لم يفاجئني أن أسمعها وهي تقول بتلقائية مدهشة: عندما تعرفت إليه كان قد سئم السؤال عن الأسباب والحيثيات، تلك الأقوال الساذجة حينًا، والبلاغية أحيانًا، والتي تحاول أن تفسر ما حدث.

"أنْ يحضر غريب في أي وقت ويقرع الباب، ثم يُشهر مسدسه ويطلب من الساكن أن يقتل جاره، بدا له

خاليًا من أي معنى".

بالفعل كان آنذاك يترك لديها انطباعًا بأنه لم يعد يتحدث منذ فترة طويلة عما يحرك عواطفه في الحقيقة، ورغم أنها بذلت قصارى جهدها كي لا يظهر تأثرها، فإن صوتها انخفض فجأة. تنحنحت، ووضعت ساقًا فوق الأخرى، ومدت كلتا ذراعيها على مسند الكنبة قبل أن تقول:

"بدت عليه السعادة لأنه عثر أخيرًا على شخص يثق به. على ما يبدو، لقد جعله السلام يشعر بوحدته أكثر مما كان يشعر ربما قبل ذلك".

امتعضتُ من فكرة أنه كان يرقد جوارها و"يأكل أذنها" بحكاياته المرعبة، ورغم أن ما أقوله قد يبدو مضحكًا، إلا أنني كنت أود لو أستطعت سؤالها: ألم يكن هناك شيء أفضل يستطيع أن يفعله معها؟ لم أعد أنتبه تمامًا إلى ما تقول، وفكرتُ: أي إهدار وأي تعجرف؛ هذا إذا صح ما حكته عن مونولوجاته السوداوية، التي لم تكن تعرف سوى نهاية واحدة، رغم أن تلك الفترة كان من الممكن أن تكون بداية علاقتها به، بداية حياتها، بينما هو لا يتحدث سوى عن الموت. وفجأة أدركت كم كانت شابة آنذاك، وحاولت أن أتخيل السنوات التي قضتها معه، ولكن دون جدوى، كان كلامها يحول دون ذلك، ادّعاؤها أنه منذ الساعات الأولى التي قضاها معها لم يكن يهتم بشيء سوى قتل الوقت، تمضية يوم،

أسبوع، شهر، إلى أن يرسلوه إلى منطقة أخرى من مناطق القتال، ثم - بمجرد عودته - يبدأ كل شيء من جديد. لقد كانت بالتأكيد لا تستطيع أن تحتمل ذلك أيضًا، عندما يرى كل شيء عديم الأهمية، سواء أنهت دراستها أو توقفت عن العمل بالمقهى أو بدأت فترة تدريب في مكتب محاماة، سيان ما فعلت، لم يكن ذلك يعني له شيئًا، لا شيء مقارنةً بما يعايشه من أحداث، هكذا قلت لنفسي، حتى لو كان الشوق العارم يجتاحه نحو حياة عادية، أو ربما كان يحدثها بحماسة عن الأطفال، وبيت في الأرياف، أو أي تخاريف أخرى تفترض نوعًا من الثقة بالمستقبل، نوعًا من اليقين بأنهم لن يستطيعوا أن ينتزعوا كل شيء من بين يديه في كل وقت.

لم تكن بحاجة إلى أن تؤكد أنه لم يكن له معارف تقريبًا، ولم أعرف ماذا قصدت عندما حكت أنه كان يعزف الموسيقى في قبو بمكان ما في فاندسبيك، مرة أو مرتين في الشهر مع ثلاثة مدرسين عاطلين عن العمل تعرف إليهم عن طريق إعلان في صحيفة. حاولت أن أتخيله وهو يضرب على الجيتار الإليكتروني، بالتأكيد مرتديا نظارة شمس وبيريه أدفأ من اللازم، إلى أن يهتز الهواء في القبو اهتزازا، ثم رأيته واقفًا لا يحرك ساكنًا وكأنه منتشٍ بالضوضاء. كان من الطبيعي أن نفكر في ضجيج الحرب وفرقعاتها، لذلك لزمت الصمت، حتى باول لم يقل سوى أنه يريد الآن أن يفهم لماذا

عنون واحدة من آخر مقالاته "*هدير الملائكة*" ملمحًا بذلك إلى الدوي الذي كان يشتد ويضعف، والصادر عن قاذفات القنابل التي كانت تظهر حينا، وتتوارى أحيانًا في السماء عاليًا خلف السحب الكثيفة.

"لم أكن أعلم أنه كان يعزف في فرقة"، أكمل كلامه بنبرة شخص أهين. "ولكن عندما أفكّر في الموضوع، فإن هذا يناسبه".

وكأنه قد اكتفى بالحكايات التي سمعها منها، لذا بدا مرتاحًا لنقل الحديث بضعة لحظات إلى الخصوصيات.

"هل احتفظ بدراجته النارية؟".

أومأت إيزابيلا بهزة رأس فحسب، وعندما لاحظت أنه ما زال ينتظر ردًا، لم يصدر عنها شيء، ثم أشاحت بيدها.

"لم أره أبدًا يسوقها"، قالت في النهاية، وكان واضحًا أن الحديث في الأمر يضايقها. "لا بد أنه قد سقط من عليها مرة، قبل أن أتعرف إليه، ومنذ ذلك الحين لم يلمسها".

وبينما لزمث هي الصمت من جديد، نظر باول إليّ وكأنه فعل شيئًا خاطئًا. ولأن سلوكها كان صادًا، أدركت أنه يود لو استطاع أن يغرق في ذكرياته القديمة مرة أخرى ويظل غارقًا فيها. تجنب نظراتها، ولكن لم يفتني أن ألاحظ كيف رجع إلى الوراء هابطًا في الفوتيه عندما سألت هي من دون تمهيد: ألا يمكن أن يعود السبب إلى

ألماير أيضًا عندما كان يؤكد دومًا أن السلام في البوسنة ليس سلامًا. ثم أضافت:

"لقد قال: بمجرد أن نترك الناس هناك وحدهم للحظات معدودة، يشرع كل واحد على الفور في تحطيم جمجمة الآخر. كلما ازداد خبرة بالمنطقة، قلّت على ما يبدو ثقته بقدرة الناس هناك على حل مشاكلهم وحدهم".

لقد ذهب حوالي عشر مرات إلى هناك إذا لم تخني ذاكرتي، وفي كل مرة كان يعود محبطًا خائب الآمال، إلى هذا الحد بدا له الموقف متأزمًا لا حل له، عدد من المآذن، عدد من أبراج الكنائس، نهضت أكثر روعة من الأنقاض عما كانت عليه في السابق، وكأن المهم هو الرمز، غير ذلك لم يحدث تقدم، حسب قولها، إلى أن أخذ يُكثر من السفر إلى كوسوفو، حيث كان الموقف يزداد تأزمًا.

لم يثر كلامها انتباهي، وكذلك ذكرها أنها كانت حاضرة في لقاء بينه وبين أحد زعماء المتمردين في سويسرا، ألباني منفي، ولم يجد مكانا يجيب فيه على أسئلة ألماير بألمانيته المكسرة غير مقهى ذي شرفة على شاطيء بحيرة "الغابات الأربع"، كلا، ما جعلني أصيخ بسمعي كان اللقاء الذي حدث قبلها بشهور بالصدفة مع أحد معارفه القدامى في جزيرة هفار.

حدث ذلك - حسب ما سمعت - في مطلع الصيف،

ألماير كان قد عاد لتوه من إحدى رحلاته من بريشتينا، وفي أثناء هبوط الطائرة في سبليت قرر أن يستقل أول معديّة، وأن يسافر إلى هناك ليقضي يومين أو ثلاثة. بمجرد أن قالت إن الشخص الذي قابله كان أحد المقاتلين الذين أجرى معهم في السابق مقابلة صحفية، حتى فكرت على الفور في سلافكو وحديثه معه في شرق سلوفينيا.

ولكن قبل أن أتمكن من قول شيء، بدأ باول يسألها عن التفاصيل، وكان صوته عاليًا من الانفعال عندما ألحَّ عليها بأسئلته بعد أن تمهلت في الرد.

"لم أعد أتذكر اسمه"، أجابت أخيرًا. "ولكنني أعتقد أنه عمومًا قد غيّر اسمه".

طوال الوقت كنت أخشى أن يسألها عن لِيلي، كيف كان الأمر بالنسبة لها عندما تنازلت وحضرت جنازة ألماير ومثلت دور الأرملة الحزينة، ولكنني الآن كنت متأكدًا من أنه لم يعد يفكر فيها، إلى هذا الحد بدا - بين لحظة وأخرى - مهووسًا بمعرفة هوية الرجل الذي قالت عنه إنه كان يظهر أمام الفندق في الجزيرة ليسلي النزلاء بعروضه.

"يُقال إنه كان هناك في الموسم السياحي فقط"، أضافت لتروي تعطشه للمعلومات بعد أن لاحظت إصراره على معرفة المزيد. "إنه في الأصل من سلافونسكي برود".

هذا ما عرفه ألماير من صاحب المطعم، وعندما سألها باول عما إذا كان قد تحدث معه شخصيًا، أجابت بنعم، لكنها لا تعرف عن أي شيء، كل ما تتذكره أنه حكى في البيت فيما بعد كيف شعر بالخوف والضيق عندما تقابل في مكان سياحي بشخص تحدث معه قبلها بسنوات عن مشاعره وهو يرى - وإصبعه على الزناد - إنسانًا في عدسة بندقيته.

نظرت إلى باول الذي لم يتوقف عن هز رأسه، ولم يتعب من التأكيد على أن ما يهمه هو ما إذا كانت تقصد الرجل الذي قابله ألماير في السنة الأولى من الحرب على الجبهة الكرواتية الصربية. ثم تساءل:

"ومَن يكون غيره؟".

ورغم أنني لم أرد عليه، فإنه لم يتخل عن إصراره، بل ظل يردد: "بلا شك، بالتأكيد هو، خاصةً أنه كان يتفاخر دائمًا بهذه المقابلة الصحفية".

انتظرت إيزابيلا أن يقول شيئًا آخر، ثم باحت لنا بأن هناك شريطًا مسجلاً عليه المقابلة. وعندما سألها عن الشريط قالت على الفور وكأنها تعزيه: "ربما لا يزال في درج الأمانات الذي أطلعني عليه ذات مرة. إلى اليوم لم أستطع أن أسمعه".

قالت ذلك وكأنها تبحث هي نفسها عن تفسير.

"النص المكتوب معروف للجميع".

راحت تضيء المصباح بجانبها ثم تطفئه، في حين لفت انتباهي أن التعب بدا عليها فجأة وكأنها لم تعد تريد التفكير في مثل هذه الأشياء. انتشر الظلام بسرعة، ولم أحوّل بصري عن وجهها الذي لمع تقريبًا وسط ظلمة الغسق الزاحفة. ما زال الهدوء التام يعم المنزل، ومن الشارع أيضًا لم تنفذ أي أصوات، ووجدت نفسي أصارع تصورًا في رأسي، أنها تجلس هناك كما ستجلس ربما طوال سنوات قادمة، دون أن تحرك ساكنًا، ودون أن تدافع عن نفسها.

يبدو أن باول لم يلحظ أن سلوكها كان دعوة واضحة لا شك فيها إلى المغادرة، وفي النهاية وجدنا أنفسنا نقف بالفعل في الشارع، وأنا أومئ على نحو آلي، بينما راح هو يتحدث عن الإمكانيات الهائلة التي ظهرت فجأة والتي يمكن أن يستفيد منها في روايته.

"لم أكن أجرؤ على أن أخترع لقاء يجمع بين الاثنين"، قال دون أن يلاحظ أنه بذلك يبتعد عن الواقع كليةً. "ورغم أن اللقاء حدث، فإن الأمر يبدو لي بعيدًا عن التصديق".

ومع أنني شعرت بنظراته المتسائلة المصوبة نحوي، رحت أتطلع إلى نوافذ إيزابيلا. في اللحظة نفسها أضيئت الشقة، ولم أعد أصغي إلى ما يقوله، بل رحت أتخيلها وهي تحمل الصينية بفناجين الشاي وكؤوس الشنابس، ثم تدخل غرفة بعد الأخرى وكأنها تريد أن

تتأكد من أنها وحدها في الشقة. قبل أقل من ثلاث دقائق كانت تقف أمام المدخل، وتصافحه ثم تصافحني دون كلمة واحدة، ولكنها الآن عادت إلى حياتها، وربما تملأ البانيو بالماء أو تتصل تليفونيًا بصديقة، بينما نقف نحن هنا وكأن علينا أن نفكر أولا فيما نريد فعله، هو دون أن يتوقف عن الكلام، وأنا دون أن أرد بشيء.

لم أكن أود أن أعرّض نفسي لسلوكه المتردد الذي كان من الممكن أن يصدر عنه في كل مرة عند الوداع، لذلك اختصرت الطريق عليه، قاطعته في أثناء الحديث، ثم مضيت في طريقي دون أن أتخيل أننا سنلتقي سريعًا. كنت أعرف أنه سيسافر في الصباح التالي مع هيلينا إلى إقليم التيرول، إلى مسقط رأسه، ورغم أنه دعاني أن ألحق بهما، فقد قلت لنفسي في أثناء ذهابي إنه من الأفضل أن أقضي الأيام القادمة وحدي. وعندما ناداني من الخلف، انتظرت هنيهة قبل أن أستدير، لكنني رأيته يسير في الاتجاه العكسي، ففرحت أنني تخلصت منه بهذه السهولة. غير أنني نسيت هذا كله بعد مرور يومين أو ثلاثة، كنا نحتفل برأس السنة، وفي عجلة من أمري قمت في الصباح الباكر بحزم بعض الأمتعة، ووجدت نفسي على الطريق السريع وكان واضحًا بالنسبة لي إلى أين تقودني الرحلة.

كنت أعتقد أنني محصن ضد كل هذه الجلبة والضوضاء المثارة حول مقدم الألفية الجديدة، إلا أن الإثارة انتقلت عدواها إلي، وعندما وصلت إلى القرية

بعد الظهر، لاحظت من أول نظرة أن ثمة ما يعكر أيضًا الجو بين هيلينا وباول. كانت مختلفة عن المرة الأخيرة، سلوكها الرافض عمومًا اختفى، على العكس لقد احتضنتني، أما هو فاستقبلني استقبالاً حارًا، مجاملاً، ولعب دور المضيف الحريص على راحة ضيفه، لكنني كنت أود لو رجعت على الفور؛ إلى هذا الحد كنت أشعر بالطمأنينة في سيارتي، وكنت أريد الانصراف عندما أدركت أنهما بالتأكيد قد تشاجرا قبل حضوري. لا أعرف إذا كان الشجار يتعلق بتوقعاتهما بخصوص الرحلة، ولكن اختيارهما كان بلا شك مجانبًا للصواب، بل لم يكن من الممكن أن يكون أسوأ من ذلك: أن يسافرا تحديدًا إلى المكان الذي تعارفا فيه قبل زمن بعيد. غير أنني لم أعرف كيف أقدم لهما المساعدة، فرحت أسمع حكاياتهما دون أن أقوي على فعل شيء، وهي حكايات كنت أعرف جزءًا منها بالفعل، نوادر كان يحكيها هو بنبرة مؤثرة لا تكاد تُطاق، كيف قبلها لأول مرة، أو كيف أثلجت السماء عليهما، أو ذهابهما ببساطة إلى الكنيسة كي يريها مقبرة أبيه، أو ما اكتشفه خلف المذبح، جمجمة، أما الآن فليس هناك سوى كيس جمع التبرعات الأرجواني اللون والمعلق على عصا طويلة، وعدة تماثيل لملائكة منسية تعلوها طبقات الغبار.

كان بإمكانه أن يحكي ما يريد، لم يفد ذلك في شيء، كل كلمة كانت بلا جدوى، فقط عندما تركنا وحدنا، وتمشيت مع هيلينا في الشارع خارجين من

القرية في اتجاه الوادي، عندئذٍ أدركت شيئًا من السحر الذي حاول أن يستدعيه، ورحت أسرع خطواتي جانبها مغلق العينين، محاولاً ألا أفقد الاتجاه الصحيح، وذلك بلمسها من حين لآخر، منصتًا إلى وقع خطواتنا فحسب.

„كم أتمنى أن نظل نسير هكذا ساعات وساعات"، قلت لها بمجرد انطلاقنا. „كم أحب لو فاجأنا منتصف الليل في مكان ما في قلب الظلام".

كلام لا يمكن أن يصدر إلا من أعظم البلهاء، لكنها تناولت يدي للحظات، وأعتقد أن إجابتها كانت السبب لسلوكي الطائش لاحقًا طيلة المساء.

„وأنا طفلة كنت دائمًا أتخيل أنني أستطيع أن أختفي في الظلام ببساطة، وعندما يطلع النهار، يكون العالم قد اختفى".

في هذه الجملة كنت لا أزال أفكّر بعد أن انتهينا من تناول الطعام، حيث جلسنا ننتظر معًا، ثم دق تليفون باول، وكانت زوجته على الخط، فنهض وأومأ لهيلينا. قام ليتحدث في الخارج، ورأيته يروح ويجيء أمام الشباك وهو يحرك يديه، مبتعدًا في بعض الأحيان عن دائرة الضوء التي سقطت خارج الشباك، ليظهر بعد قليل مرة أخرى وقد زاد انفعاله. رحت أراقبه، بينما أهملته هي تمامًا. كان ينظر إلى ساعته بين الحين والآخر، عندئذٍ تطلعت أنا أيضًا إلى الساعة، إلى أن تصيدت نظرتي مبتسمةً، ثم غطت معصمي بمنديل المائدة، ثم

تصرفت على نحو طفولي وقلت لها „أحبك“. أتى الاعتراف مفاجئًا لي أنا أيضًا، ولكن عندما رأيت تعبير وجهها ولم أستطع أن أحدد إذا كان ما قلته قد سببَ لها الفرح أم العذاب، كررتُ قولي، وبالتأكيد كان صوتي ينم عن يأس كبير.

„عليك أن تسمع نفسك“، ردت ضاحكةً. „بكلامك الولهان يمكنك أن تنافس أي مغنٍ عاطفي“.

ولأول مرة نطقت اسمي عندئذٍ، ورغم أنني أحببت ذلك، فقد شعرت بالارتياح عندما عاد باول إلى الغرفة من الخارج. بدا وجهه محمرًا، وبينما كان يسير في اتجاهها، ثبت نظره عليّ، وكأنه سمع كل ما دار بيننا. تحاشيت نظراته، ولم أجعل هيلينا تحيد عن بصري عندما احتضنَها، بينما تطلعَت هي إليّ عبر أكتافه مثل ملاك بريء.

---

5 švabo fašista باللغة الكرواتية تعني: "ألمانية فاشية" (أي نازية). (م)

6 "القوة من خلال البهجة": تحت هذا الشعار كانت السلطات النازية تنظم رحلات ترفيهية للألمان، انطلاقا من أن الاسترخاء والراحة يبعثان على البهجة، ومنها يستمد الإنسان قوة لمواصلة العمل. (م)

الفصل الرابع

ملـكـة جـمـال سلافونسكي برود

في الأسابيع التالية لم أسمع أي خبر تقريبًا من كليهما، ولأن عددًا متزايدًا من محرري الصحيفة تغيب عن العمل بسبب موجة إنفلونزا اجتاحتهم، كنت مشغولاً جدًا ولم أتصل أنا أيضًا بهما. استأجرا معًا شقة في حي شلانكريه، وبعد أن أخبراني بحفلة تدشين الشقة، علمت بإلغائها قبل إقامتها بقليل، هكذا دون ذكر أسباب. أنا أيضًا انتقلت إلى مسكن جديد وتركت حي ألتونا إلى حي سانت باولي، فدعوتهما لزيارتي، وطيلة الأمسية كانا يجلسان متلاصقين على المرتبة التي لم أفردها بعد، دون أن يتوقفا عن أكل "العيدان المملحة" وكأنهما على وشك الموت جوعا. لم يستطيعا أن يفهما أنني تخلصت من أثاثي فيما عدا طاولة ومقعد، وحتى الكتب لم أرد أن أصفها، بل قمت بتخزينها في صناديق من الكرتون في القبو، ولم أتخيل أنني سأخرجها من هناك يومًا. كانت تلك هي المرة الأولى التي يظهران فيها أمامي كثنائي ذي مستقبل جدي، وهو ما بدا من الطريقة التي أمسك بها يدها، لذا كنت سأصدق على الفور لو أخبراني بموعد حفل الزفاف. لكن الخطة الوحيدة التي باحا بها إليّ كانت عزمهما على أن يبدآ من جديد، وأن يعوضا أخيرًا ما فاتهما بسبب الحادثة، وأنهما سيسافران معًا إلى الجنوب في إجازة عيد القيامة.

وعندما زارني باول بعد عدة أيام في قسم التحرير بالصحيفة ظننت أن لديه سببًا معينًا حمله على المجيء عمدًا في فترة ما قبل الظهر التي أكون فيها موجودًا. لم يكن قد أخبرني بمجيئه. بدا قلقًا، وظل واقفًا في المكتب إلى أن دعوته للجلوس، فبالغ في تقديم الشكر لي قبل أن يجلس. كان يرتدي كما في زيارته الأولى إحدى البدل التي أقنعته هيلينا بشرائها، ويبدو أنه لم يستطع أن يحسم أمره، هل يزرر الزرارين العلويين في قميصه أم لا، لذا ظل طيلة الوقت يتلاعب بهما بعصبية.

"كنت في المنطقة، فقلت لنفسي: لأطل على الجريدة حتى لا ينسوا منظري".

كان في سلوكه شيء متكَلف، إذ إنه على الفور عاد يتحدث عن لقاء ألماير الذي حدث صدفة مع سلافكو، ورغم أنني لم أعد أتذكر ماذا حثه على الكلام في هذا الموضوع، فإنني ما زلت أعرف جيدًا النتيجة الشاذة التي توصل إليها.

"لعل اللقاء كان بمثابة صدور الحكم بإعدامه".

كان من الواضح مرة أخرى أنه لم ينطلق من الوقائع، ولكن من النتائج التي يريد الوصول إليها، ليس هذا فحسب، بل كان ذلك يعجبه أيضًا.

"إن مقابلة صحفية أجريت خلال الحرب مع شخص، قد تبدو مختلفة تمامًا إذا قُرئت بعد مرور عدة سنوات"، أضاف دون أن يُخفي تهكمه. "ربما كان يشعر

بأنه من الأفضل له لو لم يثرثر كثيرًا، وكما قد يكون فعل آنذاك".

لم أتردد طويلاً قبل أن أجيب. "ولكن ليس هذا سببًا لقتل إنسان".

بدا قولي ساذجًا، وتبعًا لذلك جاء رد فعله، فرفع حاجبه وثبت نظره عليّ، كأنما ليستمتع بلهجته الساخرة: "سيكون ذلك سببًا مفهومًا لو كانت علاقته بأحد معارفه القدامى متوترة".

وفجأة بدا أنه يفكر في شيء آخر تمامًا.

"آمل ألا يهرب مني".

ثم تطلع إليّ طويلاً قبل أن يضيف شارحًا ما يقصده، وكأنه كان ينتظر مني أن أفعل ذلك: "لن يكون أول من يختفي عن الأنظار".

لحظتها لم أعد متأكدًا من أنه يتحدث عن شخص حقيقي من لحم ودم. وكأنه كان مجبرًا على توريطي في الأمر، وكأن ذلك يعطيه نوعًا من اليقين الذاتي، على الأقل كان هذا انطباعي، وكأنه في بعض الأحيان ليس لديه سبب آخر غير مواصلة الاختلاق، وأن يصبح جزءًا مما يختلقه. ربما أظلمه، لكنني شعرت بأنه يعتقد أنه كلما اقتفى آثارًا أكثر فسوف تقوده حتمًا إلى مكان ما، وإذا واصل تحركه في دائرة فسيزداد تأكده من أن ثمة مركزًا، وأنه - بذهابه وإيابه - سيوجد يومًا ما مركزًا.

كان اشتباكًا عبثيًا: إطلاق تكهنات فارغة لا تفسر شيئًا من جانبه، وشكوك من ناحيتي. وحتى اليوم ليس لدي أي فكرة عما كان يريده مني في الحقيقة عندما زارني في ذلك النهار. الأرجح أنه أصيب بنوبة من نوباته العاطفية، وكان يريد أن يستعيد لقاءاتنا مرة أخرى، وأن نقضي وقتًا معًا، وكأن ذلك من أكثر الأشياء بديهيةً، مثلما كان الحال في الربيع الماضي، لكنني لست متأكدًا من شيء. لم أعرف كيف أقضي الوقت معه، وكنت فرحًا عندما رافقته إلى الباب لدى انصرافه، وإذا أصابت ذاكرتي فقد ألحت علي فكرة أن الموضوعات المشتركة بيننا قليلة، لو لم يكن هناك ألماير بما يقدمه من مادة حديث لا تفرغ.

لا أعرف إذا كان قد لاحظ شيئًا، غير أنني لم أتلقَ أي اتصال منه إلى أن سافر بالفعل إلى كرواتيا مع هيلينا. لم يستخدم أيًا من الطرق التي ظل يدرسها قبل ذلك طويلاً، وإنما سافر عبر إيطاليا. ثمة صورة لهما اُلتقطت قبل أن يستقلا المعديّة من أنكونا إلى سبليت، وفيها يستندان إلى سور حديدي في موقف سيارات، وهي - مرتدية فستانًا أزرق فاتحًا من دون أكمام وفي قدميها شبشب بحر - تضع إحدى ذراعيها حول كتفه؛ صورة أثارت لدي في البداية شوقًا مبهمًا، أحسست بها كالطعنة في مكان ما بين الضلوع، وشعرت بالألم يتصاعد حتى إبطي الأيسر. ربما يرجع ذلك إلى أنني لم أرَ وجهه بمثل هذا الاسترخاء من قبل، نظراته الجسورة

إلى حد التهور مسددة في اتجاه سائق شاحنة طالبًا منه أن يلتقط لهما الصورة التي التقطها الرجل بحسم، ربما يرجع أيضًا إلى أن المساء قد اقترب، وأن الشمس على وشك الغروب، أو إلى الضوء الهارب، على كل حال لم أستطع أن أحول عيني عنهما، شاعرًا أنني أتلاشي تدريجيًا.

بعد كل المعلومات التي وصلتني فلا بد أنها كانت رحلة غريبة، رحلة في طول البلاد وعرضها خلف آثار ألماير، مع رحلات قصيرة إلى البوسنة أحيانًا أو إلى البحر؛ لا أستطيع سوى أن أهزّ رأسي إذا فكرت في البطاقات البريدية وحدها - وقد كانا يوميًا تقريبًا يرسلان إليّ واحدة، هو يوقع إلى أقصى اليمين بحرف (ب) مائل، ثم اسمها المكتوب بخط واضح وكبير - ما أبعد المسافات التي توجب عليهما أن يقطعا في بعض الأحيان! كانت البطاقات تحوي في الأغلب المناظر الطبيعية المعتادة: شاطيء فاتن على خليج ساحر إلى درجة مؤلمة، غروب الشمس في إحدى الجزر، مجموعة من المنازل تقشر طلاؤها تمامًا حتى إنني تساءلت لماذا لم يشتريا بطاقة أخرى. ربما بطاقتان أو ثلاث اختلفت للوهلة الأولى عن المناظر المعهودة، وهي البطاقات التي كنت أتطلع إليها دون ملل، لعلهما اختاراها بالصدفة البحتة مثل البطاقات الأخرى: السفينة البيضاء الراسية على رصيف الميناء وعلى مقدمتها كلمة *Proleterka* ، محطة القطار في زغرب، تمثال القيصر فرانتس يوزف

أمام الكاتدرائية في سكراوين، وعلى ظهر هذه البطاقة كتب باول بخط لا يكاد يقرأ: „هنا، في هذا المكان حيث يقف جلالته تمامًا، حفرت طلقات المدافع في أثناء الحرب حفرة كبيرة".

كنت أتعجب من وصول البطاقات العديدة، كما تعجبت من أن تلك الجملة كانت هي الوحيدة التي كُتبت كاملة، إلى أن وصلتني رسالة كتبها باول من دوبروفنيك. استخدم باول ورق رسائل الفندق، وأدركت على الفور أنه يريد أن يظهر لي أنه نزل في الفندق الملائم، في „أرجنتينا"، أحد الفنادق القليلة في منطقة القتال، وهو فندق ظل مفتوحًا وممارسًا نشاطه العادي - قدر الإمكان - طوال الفترة التي تعرضت فيها المدينة لقصف استمر أسابيع. وأتذكر أنه أشار عمدًا إلى أن ألماير ذكر في إحدى مقالاته أنه أقام هناك، وكنت متأكدًا من أنه يأمل في الحصول ربما على الغرفة نفسها، ليرى المنظر نفسه على البحر، وكان ينتظر مني أن أحسده على ذلك.

حسبما ذكر كانت هيلينا قد استغرقت في النوم، بينما جلس هو ليكتب لي، النافذة مفتوحة على سماء ليلية يضيئها بين حين وآخر برق يمرق سريعًا. بدأ كلامه بأنه يسمع أصواتًا آتية من الساحة بالأسفل، عند حمام السباحة، وأنه يعتقد في بعض الأحيان أن صلصلة الأشرعة تصل إليه مع الريح من ميناء اليخوت البعيد جدًا، ثم يسود الصمت بعد ذلك. أتصوره وهو ينصت

ليعرف ما إذا كانت هيلينا تتقلب في فراشها، وبين الحين والآخر يخرج إلى الشرفة ملقيًا نظرة على أضواء المدينة. وصفُه ذكرني بكلامه الحماسي عن غرفة في أحد فنادق باريس حيث قضى معها ليلة، وعندما أتى على ذكر المطر أيضًا، شعرت مرة أخرى بذلك المزيج من الإقصاء والأمان الذي انتشى به، الشعور بأن عليه أن يحميها وهي راقدة، عارية تحت الغطاء، رغم أنه هو نفسه لا يشعر بالأمان إلا في وجودها. تعجبت من شعوره الملح بضرورة أن يحكي لي كل شيء، ولم أعرف كيف أفهم تعمد ذكر ملابسها الداخلية وأنها ملقاة على الكرسي، وأن كتابًا يستقر على الأرض كانت تقرأ فيه لتوها، ذراعها الممدودة، التي انزاح الغطاء من فوقها، شعرها المفرود على الوسادة؛ ألا يريد أن يتشبث بهذا كله، أن يشيد عالمًا يعتصم به من الظلام في الخارج، من الفراغ الذي كاد يبتلعه؟ كان بإمكانه أن يرقد بجانبها، ولكن بدلاً من ذلك جلس هناك، يسوّد سطرًا بعد الآخر بخطه. ولا بد من أنه كان منفعلاً بحق عندما نزل فيما بعد إلى البار وقابل هناك البارمان الذي كان يجهز المشروبات للزبائن في أثناء فترة الحرب. راح البارمان يحكي له الحكايات عن المراقبين الدوليين، بزيهم الرسمي الأبيض المثير للضحك، الذين كانوا يجتمعون في بعض الأحيان على الشرفة المطلة على البحر، ليتابعوا - وهم في الزاوية الميتة التي تحميهم من القنابل - ما يجري على مسرح الأحداث عندما ينهمر

من التل المنبسط خلفهم وابل من القنابل التي تضيء في الظلام لونا برتقاليا، عابرة أسطح المنازل في المدينة القديمة ثم تهبط على الميناء، أو ليسمعوا الموسيقى الجنونية الصادرة عن تهشم قرميد السقف تحت وابل الرصاص، ثم يسرعون إلى الغرف الخلفية بمجرد ظهور زورق حربي في البحر ودخول موظف من الفندق الذي يفرق شملهم بعبارة: They are shooting, gentlemen, they are shooting.

على النحو الذي تحدث به باول، كان واضحًا أنه يعني فوكوفار. لا شك في ذلك. حاولت - عبثًا - أن أكوّن صورة عن وصوله مع هيلينا مع مقدم الليل إلى المدينة المدمرة ليغادرها في الصباح التالي. لا أعرف لماذا غادراها فجأة هكذا، هل أرادت أن تواصل الرحيل فور رؤية المباني في ضوء النهار التي هدمتها طلقات المدافع، والجدران المتآكلة المتداعية التي ربما لم تظهر لها في المساء بهذا المظهر الشبحي، أم لعلها ظلت تلحّ عليه حتى دفعته إلى الرحيل بسبب الشوارع المهجورة التي لم ينرها ضوء إلا نادرًا، وإشارات المرور المثقوبة بطلقات الرصاص والتي لم يعيدوا تشغيلها حتى الآن رغم مرور كل تلك السنوات. هذه شذرات ما زلت أتذكرها مما حكاه لي فيما بعد، شظايا تكاد توحي بالسريالية: مثلا المغني الذي شدا لهما وحدهما بأفضل أغانيه العاطفية الرثة على شرفة الفندق، شاب يرتدي قميصًا مشجّرًا فاقع الألوان مفتوحًا حتى السُرة تقريبًا،

وفي الظلمة خلفهما بين الشجر أفواج من المستمعين سرًا، الثقوب التي خلفها الرصاص في أبواب غرف الطابق الأول كله حيث لم يكن ثمة نزيل واحد سواهما، الثقوب التي لصقوا فوقها بصورة مؤقتة قشرة خشب، كل ثقب يروي قصة خاصة، ثم كيف ظلا ساعات وساعات مستيقظين راقدين على الفراش دون أن يتبادلا كلمة. حسب زعمه كانت النافذة تطل على الدانوب، ومنها كانا يتفرجان على الشمس التي تظهر من بين الشجيرات على الضفة الأخرى، ثم للحظات تهتز بلون أحمر دموي في الهواء الساخن وكأنها لا تستطيع أن ترتفع بسبب ثقلها، حالة من السكون المرتعش، هذا ما أفكر فيه منذ ذلك الحين عندما أتذكرهما. ورغم أنهما واصلا الرحيل بعد ساعات تاركين المكان وراءهما الذي لم يكن ألماير أول من كتب عنه بلهجة مؤثرة: إن الحياة البشرية هناك أقل قيمةً من بعض الجدران القديمة في دوبروفنيك، وقد يتضور الإنسان جوعًا في هذه البلاد التي ليس لها ذكر على الخريطة دون أن يعلم الذباب الأزرق طريقه، بينما تثور ثائرة العالم ويتحدثون جميعًا عن تراث البشرية الثقافي ولؤلؤة البحر الأدرياتيكي بمجرد سقوط طلقات المدافع على شارع سترادون الخالي تمامًا إلا من الدوريات العسكرية الليلية.

ورغم أن باول بالغ في كلامه مُطلِقًا على الرحلة كلها بتفاخر „رحلة جمع معلومات"، فإن ذلك لم يكن صحيحًا، ولا يمكن الحديث بأي حال عن جمع معلومات،

كما روت لي هيلينا في لقائنا الأول بعد عودتها بقليل. راح يجول في ربوع مناطق القتال السابقة، يتوقف هنا أو هناك، ثم يطلب منها أن توجه لأحد المارة بضعة أسئلة، ولكنه سرعان ما يتخلى عن ذلك بمجرد أن يشيح ذاك برأسه قائلا إنه لا يعرف شيئًا عن ذلك، أو بمجرد أن يشرع في التباهي. كان باول محمومًا في إلقاء أسئلته، وفي الوقت نفسه لم يكن مهتمًا اهتمامًا جديًا بما يفعله. إنني أتخيله وهو يلقي بعبء معظم الأشياء عليها، والقلق يسيطر عليه لأنه لا يعرف عن أي شيء يبحث أصلاً، بينما لم يكد يفتح فمه بكلمة، سواء كان الناس سيفهمونه لو تحدث بالألمانية أم لا. في بعض الأحيان بدا لها أن الأمر برمته لا يعنيه في الحقيقة، وأنه يضع أهدافًا نصب عينيه كي يواصل التقدم فحسب، وكأنه يهرب من شيء ما، أو أن حالته النفسية في اللحظة الراهنة هي التي كانت تحدد مسار الأمور.

صحيح أنهما استقلا المعدية إلى هفار، وعرفا الاسم الحقيقي للمدعو سلافكو، وذلك في الفندق الذي كان يعمل فيه، ولكن عندما سألا عنه في سلافونسكي برود ولم يكن موجودًا، لم يرد باول الانتظار حتى اليوم التالي، وواصل الرحيل على الفور. تفرجا على معالم فينكوفيتشي، ولكنهما فعلا ذلك لمجرد أن يعرفا شيئًا عن سير المعارك على الجبهة آنذاك، وفي الثكنة العسكرية هناك تركهم يصرفونه وكأنه تلميذ مدرسة،

تسلل من المعسكر خائفًا عندما قال له أحد الحراس إنهم لا يحبون أن يروا أحدًا يتشمم ويتصيد الأخبار كالجواسيس، وأنه قد يواجه المتاعب بسبب ذلك. كان هذا هو النموذج المعتاد: هجوم، ولدى أقل مقاومة انسحاب فوري. على هذا النحو طافا بنصف البلد، ولم يهدأ للحظات على الأقل إلا في مكان ما في عمق أقليم زادار. هناك بدا كل شيء للوهلة الأولى وكأنه مرتب لإظهار ما حدث في أثناء الحرب.

يُدعى المكان إسلام، وهو مقسم إلى جزئين، إسلام جرتشكي وإسلام لاتينسكي، وهو ما لا يمكن أن يكون محملاً بالرمز أكثر من ذلك، وكأن هذا المكان الصغير الهادئ وحده مفصل الديانات الثلاث، وأعرف من هيلينا أي جهد بذله باول كي يلتقط صورتين نُشرا فيما بعد من دون أي تعليق في الصحيفة تحت عنوان „انطباعات من دالماتيا". قالت لي:

„استغرق الأمر منه وقتًا طويلاً حتى يجد الزاوية التي رآها مناسبة. أما النتيجة فلا يمكن أن تكون أكثر فجاجة ونمطية".

عندما رأيت الصور تعجبت من إحدى لافتات المكان وفي خلفيتها مبنى مدمر لن تقوم له قائمة مرة أخرى، بينما كانت ثمة لافتة أخرى أمام صف من المباني التي لم تتم بعد والتي توحي ببداية جديدة، وعرفت منها أن المسافة بينهما في الحقيقة لم تكن بالطبع بهذا القرب

البالغ.

„لو كان خطا بضع خطوات جانبًا قبل أن يلتقط الصورة، لكان باستطاعته من دون صعوبات كبيرة أن يستبدل هذا المنظر بمنظر آخر".

ما كادت تذكر ذلك، حتى حكت لي كيف وقف مرتكزًا على سطح السيارة في قيظ الظهيرة، موجهًا بصره إلى التلال البعيدة، إلى القرية، وجزء من الخليج، وفي الخلفية يرى المرء قمة تل فيلبيت الغائمة، ثم شرع لأول مرة يكتب ملاحظات بجدية. وأضافت:

„سجل ما كان مكتوبًا على الأطلال. وبدا أنه يهتم بكل جملة، حتى لو كانت بلا معنى".

وهذا معناه أنه كان يكتب أي شيء، ولو رأى نصف عبارة ممسوحة، مثلاً „غرفة شاغرة"، بالألمانية بالطبع، على آخر سور ما زال قائمًا وسط كومة أنقاض، على حد تعبيرها المتهكم.

„في بعض الأحيان لم يكن بإمكان المرء أن يفرق بين ما إذا كانت اللافتات كُتبت قبل الحرب أم بعدها، ولكن هذا لا يغير في الأمر أي شيء".

لم تستطع أن تقول لي أكثر من ذلك لأنني لم أتمكن في تلك المرة من التحدث معها منفردًا سوى دقائق معدودة. كان أحد معارف باول يتحدث في أثنائها معه، وفيما بعد تحدث هو طيلة الوقت كالمعتاد. كانت تشعر بالملل، إما لأنها سمعت شروحاته قبل ذلك، أو لأنها لم

تحب طريقته في الحديث. تصيدتُ نظرتها بين حين وآخر وكنت أعرف أنها ستحكي لي يومًا ما كل شيء على نحو مختلف تمامًا. لم أعد ألحظ شيئًا من عدم ثقتها بنفسها التي لفتت انتباهي في لقائنا الأول، الخضوع الذي اعتقدت أنني لاحظته، العصبية التي اعترتها وهي تجلس بجانبه دون أن تعترض على شيء. كان من الواضح الآن أنها تستمتع إذا قاطعته أو إذا تنهدت ولم تقل شيئًا.

بعد عدة أيام رأيتهما مرة أخرى. في تلك الفترة كان عليّ أن أنوب عن مراسل الصحيفة في برلين، ولذلك كانت برأسي هموم أخرى، كما أنني اعتقدت أن الحكاية انتهت بالنسبة لي على هذا النحو. دعوتهما لزيارتي، لكن الأمر ظل في نطاق التأكيدات الفارغة، وعندما كنت أقضي أحيانًا عطلة نهاية الأسبوع في المدينة، لم أكن أتصل بهما. بالمصادفة قابلتهما بعد ذلك، في مقهى „القدس" في „مسرح الغرفة"، حيث كانا يقفان مرتكزين على طاولة البار، واحتجنا إلى لحظات حتى نتجاوز ما اعترانا من ارتباك، إذ أنهما تصرفا على نحو بارد ومتَكلَف وكأنما بوغتا. كان يرتدي بدلة، وهي فستانًا طويلاً أسود، وقد صففت شعرها وشدته إلى الخلف حتى إن وجنتيها برزت، وكبرت المسافة بينهما إلى حد لم ألحظه من قبل.

كان عام قد مر على الحادثة في كوسوفو، وهو ما لم أنتبه إليه لو لم يشرع باول مباشرة في التحدث عن

ذلك.

„هل تستطيع أن تتخيل مرور كل هذا الوقت؟".

ترددت ولم أعرف هل أومئ أم أهز رأسي، ولكنه كان قد بدأ يحكي أنه اتصل تلفونيا بإيزابيلا وعرف منها أن ألماير كان ينوي أن يتجول في ذلك الصيف سيرًا على الأقدام في البوسنة.

„لقد قرأ في الشهور الأخيرة - حسب روايتها - وصفًا لرحلة من أيام العثمانيين، ونوى أن يتبع المسار نفسه"، أضاف دون أن تفوح من كلامه نبرة تأثر. „كان سينطلق من مكان يقع جنوبي كارلوفاتس، ثم يسافر عبر ساراييفو وفيشيجارد، إلى بريشتنيا مخترقا شاندزاك".

استخدامه البديهي لأسماء هذه الأماكن أثار سخريتي، فهو ربما يجهلها مثلي تمامًا، رغم ذلك بذلت جهدًا حتى أصغي إليه وأبدي اهتمامي. كان يحمل معه قصاصتين من صحيفتين نمساويتين أظهرهما لي، قصيدة كتبتها ليلي بعنوان „حزن"، قصيدة رثائية ذاتية مؤثرة، ذات نبرة غير موفقة ومليئة بالوعود الفارغة، ولذلك لم يعلق عليها كثيرًا، ومقالة على عمودين في ذكرى ألماير، ولأنه ألحّ عليّ كي ألقي نظرة، فقد أسديت له هذا الجميل وقرأت الأسطر الأولى، دون أن أدرك إلى أي شيء يريد الوصول. تطلعت إليه متسائلاً ومنتظرًا، وعندما وضع إصبعه على أحد السطور بدأت أخمن أنه

لم يستطع هضم الجملة التي يشير إليها.

كان مكتوبًا بالحرف الواحد أن الطموح الذي يميز ساكني جبال الألب دفع ألماير إلى مغادرة عشه الجبلي الصغير الواقع على حافة الغابات، ليحط الرحال في هامبورج، مدينة الإعلام، واستطاع في حياته القصيرة أن يغزو كبرى الصحف الألمانية، ورغم أن هذا الكلام كان غبيًا على نحو مخجل، لم أفهم سبب انفعاله الشديد، اللهم إلا إذا أحس بأنه مقصود أيضًا بذلك. عندئذٍ قال:

„هذا الكلام يفضح السلوك الشائع هنا، الإساءة لشخص بعد موته وتحقيره لمجرد أنه غادر مسقط رأسه. يبدو أنهم يعتبرون ذلك جريمة، أنه لم يبقَ في فيينا ليطوف بالصحف وينحني أمام رؤساء التحرير، كما يقتضي طريق العمل الصحفي، ولذلك لا بد من معاقبته".

تملكه الغضب وهو يتحدث، لذا كنت سعيدا بتدخل هيلينا عندما طلبت منه ألا يبدأ في الكلام مرة أخرى عن هذا الموضوع. أخذَت القصاصة من يدي ووضعَتها في حقيبة يدها، ولم تلق إليه بالاً عندما اعترض، بل لمسته على ذراعه وتبادلت الهمسات معه. التفتت إليّ عندئذ قائلةً إنه خرج عن طوره منذ أن عثر على هذه المقالة. ولأول مرة أنتبه إلى أنها تتكلم عنه بهذه الطريقة، ليس هذا فحسب، بل تتحدث عنه أيضًا وكأنه

غير موجود، شيء لم أكن أستطيع أن أتخيله قبل أسابيع، أما الآن فقد بدا في عيوني وكأنه الدليل الأخير على أن شيئًا ما قد تغير فيما بينهما منذ رحلتهما الأخيرة.

لا أعرف عن أي شيء تحدثنا غير ذلك، ولكنها كانت هي أيضًا التي قالت إنها ستسافر في النصف الثاني من أغسطس إلى كرواتيا مرة أخرى، وسألتني ما إذا كنت أحب أن أنضم إليهما. تطلعت إليّ وهي تقول ذلك وأتذكر جيدًا نظرة عينيها التعسة عندما راحت تشدني كطفل، وتصرَفت وكأنها بالفعل تستعطفني. أعقب ذلك اسمي مرة أخرى، منطوقًا بنعومة لدرجة أنني لم أتعرف عليه، وبينما رحت أبحث عن حجة أتذرع بها، ألحت هي على باول كي يوافق، ثم تجاهلته ببساطة عندما لاذ بالصمت.

„الشرط الوحيد أن تتوقفا عن تصرفات الأطفال"، قالت في النهاية وكأننا اتفقنا. „سوف تتحملان عدة أيام إجازة دون التحدث عن أحداث فظيعة ووحشية".

بعد شهرين كانا يقفان في مطار سبليت لاستقبالي. لم أكن مهتما إلا بها. كانت تلوح لي على شرفة الزائرين عندما هبطت كأول الركاب من الطائرة، ثم اتجهت إلى مبنى الوصول لاستلام الحقائب. كان يجب عليّ أن أتماسك حتى لا أتصرف كالأبله وأجري تجاهها بذراعين ممدودتين. لفحت وجهي الحرارة، ثم التصقت الحرارة

بجسدي مثل شريحة رقيقة، هواء ناعم شعرت فيه آنذاك بالراحة، واعتراني ما يشبه الغيبوبة بعد الهبوط فوق البحر، وربما لذلك، ورغم كل ما انتويته، بدأت في الثرثرة حتى قبل أن أحييها.

„مَن يصدق أن الحرب كانت دائرة هنا قبل بعضة أعوام".

قلت ذلك رغم أنني رأيت بكل وضوح مقاتلتين على حافة طريق الهبوط، وكأنهما على استعداد للتحليق في أي وقت. أما هي فحاولت على الفور كبح جماحي: „أيضا لن نتحدث عن ذلك".

لفت ذراعيها حول عنقي، وقبلتني على خدَّيَ الأيسر والأيمن، كما لم تفعل من قبل أبدًا، ثم ضحكت.

„أخشى أنك لن تستطيع التوقف عن ذلك"، قالت عندئذٍ. „رغم كل شيء لم أكن أظن أنك ستبدأ مع أول جملة تنطق بها".

خلال الرحلة إلى الشمال والتي استمرت نصف الساعة كانت هي التي لم تتوقف عن التحدث باستفاضة عن الطريق، عن خلوه بكامله من أي أثر للتدمير، بينما كان باول يجلس صامتًا على مقعد القيادة. بين الحين والآخر كنت أنظر إليه في المرآة، كان يرتدي نظارة شمس، ومن خلالها كان يتطلع إليَ. كان غريبًا أن أسمع ذلك من فمها هي، ولكنها قالت إن المعارك في المنطقة لم تمتد حتى الساحل، وهو ما

وافق عليه بهزة رأس، والمنازل أيضًا لم يصبها ضرر، المنازل التي رأيتها تهتز في القيظ اللافح وعليها إعلانات بأربع لغات تبحث عن سياح. كان من الممكن أن تكون هذه المنازل مشيدة في مكان آخر، وعندما كانت تستدير إليّ واضعةً يدها على كتفه - مشيرةً إلى شيء ما، سواء كان البحر أو مطعم بموائد على حافة الشارع أو أرضية التلال المنبسطة التي تشققت من الجفاف، الشجيرات اليابسة وبينهما الصخور العارية - فلم يكن يعير ما تشير إليه أدنى اهتمام. كان مستغرقًا في القيادة تاركًا إياها تحكي ما تشاء، يتخطى السيارات أمامه برعونة، ومرة واحدة توجه بالكلام إليّ مشيرًا إلى ملصق انتخابي من العام الماضي، الصورة التي كادت أن تصفَر والتي ظلت معلقة بعد فوات أوانها مُظهرةً الرئيس المتوفى منذ فترة طويلة ومعه طفل، وكما يليق برجل دولة من وزنه، كان وجهه العجوز عبوسًا، هكذا يبدو تقريبًا في كل الصور التي رأيتها له، كان ذا ملامح كئيبة أو سفسطائية، تبعًا للزاوية التي ينظر إليه المرء منها.

لا أعرف ماذا تخيّلت هيلينا، ولكننا تكلمنا بالطبع في أثناء الأسبوعين ونصف الأسبوعين التي قضيناها عند والديها في كل مرة تقريبًا عن الحرب، إما بشكل مباشر أو أننا تجنبنا الحديث عن الموضوع على نحو جعل الشعور يلازمني أن والديها إنما ينتظران أن يُسألا عن الحرب، أو أنهما يريدان تبرير موقفهما. لقد عاش

كلاهما أكثر من ثلاثين عامًا في ألمانيا، ورغم أن حديثهما لم يوضح في بعض الأحيان الفارق بين سبب مغادرتهما ألمانيا وسبب إطلاق الرصاصات الأولى بعد ذلك، فإنني لا أستطيع القول أي الرؤيتين كانت صوابًا. سواء تعلق الأمر بالشكوى من أن القرى المحيطة قد أهملت على أبشع صورة عبر سنوات وعقود، والمدة الطويلة التي انتظروها حتى تصل الكهرباء إليهم، أو الماء الجاري، وكيف أن الشارع المؤدي إلى بيت الوالدين ما زال لم يُسفلت بعد، أو أن الحكومة في بلجراد قد وطّنت على الساحل أناسًا من صربيا بقروض بخسة - أتصور أن هذه الحكايات كانت تروى في كل مناسبة، ولم يكونوا هم فقط من يرويها، بل لعلها استمدت قوة الاقناع من تكرارها الدائم أكثر من كونها صحيحة.

كان والد هيلينا على وجه الخصوص لا يتوقف عن حكي مثل هذه الحكايات، وما زلت أتذكر كيف سألني وهو يسدد نظرةً جانبيةً إلى باول إذا كنت أنا أيضًا أكتب عن الحرب، وعندما نفيت، هز رأسه بألفة غريبة.

„إذن لديك وقت كي تتجول في المكان".

على ما يبدو كان ينخز باول بكلامه، إلا أنني لم أعرف لماذا قال ذلك، تطلعت إليه فحسب، بينما راح هو يعطيني درسًا طويلاً: „أفضل شيء أن تفتح عينيك، وألا تعتمد كثيرًا على ما تقرأه في الكتب، ربما تعرف

عندئذٍ حقيقة الأشياء".

لم يكن قد مر وقت طويل على وصولنا عندما قال ذلك، وسواء كان يطلق الكلام على عواهنه، أم أنه كان يشير إلى أن لديه معلومات أكثر، فقد ذكر ذلك عَرَضًا، وهذه النبرة العَرَضية احتفظ بها خلال الأيام اللاحقة. بمجرد أن يقابلني وحدي كان يحوم حولي مترددًا قبل أن يجلس معي، ويسألني عما إذا كان يزعجني، ثم يشرع في الحكي. بعد كل ما سمعته عنه، كنت أتوقع رجلاً آخر، وليس هذا المزيج من التحفظ والتهذب الخجول الذي كان يتودد به إليّ، كنت أتخيله أكثر تماسكًا، ربما أكثر خشونة، فهو كان يعمل بنّاء، كنت أتوقع ثقة وقحة بالذات، أو على الأقل الظهور بمظهر هادئ غير متكلف، أيًا كان معنى ذلك. ربما يرجع ذلك إلى العينين الكبيرتين المتعبتين خلف النظارة، إلى الشعر الأبيض الشاحب القصير جدًا، أو الوداعة المفاجئة في صوته، على كل حال كان مظهره يوحي بالتردد والخوف، وهو ما يلفت النظر من الوهلة الأولى، أما ألمانيته فبدت حذرة، قليلة المفردات في بعض الأحيان، وحينًا آخر - وتحديدًا بسبب قلة المفردات - كانت تبدو متأملة، لا سيما عندما يبحث طويلاً عن كلمة ثم يقول في النهاية شيئًا آخر تمامًا غير ما كان ينوي.

ورغم أنه لم يكن واضحًا بالنسبة لي لماذا حصلت أنا على هذا الشرف، فقد أحببت الجلوس في الصباح معه أمام البيت - باول وهيلينا ما زالا نائمين، وزوجته

ذهبت إلى القرية - عندئذ كان يحكي لي نادرة بعد الأخرى. غالبًا ما يكون قد سبح قبل ذلك، ومن غرفتي كنت أتفرج عليه وهو ينثر الماء على جسمه من خرطوم ليزيل آثار الماء المالح، وبعد أن يرتدي ملابسه، يجلس أمامي خلال الساعتين الوحيدتين في النهار اللتين كانت الحرارة فيهما محتملة، كنت أراه شابًا، سعيدًا على ما يبدو لأنه وجد فيَ شخصًا يصغي إليه. اعتاد أن يعد القهوة ويضع أمامي بعض ثمار التين، مستمتعًا بالموقف عندما يمر عابرون من أمام البوابة ويسلمون، أو يتبادلون معه عدة كلمات، جيران عائدون من الشاطيء أو ذاهبون إليه، وينتهزون الفرصة ليثرثروا معه قليلاً. كنت أتعجب من أنه كان يتوه في حكاياته الكئيبة التي يعود ليرويها بنفس الخفة التي كان يتحدث بها لتوه مع جيرانه عن الطقس أو أي شيء آخر لا وزن له.

كان ينتظرني منذ المرة الأولى بأكثر الأشياء غرابةً وكأنه أراد أن يعرف إلى أي حد يمكنه المضي معي، وما زلت أتذكر بدقة أنه لم يكن يحول بصره عني.

„قد تصدقني أو لا تصدقني"، كان يكرر دائمًا موضحًا بذلك أنه لن يندهش إذا اصطدم بشكوك لدى مَن يستمع إليه. „ليس لدي سبب كي أكذب عليك".

كان كلامه إجمالاً بمثابة دورة تدريبية سريعة في عبثية كل شيء، لكنني لم أعرف إذا كان بإمكاني التأكد من صحة التفاصيل، عندما تحدث عمن سماهم

„مناضلي نهاية الأسبوع"، أناس كانوا يعملون من الاثنين إلى الجمعة أعمالاً يمكن وصفها بالعادية، وفي نهاية الأسبوع ينهمكون في النهب والقتل وكأنهم يمارسون هواية في وقت الفراغ، آباء طيبون لا يلفتون النظر في شيء، يتسللون إلى أحد المعسكرات كي يصفّوا حسابًا قديمًا؛ أو حديثه عن المهاجمين الملثمين في القرى المحيطة، وأن من بينهم - حسب ادّعائه الذي كرره مرارًا - نساء أيضًا. ما صوّره كان يدور في فلك هذه الأشياء الغريبة، حكايات عن عجائز تُركن وحدهن بين أطلال ما كان حيًا سكنيًا، كن يستدرجن الجنود الغازين إلى المطبخ لاحتساء كأس عرق ثم ينزعن فتيل قنبلة يدوية مخبأة تحت التنورة. لم أكن أعلن شكوكي إلا بتردد وحذر. ذكرني كلامه بشدة بالأساطير التي حيكت حول الفدائيات المتوحشات من الحرب العالمية الثانية اللاتي كن يستمتعن بمهاجمة الرجال من الخلف وذبحهم، ولكن عندما كنت أرفض تصديق حكاياته لم يكن يقول سوى إنني لم أسمع شيئًا بعد. عندئذ حكى لي عن الجنود الذين حاصروا منطقة المنحدرات فوق دوبروفنيك، والذين كانوا تقريبًا يستعطفون المدافعين عن المدينة كي يطلقوا عليهم النار قليلاً حتى لا يُنقلوا إلى الجبهة الأخرى الأسوأ بكثير في سلوفينيا؛ أو حكاياته عن الأطراف المتعادية الذين كانوا يؤجرون لبعضهم البعض الدبابات وكأنهم يستعجلون موتهم، ثم راح في النهاية يحكي عن أكثر الشائعات شذوذًا، الهراء

الذي كان ينتشر بعد الرصاصات الأولى، تخاريف لا يصدقها عقل، مثلاً أن القوات النمساوية تحارب في سلوفيينا يدًا في يد مع السكان لتأسيس الرايخ الرابع، فقط لذكر أعظم الشائعات جنونًا، أو أن عقدًا - سريًا للغاية بالطبع تبلغ قيمته مليارات - وقِّع مع الألمان لطرد آخر الصرب من كرواتيا طردًا لا عودة بعده، ثم توطين مئات الآلاف من العمّال الراغبين في العودة إلى وطنهم.

عندما كانت زوجته تعود إلى المنزل، كانت تحثه على النهوض قائلة إن عليه ألا يصدع رأسي بأساطيره. هيلينا أيضًا كانت تعتقد أن عليها أن تحول بيني وبينه، وقالت لي مرة إنه يتبنى آراء متطرفة، وأن عليّ ألا أصدق كلمة واحدة مما يقوله. لم يكن يجدي شيئًا عندما أدافع عنه، وأكاد أقسم أن بعض الأشياء التي يحكيها ليست بعيدة عن التصديق، وأنه كان في المعتاد يعرف إذا كان ما يقوله بعيدًا تمامًا عن المنطق، لكنها أصرّت على أنه مليء بالأحقاد والضغائن، وأنه يشعر بأنه فقد كل شيء منذ البداية، لا لشيء إلا لأن أباه كانت تنقصه بطاقة عضوية الحزب التي تفتح كل الأبواب المغلقة، وهي التي كانت ستجعله إنسانًا أفضل. لم ينجح أحد - حسبما حكت لي - في أن يطرد من رأسه الفكرة التي عششت بها، وهي أن هجرته كانت في الحقيقة طردًا وتشريدًا. كانت هيلينا ترى أنه لم يكف عن اختراع سيرة تراجيدية تصوّره منفيًا، لأنه بمرور السنين لم يستطع أن يتأقلم مع فكرة أنه هاجر بمحض

إرادته، وأنه تخلى عن حياته، على حد تعبيرها، وهي الشيء الوحيد الذي كان - أو في استطاعته - أن يمتلكه.

„كثيرًا ما تمنيت لو لم يكن ذهب إلى ألمانيا، بل أن يكون ذهب إلى أبعد مكان ممكن"، أضافت عندئذٍ. „زيارة الوطن، على الأقل في الأعياد، كانت تبدو مغرية جداً، وهذا تحديدًا ما منعه من أن يبدأ شيئًا آخر بجدية".

تمشّينا معًا في شوارع القرية، وبينما راحت هي تحكي لي أنه فقدَ تدريجيًا السيطرة على حياته، لم أكن أتمنى إلا أن أطيل النظر إليها فحسب، كانت هي تشير يمينًا ويسارًا إلى المنازل الجديدة، يمتلك معظمها عمال مهاجرون، طابقان أو ثلاثة طوابق، في بعض الأحيان مبان تنطق بالتفاخر والتباهي، وكانت هيلينا تعرف دومًا تقريبًا أين يعيش المالك، وكانت تنطق أسماء أماكن في أمريكا أو أستراليا أيضًا، كأننا في لعبة تخمين، ثم راحت تسخر من زوج وزوجته كانا - حسب كلامها - يديران مطعمًا طوال العام في برلين يدعى „مشويات البلقان"، وفي الصيف، وكأن هذه هي أفضل فكرة خطرت على بالهما، يديران „مشويات برلين" في البلقان.

كانت تلبس الفستان الأزرق الفاتح من دون أكمام، والذي كانت ترتديه في الصورة التي مسّت شغاف

قلبي. تحدثت بانفعال يكاد يشي بأنها تعتقد أن الجميع تمكن من تحقيق شيء، وأن أباها وحده هو الذي أخفق.

„يبدو أن حالته كانت طيبة طالما أنه كان يثق بأنه يستطيع العودة إلى الوطن في أي وقت يشاء"، واصلت كلامها. „لا بد من أن الشكوك بدأت تراوده عندما لا حظ أن ذلك بالفعل صحيح، ولكنه إذا دقق في الأمر، فإن المكان الذي يريد العودة إليه لم يعد له أية علاقة به".

ما قالته بعد ذلك لم يكن مفاجئًا.

„"كان دائمًا يحلم بمنزله على البحر، وفي الوقت الذي انتهت فيه أعمال البناء، أُصيب لأول مرة في حياته بمرض خطير".

حدث ذلك قبل الحرب بالتأكيد، وعندما تحدثت عن حالته النفسية وعن إحالته إلى التقاعد المبكر، وعن تناوله الأدوية منذ ذلك الحين، توقفت عن توجيه الأسئلة، غير أنني بدأت أنظر إليه على نحو مختلف عندما أراه يعمل في الحديقة، أو عندما يتغير شكل شجيرات حصى اللبان بين عشية وضحاها، الأقماع المسنودة بدقة، المكعبات والكريات التي كان يشذبها كل يوم تقريبًا بمقصه. وفجأة لم أعد قادرًا على تبادل الحديث معه دون أن أسمع تعليقها في أذني الذي كان يعمل على توازن الأمور، وبدأت أستمع إليه على نحو مختلف تمامًا، مثلاً عندما يشرع على الفور في سرد الحجج والبراهين لمجرد أن يدافع عن نفسه في أمر ما،

أيًا ما كان هذا الأمر، ولكي يدعم كلامه يستشهد بكل بديهية بما حدث في أقصى قرية في الوطن أو في العالم كله. طالما كانت هيلينا موجودة، لم يكن الأب يتحدث معي مباشرة. كان يطلب منها أن تسألني، أو أن تلفت نظري إلى شيء. وعندما سألتها بماذا يناديها في كل مرة، بدت مترددة لوهلة ثم قالت „يا ابني"، وأضافت أنه كان دائمًا يناديها هكذا، منذ أن وعت الدنيا، وأنه كان في السابق يمزح أمام الغرباء والأصدقاء قائلاً إنه لم ينجب أطفالاً، لمجرد أنها فتاة.

في أثناء النهار كنت أقضي معها وقتًا طويلاً وحدي، لأن باول توهم أن عليه أن يعمل. وبينما كنا نتمدد على الشاطئ، كان هو يبقى في المنزل ويكتب، أو على الأقل يأخذ الطاولة التي تطوى ويضعها على الشرفة أمام غرفته، ثم يشرع في التخبيط والنقر على آلته الكاتبة التي يحملها في الأسفار، لدرجة أن كل الجيران كانوا يسمعونه. كنت أحب للغاية قضاء الوقت معها، ورغم ذلك كنت أحسده أحيانًا على ما يفعله، كنت أتمنى أن أجلس أنا هناك، وأن أرسل نظرة لا يقف في طريقها شيء عبر أسطح المنازل إلى البحر، مُطلقا لأفكاري، ببساطة، العنان. كانت هذه هي المرات الأولى التي أراها فيها وحدها، من دونه، منذ ما حدث في رأس السنة، ولكنني كنت أشعر بالامتعاض ونحن نحصل على بركته قبل الذهاب في الضحى، وأن يلوح إلينا مودعًا عندما نتأهب للرحيل، وأن أجد نفسي مجبرًا عند عودتنا على

سماع ما نجح أو لم ينجح في إنجازه خلال غيابنا، وهو جالس في مكانه حافيًا بالشورت تحت المظلة، وكأنه لم يتحرك لحظة واحدة.

لا أعرف ماذا كان يدور في رأسه، ماذا جعله يصنع من نفسه فرجة للجميع، إلا أنني لم أتحدث معه عن ذلك. وفي المرة أو المرتين اللتين اختلينا فيهما في غرفته تجنب أن يحدثني عن روايته ولو بكلمة واحدة، وتجاهل أسئلتي عنها، رغم أنني أتذكر أن الأرضية كلها كانت مغطاة بالورق، وأنه - ليفتح الشيش ويُدخِل بعض الضوء - كان يتحرك بين الأوراق وكأنه على لوحة شطرنج. لم أكن أعلم أنه معروف في القرية كلها منذ زيارته الأولى بأنه وسط الحديث مع الناس يُخرج أحيانًا مفكرته ليدون بعض الملاحظات، ولكنني أستطيع أن أتخيل كيف بدا بحركاته هذه خطيرًا في بعض الأحيان، لا يختلف في ذلك عن عضو إحدى اللجان التي لا تأتي إلا بالشرور. لذلك لم أتعجب عندما سمعت أن سلوكه استفز بشدة عائلة بوسنية لاجئة، كانت قد احتلت منذ الحرب منزلاً يمتلكه صرب شُرِدوا من المنطقة، لأن البوسنيين ظنوا أنه سيطالبهم بشيء. وعندما ظهرت إحدى الجارات بالقرب من باب الحديقة طالبة بلهجة تتراوح بين التهكم والجدية أن يبعدوا عنها هذا المجنون، فهو منذ أن عرف أن لها صلة قرابة بأحد جنرالات الجيش لم يتوقف عن الإلحاح عليها أن تجمعه بالرجل الذي تحوم حوله حكايات مريبة، أو

فظائع لا تُصدق على أقل تقدير، إذا لم أكن أخلط بين الأمور فقد كانت شائعات تتردد عن مسؤوليته عن مذابح ارتكبت بالقرب من جوسبيتش. فوجئت في البداية عندما رأيت ذلك، ثم بدأت أفكر فيما يهدف إليه. بالتأكيد كان الجهد الذي يبذله مبالغًا فيه، وأتذكر كيف سأله والد هيلينا ذات مساء إذا كان كل ذلك ضروريًا بالفعل لكتابه، فكانت النتيجة أن يسمع مرة أخرى حكاية ألماير، فما كان من الأب إلا أن هز رأسه قائلاً في النهاية:

„بسبب ميت واحد تقيم الدينا ولا تقعدها؟ أتعرف عدد الذين ماتوا هنا؟".

انفعاله كان واضحًا.

„كم في الحرب العالمية الأولى؟ كم في الثانية؟".

لمحت شفته العلوية تهتز، ثم مسح بكلتا يديه على وجهه منتظرًا لحظة قبل أن يواصل كلامه:

„وكم الآن؟".

لم يكن هذا هو سوء التفاهم الوحيد بينهما، وربما يرجع موقفه الرافض لمخططاته بشأن السفر إلى كوسوفو لرؤية موقع الحادث إلى أنه ببساطة لم يكن يحب باول. بعد وصولنا بيوم واحد ضحك على الفكرة سائلاً إياه عما يتوقعه، وكان في كل مرة يقابل بالمزاح حديثه عن ذلك، وكأنه يتحداه. ثم قال له الأب: فلتفعل ما يلح عليك، ولكنني شخصيًا لن أسافر إلى آخر الدنيا

ولو أعطوني ملايين، ناهيك عن أن أفعل ذلك انطلاقًا من فكرة هي الجنون بعينه.

غير أن باول نفسه لم يبد عليه الإصرار على القيام بتلك الرحلة. كان من الصعب تخيل أن يتحرك من مكانه، حتى لو كان غالبًا ما يدير دفة الحديث إلى هذا الموضوع بمجرد أن يفتح فمه، مستمتعًا بالحصول على الاهتمام من وراء ذلك. بدا أنه يكتفي بأن يرينا قصاصة من صحيفة بها صورة تُظهر صليبًا معدنيًا أحمر على حافة طريق صاعد صعودًا طفيفًا، وكان لا يمل تكرار الجملة نفسها وهو يشير إلى الصورة:

„هنا وقع الحادث".

كان من الممكن أن يكون ذلك في أي مكان: في الخلفية سيارتا جيب، كيس قمامة أزرق فاتح، وقطعة من السماء. وأتذكر كيف أمسك الصورة أمام عيني وهو يقول إن هذا النصب أقامه أصدقاء لألماير في ذكراه السنوية الأولى، ليتحدث بعد ذلك بطريقة شبه بديهية عن ليلي.

فكرت في ذلك مرة أخرى عندما انطلق ذات صباح باكر للغاية، بالطبع وحده وكما يليق الأمر بمغامر حقيقي، وكنت بالمصادفة شاهدًا على وداعه من هيلينا. لم أنم طيلة الليل، بعد أن كاد الناموس في غرفتي يفقدني عقلي، ولأنني سمعت أصواتًا، فقد اقتربت من النافذة، فوجدتهما يقفان هناك، على بعد مترين أو ثلاثة

مني، هي بالبيجاما رغم أن درجة الحرارة لم تهبط خلال الليل تقريبًا، وهو بشورت يصل إلى ركبتيه وحذاء بنصف رقبة كنت أراه لأول مرة. احتضنها، وهي تقف في مواجهتي، مسددة البصر عبر أكتافه إليّ، تمامًا كما حدث في قريته آنذاك، ولكن لم يكن باستطاعتها أن تراني، لأنني كنت أقف في الظلام، بينما كان الصبح يتنفس بالخارج. لم يفصل بيننا إلا السلك الذي يمنع دخول الذباب، والفجر، وشيء ما في الهدوء قال لي إنها تبكي، أصخت السمع، ولكن لا شيء، ولا حتى من جانبه، لم يتحدث، ولم يعد يحاول إقناعها، أو ربما من البداية كان صامتًا، ويمسك بها فحسب.

استغرق الأمر لحظات عدة، إلى أن انتزع نفسه منها، ومشى إلى سيارته، بينما ظلت هي واقفة، ورغم أنه لم يسر إلا خطوات فقد تعجبت من أن عرجه أصبح فجأة واضحًا بدرجة لا تخطئها العين. ثم رأيت ضوء الكشافات الذي مر بالبيت المجاور، ورأيتها وهي تعدو إلى باب الحديقة حتى تلوح له، وكأن جهازي السمعي بدأ يعمل فجأة، إذ وصلني صوت المحرك بقوة غير معتادة. ابتعدت السيارة بسرعة، ولم يتناهَ إلى سمعي إلا نباح كلب من أحد البيوت المجاورة، وصرير شيش نافذة فُتحت فوقي، وهي، في وقفتها هناك، سكونها، وبعد برهة صوت أمها، جملة أو جملتان، إلا أني لم أفهم شيئًا، وهي تجيب بالألمانية: „طيب يا ماما، طيب".

كنت قد استلقيت مرة أخرى عندما ظهرت وهي

تكاد تلتصق بنافذتي، مرسلة النظر إليّ. كنت أرى خطوطها الخارجية بوضوح تام، كما كنت متأكدًا تمام التأكد من أنها لا تستطيع أن تحدد إذا كنت نائمًا أم أتظاهر بالنوم، وحملقت فيها أنا أيضًا إلى أن استدارت وانصرفت. يبدو أنني غفوت بعد ذلك، وعندما أفقت لم تكن نصف ساعة قد مضت، وكانت تقف عند المكان نفسه، وإنْ كان الضوء قد تزايد كثيرًا، مرتدية لباس البحر وقد لفت منشفة كبيرة حول خصرها، ثم سألتني إذا كنت أود أن أذهب معها للسباحة.

الحرارة خانقة وكأننا في الظهيرة، والهواء يكاد يئز بسبب آلاف الجنادب التي تطير، وبغتةً عادني شوقي القديم إليها. كان باول بالنسبة لي بعيدًا للغاية حتى أنني شعرت وأنا أسبح معها في البحر عديم الأمواج وكأنه فارق الحياة، لكنها أعادتني إلى أرض الواقع لأنها أدارت على الفور دفة الحديث إليه بمجرد أن استلقينا على الشاطئ لنجفف أنفسنا في الشمس البازغة.

„أتعتقد أن هناك خطورة مما يفعله؟".

كنت لا أزال ألهث، ولا أزال على جناحي الحماسة التي حملتني في أثناء السباحة؛ كنت أُنزل رأسي تحت الماء بعد كل نفس، فتنتابني رعشة، ثم أظل في الوضع نفسه إلى أن تسكن المياه من حولي، لذا لم أُرد أن أسمع شيئًا عنه.

„لقد تمعن في الأمر بالتأكيد قبل سفره"، قلت دون

أن أهتم بتلطيف لهجتي الجافة. „لن يتهور ويخاطر بشيء غير مضمون".

لم تكن ثمة لهجة أخشن من ذلك، غير أنها لم تتأثر بما قلت، وقرّبت رأسها من رأسي إلى الحد الذي شعرت فيه بالدوار عندما نظرت في عينيها، ثم راحت مرة أخرى تقول إن الوضع ما زال مضطربًا في كوسوفو رغم وجود القوات المسلحة هناك.

„وما زال هناك مَن يلقى مصرعه".

نبرات صوتها كانت ناعسة.

„لا يكاد يمر يوم لا يحدث فيه شيء"، أضافت عندئذٍ. „ولا أحد يعرف إذا كانت الصحف تكتب عن كل شيء".

كلامها أزال سحر اللحظة، فلزمت الصمت، وببساطة رحت أمتع نظري بالتطلع إلى وجهها. ولكن لم تمض سوى أربع ساعات وعاد باول. تعطلت سيارته، ولسبب ما راحت تعامله باعتباره فاشلاً، ولم ترد أن تصدق أنه ينوي أن ينطلق من جديد فور استلام السيارة من الورشة. قالت لي إنني كنت محقًا في ألا أهتم بالأمر منذ البداية. كانت تقاطعه بمجرد أن يهم بالكلام، إلى أن تخلى عن محاولاته. وباستثناء بعض الملاحظات التي رميثها في وجهه تقريبًا، بدا أنه لم يعد يفكر في الموضوع، وكأن النية الجدية بالرحيل لم تكن لديه أبدًا.

كانت أيامًا امتنع فيها النسيم عن الهبوب، وكانت

الحرارة في كل يوم تزداد عن سابقه، ورغم أن ذلك كان بالأحرى نذيرًا بالكارثة الأبدية أكثر منه بشيرًا بالسعادة الكبرى، فقد قضيت - وكما تمنيت - ساعات وساعات على الشرفة. دون إحساس بالزمن كنت أغفو هناك، تفاجئني الشمس الساطعة في السماء، مرة من هنا وأخرى من هناك، فاستيقظ مذعورًا وأرسل النظر إلى البحر الممدد أمامي كالميت، والذي تظهر عليه في وقت ما العبّارة التي تبحر بين سبليت وأنكونا، دون أن أستطيع التفرقة بين الهلوسات والواقع. في الظهيرة أحيانًا، لم يكن ثمة إنسان على مدى البصر، وكثيرًا ما كانت الأصوات في البيت تحتضر أيضًا، عندئذٍ كان يتلبسني الرعب من أن يكون الجميع هجروا المكان وتركوني وحيدًا، فأتعجل هبوط المساء، حيث يتحلق الكل في سلام حول المائدة وأتأكد من أنهم ما زالوا على قيد الحياة. بعد ذلك بقليل يبدأ الزوّار في التردد على البيت، عادةً دون سابق إخطار، رجال من البيوت المجاورة، ينضمون إلينا، ودون تكليف يرفعون قمصانهم حتى الصدر، ويبردون بطونهم العارية بكفوفهم أو يظللون عليها بورقة من الجريدة، أو يحركون مناشف الصحون في الهواء لإفزاع الناموس.

في عدة أماكن على الشاطئ قبلنا أو بعدنا كانت حرائق قد اشتعلت، أحيانًا كان اليوم كله يمر وأنا أشم الرائحة اللاذعة العالقة في الهواء. كانوا يقولون إن الطريق مغلق أمام المرور هنا أو هناك، وعندما تنعكس

في الليل ألسنة اللهب، ويجد المرء في الصباح بقايا الرماد على البلاط الحجري أمام المنزل، تستولي على الجميع حالة من الترقب شبه المتوتر لإعلان حالة الطوارئ. أما بالنسبة لي فلم يتغير أي شيء. ظللت جالسًا في مكاني وقد اشتد خمولي، أتطلع إلى منظر الخليج حيث تظهر بين الحين والآخر طائرات إطفاء الحريق وتهبط على الماء، ثم لا تلبث أن ترتفع، ولبرهة يبدو أن ثقلها الذاتي يجذبها لأسفل، وتنقطع أنفاس الرائي وهي تبدو واقفة في السماء بزاوية مائلة، قبل أن تختفي بمحركاتها التي تدور بصعوبة.

نفس هذا الشعور بالغياب انتابني عندما سافر باول وهيلينا إلى مناطق جرت فيها الحرب، ومنذ ذلك الحين أشعر عندما أفكر في ذلك بأنني أرى الأشياء من وراء لوح زجاجي. وما زلت أتذكر أنني لم أعر كلامهما انتباها، وفيما بعد تكاثرت في رأسي الانطباعات التي بدت تحت ثقل الحقيقة غير حقيقية. كان من الممكن أن أقضي وحدي وقتًا طويلاً، أن أجلس في السيارة وهما بالأمام يحكيان ما يحلو لهما دون أن أنصت، إلى هذا الحد استحوذ على اهتمامي الخراب الذى تراءى لعيوني يمينًا ويسارًا، المباني المدمرة على حافة الطرق، المنازل التي لم يتم بناؤها ومع ذلك تم قصفها، أكوام الأنقاض التي لم ينهض منها إلا ربما مدخنة، والجدران التي لم تُسقّف بعد، بنوافذها الخالية وآثار القنابل التي تذكّر بما تخلفه حوافر الحيوانات، والنباتات التي نمت

بعد كل هذه السنين لتصل إلى قامة الإنسان، بل وتتجاوزه، والتي امتدت من غرف النوم وغرف المعيشة صاعدة إلى السماء.

ورغم أنني كنت أعرف بالطبع مقالات ألماير بهذا الشأن، فلم أكن مهيئًا لذلك، لا سيما رؤية الحياة التي ظهرت لي من بين الأنقاض، والتي أكدت الشعور بالهجران، ألواح زجاجية لامعة ونظيفة بستائر وسط فراغ، طفل حاف على حافة الطريق لا يرتدي إلا سروالاً داخليًا، امرأة تقلّب التربة في حقل خضار ضئيل المساحة محاصر بهياكل السيارات الصدئة، غسيل منشور على حبال شُدَت كيفما اتفق، الملابس ترفرف في الهواء كما ترفرف في أي مكان آخر. أتذكر ذهول ألماير عندما فكر في عدد السنوات التي يحتاجها العامل في الخارج ليدخر ثمن بيت يبنيه هنا، ثم يفجرونه ببساطة، وأتذكر أيضًا كيف كانوا يستمتعون بذلك استمتاعًا خاصًا، وأنهم كانوا يغلقون كل الأبواب والشبابيك، ثم يثبتون شمعة مشتعلة في الطابق العلوي، ويفتحون الغاز في المطبخ، وينتظرون إلى أن تنتفخ الجدران من غير صوت، ثم تنهار بفرقعة. ولكن كلما حاولت أن أستشف حكاية مما خلفته الأنقاض، أشعر بعجز خيالي. تراءى لي وصفه وكأنه من زمن آخر، لوردات الحرب الذين تركوا أسماءهم فوق أبواب الدخول ضامنين حقهم بذلك في أن يكونوا أول من يسلب البيت وينهبه، عربات نقل المتاع والأثاث التي

كانت تسافر من قرية إلى أخرى لحمل كل ما يمكن حمله، العصابات التي انتزعت من الجدران ما تبقى من برايز الكهرباء، قبل أن تجيء الأرامل العجائز المتشحات بالسواد بالطبع، ويقمن بمسح الخرائب والأطلال مسحًا، وينبشن كالحدآت في كل حجر بحثًا عن أي شيء يُحمل.

تذكرت ثانية أن ألماير كتب ذات مرة أنه - في كل مرة يسافر فيها على الطريق الزراعي متوجهًا إلى دالماتيا - كان يشعر بمزيج من الحنين إلى دالماتيا والشوق إلى السفر بعيدًا في آن واحد. كنت أعتبر ذلك مجرد تلاعب بالكلمات، ولكن عندما أنظر إلى الهضاب والسهول المتربة، المراعي شبه اليابسة التي حولت حقولاً والتي كانت تمر بنا في الخارج، وسماء الظهيرة التي توحي بالحريق، والوميض الذي لا ينطفيء في الأفق، اعتقدت أنني بدأت أفهم ما يقصد، بل إنني لم أجد التشبيه الذي استخدمه شاذًا عندما قال إن الطبيعة في دالماتيا كانت تؤثر فيه للغاية، وكما لم يشعر في حياته إلا عندما يرى في وطنه مساحة شاسعة بِكر من الثلج تمتد من اللاشيء إلى اللاشيء. ربما بدا كلامه للوهلة الأولى متناقضًا عندما يقول إنه شعر بالعبثية لأن صراعًا يمكن أن يتفجر حول هذه الأرض القفر تحديدًا، لا سيما أن كل ذي عقل لا يريد شيئًا سوى الرحيل من هذا المكان، ولكنني أدركت سريعًا أن الناس من أجل ذلك تحديدًا يدافعون عن

الوطن حتى آخر نقطة من دمائهم، بدافع من التشبث المتناقض بشيء لا وجود له في الحقيقة، وأنهم يمتنعون عن الرحيل ببساطة، وترك هذا الضياع وراء ظهورهم بصورة نهائية، هذا الضياع الذي كان ينبعث من عديد من القرى في المنطقة حتى قبل أن يتم تدميرها، قرى لا تبعد سوى بضعة كيلومترات عن البحر، ومع ذلك فهي بعيدة نائية، ليست من هذا العالم، هذه المنازل القليلة التي تبدو وكأن الشمس أنضجتها، المنازل المتناثرة في فراغ المنطقة الجبلية وجدَبها.

ورغم أنني لست متأكدًا من صحة ذلك، فإنني لم أنسَ ادّعاء ألماير أن كنين أبشع مكان في كل البلقان عندما تثلج السماء. ولكن عندما وصلنا إلى هناك لم تكن تثلج، كنا في وسط الصيف، ٤١ درجة مئوية حسبما أعلنوا في الراديو، قيظ لافح خانق. القلعة، محطة السكك الحديدية، وأمامها تمثال فظ، نصب النصر التذكاري: جندي يرفع ذراعيه، في إحدى يديه مدفع رشاش، قضبان السكة الحديد المتشعبة، الموصلة إلى المحطة والخارجة منها، مداخن مصنع مسامير قلاووظ التي لفتت نظر ألماير، وما زلت أتذكر أن رنين كلماته كان يتردد في رأسي: الناس هناك مرضى بالبارانويا بشكل لافت، تذكرت هذا التعبير حتى قبل أن ألاحظ لابسي الزي الرسمي الواقفين على نواصي الشوارع، وكيف كان الناس يلاحقوننا بنظرات عنيدة أينما نذهب. حسب كلامه كانت المنطقة تعج بالمجرمين في أثناء

الحرب، تحدث - إذا لم أكن أخلط الأمور - عن „وكر التشتنيك"، ولكن عندما اخترقت بنا السيارة الشوارع بسرعة السلحفاة، لم أرَ إلا وجوهًا فضولية تتسكع في تثاقل، دون أن تتمتع بالقدرة على فعل أكثر من ذلك. رايات مستفزة في كل مكان، ولا شيء غير ذلك، لا شيء بالمعنى الحرفي للكلمة. بلا شك كان محقًا، لقد كان مكانًا بائسًا، سواء مع الصرب، أو الآن من غيرهم بعد أن شُردوا وطُردوا من المكان، وعندما حكي باول أن الحدود العسكرية النمساوية كانت لا تبعد عن هنا كثيرًا، في الاتجاه الشمالي، بأسطورتهم الحزينة عن أكثر الرعايا وفاءً وأكثر المحاربين شجاعةً في كل ربوع المملكة، عندما حكى عن الحاجز الذي شُيد في وجه الأتراك والمكون من الحصون ونقاط المراقبة والذي كان في أقصى امتداد له، يومًا ما، يصل بين الساحل الأدرياتيكي عبر سلوفينيا وإقليم بانات حتى زيبنبورجن، فإن المنازل تراءت لي أكثر كآبةً، وشعرت بالفرح عندما خلفناها وراء ظهورنا، ومعها الهواء الفاسد العفن الذي يسود مدينة صغيرة كانت مقرًا لثكنات عسكرية، مدينة من قرن آخر، قدرُها - منذ الأزل - أن تكون معبرًا للجنود ومنطقة انسحاب معزولة.

أتذكر أن هيلينا لزمت الصمت طوال الرحلة، ولم تستيقظ إلا عندما اقتربنا من قرية جدتها. راحت تتحدث فجأة بنبرة ساخرة لم أعهدها، وهو ما حملني على الاعتقاد أنها تريد أن تعتذر عن كل شيء، أنها

تخشى أن تكون توقعاتنا أكبر من اللازم، وأن نشعر بخيبة الأمل عند وصولنا. رغم أنني لم أتصور شيئًا آخر غير ما رأيته: بيت صغير من الحجر، أربع غرف فقيرة متقشفة، غرفتان في الطابق الأرضي وغرفتان في العلوي، معلق فيها ثلاث صور لـ"العشاء الرباني" وتقويم منسي على الحائط من سنوات السبعينات. آلمني أن أراها تفتح بابًا بعد الآخر، بلامبالاة، وكأنها تريد أن تدمر بنفسها جنة طفولتها، قبل أن ننتهك حرمتها بنظراتنا.

كانت العجوز تعد القهوة في المطبخ، وأسعدني أنها لم تلاحظ شيئًا من كل ذلك عندما كانت تقول شيئًا لهيلينا من حين لآخر دون أن تنتظر ردا. عندما استقبلَتها، احضتنتها وضمتها إلى صدرها، ثم أمسكت بها على مسافة قبل أن تحتضنها ثانيةً، وكررت ذلك عدة مرات، ولاحظت أنها لا تكف عن الإمساك بذراعها وكأنها تريد التأكد من أنها بالفعل موجودة هنا. بين الجمل المتناثرة التي قالتها لها، كانت تصمت طويلاً، وكانت تكرر في كل مرة اسمها، وعندما فكرت في ذلك لاحقا، تذكرت كيف جلَسَت بجانبها دون حراك في شمس الأصيل، على مقعد مُنتَزع من سيارة، وسط الدجاج الذي انتشر ينقر أرض الفناء باحثًا عن طعام. كانت تبدو كجزء من الطبيعة هنا بوجهها المجعد الذي لوحته الشمس. لم تتأثر بأسئلة باول التي كانت تثير لديها رد الفعل نفسه، والإجابة ذاتها، وكأنها احتاجت إلى أعوام طويلة، والآن وصلت إلى إدراك كنه الأشياء:

„جيد أن الحرب انتهت".

على الأقل كانت هذه ترجمة هيلينا، ولم أكن متأكدًا إذا كانت تعابثه فحسب، وأنها كانت تستمتع كل الاستمتاع برميه بمثل هذه الردود.

„إنها لا تفهم ماذا تريد"، قالت في النهاية وكأنها تريد أن تنهي هذا الحديث السخيف. „يمكنك أن تلح عليها ما شئت، ولن تسمع منها إجابة أخرى".

كان هذا أيضًا من ضمن الأسباب التي جعلتني أشعر بأنني منتزع تمامًا من الزمان عندما تمشينا صامتين في الحقول الواقعة خلف المنزل. كل خطوة على الأرض الهائلة الاتساع اكتسبت ثقلاً لم أحبه. مررنا بحقول الذرة اليابسة رغمًا عنها، وبأشجار التين، وبضعة أشجار لوز، وقليل من الكروم. شعرت فجأة وكأن لا وجود إلا للمكان، اتساع يصل حتى الجبال في الأفق التي تبدو وكأنها معلقة فوق السهول. شعرت - سواء أردت ذلك أم لم أرد - أننا نستولي بمشينا على أراضي الغير؛ وكأن كل حركة مصيرها إلى الجمود، وبينما رحت أنصت إلى صوت الأغنام العالي التي كانت تمضغ بقايا الخبز الملقاة في المذود، صوت أقرب إلى الهشيم والصرير، كان رأسي يستحضر عددًا لا يحصى من الصور: الجار الواقف على العشب لا يفعل شيئًا، أعواد الحشيش التي بدت ثابتة في وجه الريح، الغبار الذي يعلو كل شيء، جدة هيلينا وهي تتكيء في الفجر إلى شباك المطبخ

المفتوح، وكالمتحجرة تصيخ السمع إلى العويل الآتي من بعيد، الذي يبدأ ثم يخرس بعد وهلة، وفي النهاية لا تنطق سوى بكلمتين: „بنات آوى".

لم أتنفس الصعداء إلا بعد ذلك بأيام في سبليت، وفجأة فهمت الحماسة المبالغ فيها للمدينة التي كانت تثير دائمًا سخرية ألماير، لا سيما حماسة زملائه الأمريكيين. بدا لي حكمه قاسيًا، فبعد يومين أو ثلاثة في الأرياف، أو حتى في البوسنة، كان من المفهوم أن يقفوا كالحالمين وهم يروحون ويجيئون بين صفي النخيل على الجانبين، وأن يفقدوا عقلهم بالفعل عندما ينظرون إلى فتيات المنطقة باعتبارهن ربات الجمال، ويتحدثون عن الفردوس، أو بخيال أقل يتحدثون عن كاليفورنيا أو فلوريدا. ليس معنى ذلك أنني أصبحت واحدًا منهم، لكنني رحت أتطلع إلى المياه شاعرًا بأنني ولدت من جديد، واعتبرت لعناته للمكان مُبالغًا فيها، ما قاله مستاءً إن المكان لا يعدو أن يكون محطة بائسة على الطريق، فيه يمتع الجنود أنفسهم مع بنات الهوى، كما كتب ذات مرة، ثم فيما بعد - عندما انتهت الحرب - جعل من المدينة وكرًا خاليًا من الحياة، لكن هذا الوكر ما زال يتوهم أنه يُصدّر إلى نصف العالم لاعبي كرة قدم وملكات جمال.

ولأن هيلينا شعرت بالتعب، استجبت إلى إلحاح باول وسافرت معه إلى براتش، حيث كان يريد زيارة كاتب نمساوي متزوج بكرواتية ويقضي طوال الصيف

على الجزيرة. لم يعطني تفاصيل أكثر عنه إلا بعد أن ركبنا المعدية. نظرت إلى الأمر باعتباره رحلة، ورحت أنظر خلفي إلى المدينة نصف الغائمة بسبب بخار الهواء الذي كانت لا تزال تفوح منه رائحة دخان حرائق الأيام الماضية، وربما لذلك لم أصغ إليه كثيرًا، ولم أتعجب لأنه تواعد كي يلقاه رغم أنه يعتبره دجالاً. جلس بجانبي على إحدى الدكك على سطح المعدية، وقال عنه إنه معروف بزيارته الاستعراضية لدى المسؤولين في مدينة „باله"، ومواقفه غير المدعومة بالحجج في مقالاته عن الحرب، هراء آيديولوجي جعله يدافع عن الغزاة بعد سقوط فوكوفار، على سبيل المثال لا الحصر، أو يقينه الأعمى بأن كل شيء سيتكرر حتمًا مثلما حدث قبل خمسين عامًا، وأنه عندئذٍ سيكون محقًا في تحذيراته الأبدية.

لم أكن قد سمعت عن فالدنر قبل ذلك أبدًا، ولكن عندما حكى عنه أنه ظل طيلة أسابيع يكتب بكل جدية عمودًا حواريًا لإحدى الصحف، ناسبًا الدور الكرواتي لزوجته، بينما تبنى هو بالطبع دور الصربي، استطعت بوضوح تخيل جنونه. ثم قال باول:

„كان بالتأكيد يشعر ببهجة شاذة وهو يستخدم زوجته لقول ما يريد هو. لأنه سيان ما كانت تقوله، في النهاية كان هو المحق دائمًا".

ويُقال إنه جمع ذلك الهراء في كتاب بعنوان:

„سكون المياه تحت الجليد". كنت أفكّر في ذلك الكتاب عندما وصلنا واستقبلتنا زوجته، لأنه كان يقضي مشوارًا في مكان ما على الجزيرة. بعد تبادل التحية سألها باول مباشرة إذا كانت قد عانت من وراء ذلك.

„لقد كان الأمر مجرد لعبة"، أجابت دون أن تتردد لحظة. „لا يمكن لأي إنسان أن يأخذ هذا الكلام مأخذ الجد".

لم تكن نبرات صوتها توحي بالاقتناع، وعندما أفكر في أن عينيها اكتسبتا لونًا داكنًا وهي تقول ذلك، تنتابني قشعريرة، أرى وجهها أمامي، يدهش المرء لشحوبه، ولا سيما أنها موجودة منذ بضعة أسابيع في الجزيرة، خصلات شعرها، عيناها اليقظتان، ثم الغائبتان، واللتان تشعّان خوفًا مقيمًا، ضيقتان ومتقاربتان للغاية. كانت ترتدي شورتًا وبلوزة، كلاهما بلا لون تقريبًا من كثرة الغسيل. عندما أفكر فيها تحضرني أيضًا على الفور صفتان: ممتقعة وشاحبة، مثل ذراعيها وفخذيها. أيضًا الطريقة التي تحدثت بها فيما بعد مع زوجها ذكرتني بشيء حليبي غائم، عادتها في أثناء وجوده أن تبدأ في جملة بصوت خافت لا يُسمع، مع ذلك يواصل صوتها خفوته، ثم تُنهي الجملة بلا صوت، صمتها الذي لم يكن أبدًا انقطاعًا، وإنما كان تراجعًا مستمرًا، وكأن السكون وحده لا يكفي ولذلك تريد أن تنتزع منه شيئًا، بحركات عاجزة من فمها، فم السمكة الذي ينفتح وينغلق في فراغ.

كان البيت مشيدًا وحده على ربوة في اتجاه المدينة، وإنْ كان يطل على البحر. قادتنا إلى طاولة في الهواء الطلق وكانت دائمة التطلع إلى الطريق المتعرج على المنحدر أمامنا، لترى هل وصل أم لا. وقع بصرها على أشجار السرو التي كانت تمتد على قمة المنحدر وأعمدة الكهرباء التي بدت ضائعة على القمة، وعندما كانت تلتفت إلينا ثانيةً وتقول إنه لن يتأخر، لم أعرف ما إذا كانت تأمل ذلك أم تخشاه. ثم عاد إلى نبرات صوتها التعبير السابق نفسه، وقالت إنها تعيش معه هنا بمفردها تمامًا، بكل معنى الكلمة، وإن القرية القريبة من البيت قرية أشباح هجرها معظم ساكنيها منذ الثلاثينات.

أستطيع أن أقسم أن الرعب أطل من عينيها عندما ظهر أخيرًا. لم يجئ من الاتجاه الذي توقعته، وكنت أنا أول من لمحته. عندئذ لفت انتباهي كيف تجمدت نظرتها على السيارة الآخذة في الاقتراب إلى أن توقفت، ورغم أن صوتها خفُت تمامًا، فإن رجاءها كان واضحًا وحاسمًا ألا نورطه في أي حديث شائك.

„منذ الحرب وهو مريض بالقلب"، قالت بنبرة تكاد تكون متوسلة. „أقل انفعال يمكن أن يأخذه إلى القبر".

في تلك الأثناء هبط ومشى في اتجاهنا ببطء، رجل رَبعة ممتلئ، في بداية العقد السادس، متين البنيان وقوي قياسًا إلى عمره، ويسير على نحو يذكرني بمشية حيوان. فتح القميص على اتساعه، ولكنه، ورغم الحر،

كان يرتدي حذاء برقبة وبنطلون جينز. ولكن أكثر ما يلفت النظر كانت قبعته، أحسست على الفور أنه لن يخلعها أبدًا مهمًا حدث، وبالفعل احتفظ بها طيلة الوقت على رأسه. وجهه كان متوردًا، وعلى أنفه تناثرت شعيرات دموية مهترئة، الفجوات الصغيرة تملأ لحيته على الصدغ وشاربه، وعموما فقد أثار لديّ لأول وهلة انطباعًا بأنهم سيكتبون في رثاء شخص مثله أن الموت قد انتزعه فجأة من قلب الحياة، رغم أن الأجل كان في الحقيقة، ومنذ فترة طويلة، أقرب إليه من حبل الوريد.

لم أستلطفه عندما زعق في وجه زوجته قائلاً إن عليها أن تسكب القهوة التي وضعتها أمامنا وتحضر شيئًا محترمًا، وبينما اختفت بلا كلمة واحدة، شرع على الفور في إطلاق نكتة خليعة، أعقبها بضحكة ماجنة عندما عادت ووضعت على الطاولة صينية فوقها زجاجة نبيذ وقطع صغيرة من شحم الخنزير. ما نفرني منه كانت لغته الألمانية التي تنم حينًا عن خنوع وخضوع، وأحيانًا عن تعجرف واضح، وعندما يتحدث معها كانت نبرته تنقلب بين لحظة وأخرى إلى لهجة آمرة. ولأن جزءًا من أحد أسنانه الأمامية مكسور، كان رذاذ لعابه يتناثر عند نطق بعض الحروف. كانت كلماته - عندما يتوجه إليها بالحديث - تبدو وكأنها من هذه الحروف فقط. كان يتحدث بلهجة فيناوية سيئة المزاج، وحتى بعد انصرافنا بوقت طويل بقيت في أذني كلمته المستفزة „معذرة" والتي كان يبدأ بها كل

جملة تقريبًا يوجهها إليها في نبرة تبدو كالاتهام، وبهذه الكلمة كان يخرسها على الفور.

ثمة ثلاث صور له، كان لا بد أن أراها عندما انتهزت أول فرصة سانحة كي أهرب منه وأدخل المنزل، لقطات مؤطرة، حوالي عشرين في ثلاثين سنتيمترًا، معلقة بجانب مدخل دورة المياه مباشرة، وفي كل صورة يظهر إلى جوار أحد المستشارين النمساويين. بقيت واقفًا أمامها أتفرج، رغم أنها لم تحو شيئًا مثيرًا، وجوه الساسة الذين أعرفهم، وهو بشعره الذي يمسي في كل صورة أخف من سابقتها، ولون الجاكيت في كل صورة يزداد وقارًا، وكرافتة مقلمة دومًا. الشيء الوحيد الذي رأيته جديرًا بالملاحظة هو كيف ارتقى السلم المهني خلال تلك السنوات، بدايةً من الصورة الأولى حيث يقف كالخادم وراء سيده بخطوتين، عبر السكرتير الذي يتجاسر على النظر من خلف ظهر رئيسه مشدود القامة، إلى رجل الأعمال الذي يقف على قدم المساواة مع المستشار الذي يضحك ضحكة عريضة كشفت عن أسنانه. كان يحب، وكما عرفت فيما بعد، أن يحكي نادرة عن هذا المستشار الذي فقد طاقم أسنانه ذات مرة في أثناء تصوير تلفزيوني لهما معًا.

أتخيل بكرة فيلم تدور ببطء وتصدر تكتكة، تعرض هذه الصور الثلاث، لا تتغير، وثلاثة أرباع المتر الذي جاهد وكافح طيلة عشر سنوات أو خمس عشرة سنة حتى يقطعه، الطرق المسدودة والملتوية التي تحتم

عليه السير فيها كي يتقدم من الخلفية إلى صدراة المشهد، ثم شعرت بالدهشة عندما سمعت زوجته فجأة من وراء ظهري تقول: „أتريد رؤية المزيد؟”.

كانت قد دخلت الغرفة من دون صوت، ولاحقت نظراتي، وقبل أن أستطيع أن أجيب بشيء وجدت صورة في يدي، رجلان من الخلف، فالدنر يمكن التعرف عليه من جزء من وجهه الذي ظهر جانبيا، ومعه شخص آخر، وبينهما امرأة، وأمام فتحة صدرها الواسعة السمراء يقرعان الأنخاب.

„ربما تهمك هذه الصورة”.

ووضعت سبابتها على رأس الرجل المجهول بشعره الذي غطى قفاه منسدلاً على ياقة القميص، والذي لم يكن المرء يرى شيئًا من وجهه: „هل تعرف من هذا؟”.

هززت رأسي نافيًا.

„هذا هو الجديد”، قالت ونبرتها تشي بشماتة خفيفة. „بالتأكيد التقطوا هذه الصورة بعد أن أدى اليمين الدستورية بقليل”.

ودون أن تعلق بالمزيد أشارت إلى التاريخ على حافة الصورة، بداية العام، ثم نظرت إليّ. لا أستطيع أن أحدد إذا كانت نبرتها اتهامية، لذا انتظرت ما ستعقب به، ولكنها ظلت واقفة وتطلعت إلى الصور المؤطرة المعلقة على الحائط. ووجدت نفسي أضع يدًا على كتفيها لأهدئها، وما كدت ألمسها حتى أمسكت بها

وتشبثت بها برهة طويلة.

ما زلت أتذكر أنني فكرت بمجرد دخولي أن شيئًا قد حدث حتمًا بين الاثنين. رأيت باول يحاول إقناع فالدنر. كان يجلس على حافة المقعد مائلاً للأمام، وإذا لم تخني الذاكرة، كان يقاطعه كلما هم بالرد، رغم أنه كان يصمت بعد كل جملة، ويكاد بذلك يدعوه إلى الكلام. من الواضح أن الحديث دار عن الحرب، وتعجبت من صراحة الاتهامات، وما زلت أراه أمامي، كيف كان يهاجمه ولا يدع له أي فرصة للدفاع عن نفسه.

„أنت أيضًا كتبت عن مذابح قبل أن يسقط أول قتيل"، قال له. „عليك إذن ألا تتعجب من رد الفعل المتوحش لدى أول حادث صغير، لأن الجميع كانوا مقتنعين بأن عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم".

بهذه الجملة كان فالدنر قد وصل إلى حالة لم يعد فيها يستطيع السيطرة على نفسه إلا بجهد جهيد، ورغم أنه حاول المناورة في البداية قائلاً إنه اعتقد أنه يتحدث مع صديق، لكنه في النهاية رد على اتهاماته قائلاً: „لم أفعل سوى ما أستطيع فعله".

„ماذا فعلت؟".

وكرر ما قاله.

„لستَ جادًا فيما تقوله!".

أومأ فحسب، وانفجر باول في ضحكة لم أسمع

شبيها لها من قبل، ضحكة تنم عن عدم تصديق وقلة حيلة في آن واحد.

„قل لنا ما فعلت إذن"، واصل كلامه. „لا تختبئ خلف الكلام المنمق الفارغ وفقاعات الصابون التي تطلقها".

لم يعقب على كلامه. اكتسب وجهه لون حمرة النيران، وارتعشت زاويتا فمه، وراحت نظراته تهيم دون هدف باحثة عن شيء، إلى أن تجمدت وهو يثبتها أمامه في الفراغ، ولم يعد يصدر عنه إلا صوت الشهيق والزفير. بدا مترددًا لا يعرف ماذا يفعل، ولكن عندما صرخت زوجته فجأة، ومدت يدها لتمسك بذراعه، كان قد تناول سكينًا قريبة من السكاكين الموضوعة على الصينية، وغرزها بكل قوته في الطاولة، بينما بدأت زوجته في إبعاد السكاكين الأخرى دون أن ينتبه. ثم راح يصيح بلا توقف: „فاشيون.. فاشيون".

كان موقفًا سخيفًا وخطيرًا في آن واحد. راح ينزلق على كرسيه حتى يصل إلى حافته، وفي اللحظة التالية يرجع إلى الوراء وكأنه لا يستطيع أن يتماسك، وكأنه على وشك أن يهجم على أحدنا.

„اطلعوا بره، وإلا اتصلت بالبوليس".

نظرت إلى باول الذي حملقت عيناه في النصل المهتز أمامه مباشرة دون أن يتحرك. وكأن رعشة السكين نومته مغناطيسيًا، إلى أن نهض بركبتين

رخوتين، ثم وقف مترددًا لحظات، غير أنه لم ينطق بكلمة، وعندما بدأ يتحرك، أحسست أنه يسير على نحو آلي، شادًا قامته لدى كل خطوة ليشتت الأنظار عن عرجه. استغرق الأمر عدة لحظات حتى اختفى عن أنظاره، غير أن فالدنر لم يكن يعيره أي اهتمام على كل حال، وكأنه نسي أمره، والتفت إلى زوجته آمرًا:

„أحضري الأقراص". كان صوته متقطعًا بعض الشيء. „ماذا تنتظرين؟".

لاهثًا حاول أن يستنشق الهواء.

„هل تريدين أن أموت؟".

وبينما شرع هو في إطلاق ضحكة مستهزئة، لم أعرف كيف أتجنّب النظرات اليائسة التي وجهتها إليَ. كانت تقف هناك وترتجف تحت سياط كلامه، وعندما حاولت أن تجيب لم أرَ سوى الحركات المرتبكة الصادرة عن ذراعيها، وكأنها تجدف بهما. عندئذ أسرعت خارجة، وعندما أخذ يصرخ „فاشيون" مرة أخرى، رحت أحملق في المضيق البحري بالأسفل، وشريط المياه الهادئة الذي يفصل هذه الجزيرة عن الجزر المجاورة لها، وحاولت جاهدًا ألا أفكر في شيء.

ما زلت أتذكر جيدًا كيف جلس باول متخشبًا في مكانه عندما وصلت إلى السيارة، ولم يفاجئني السؤال الذي طرحه عليَ فور ركوبي.

„أتعتقد أنه يضربها؟".

كان قد أنزل زجاج شباكه، وراح يصغي إلى الصراخ الآتي من المنزل، ناظرًا إليَ بعيون منكسرة.

„الواحد يتوقع منه أي شيء".

انزلق الكلام مني من دون تفكير، إلا أنه أومأ قائلاً:

„ليس لها أي أحد تعتمد عليه غير نفسها، وهو بإمكانه أن يفعل معها ما يشاء. حتى لو هربت من أمامه صارخةً فلن يسمعها ابن آدم واحد".

واضعًا يديه على عجلة القيادة أرسل النظر برهة إلى الخارج ولم يتكلم، وكأنه يكتشف شيئًا، ثم هز رأسه قائلاً: „خنزير وضيع!".

تعمد أن يترك مسافة بين الكلمتين. ثم واصل قائلاً:

„لا يهمني أن يغرق في شعوره بأنه معصوم عن الخطأ. إنني آخر من يذرف عليه دمعة حزن".

لم أعرف ماذا أقول له. ورغم أنني أحسست فجأة بانقباض في الصدر عندما انتبهت إلى أن الشيش في معظم نوافذ بيوت القرية مغلق، وعندما رأيت الأسقف المتهاوية في بعض الأماكن وأمامها الحدائق الشعثاء، فقد كنت سعيدًا عندما شغل المحرك وانطلق أخيرًا. بالتأكيد كانت الساعة حوالي الرابعة، الشمس الآن فوق الجزيرة المجاورة، وبينما كانت السيارة تتهادى بنا على الطريق الصاعد، رحت أتطلع إليه وهو يشعل سيجارة ويسحب منها أنفاسًا شرهة، ولم أستطع أن أتغلب على

الرعب الذي استولى علي من طول النهار، ولذلك ظل السؤال يطاردني: متى سينتهي أخيرًا؟ وعندما اقترح عليّ أن نذهب للسباحة، لم أستطع التخيل أن البحر لا يبعد سوى كيلومترات، بعد أن اختفى منذ لحظات عن ناظري، وتملكني الشوق لقضاء عدة ساعات على الشاطيء، وكأن هذا شيء بعيد المنال، والشوق إلى صحبة الناس، حتى لو كانوا أولئك الذين كنت أشبعهم سبًا وشتمًا، إلى ثنائيات المحبين في مختلف أطوارهم الذين كانوا في بعض الأحيان يرقدون في الشمس وكأنهم في انتظار يوم البعث والخلود.

لم أكد أتبادل معه كلمة على المعدية. ويبدو أنه لاحظ أنني أريد أن أكون وحدي، فتركني في سلام. جلست هناك دون أن أرسل البصر إلى المياه، وأدركت أن الآوان قد حان للرجوع إلى هامبورج. الانطباعات الأولى عن الجزيرة بدأت تضمحل، وبينما راح هو يقرأ في الدليل السياحي، تشبثت بتشنج بصورة الجزيرة في نهاية الموسم، كيف ستكون مهجورة بعد رحيل آخر المصطافين مع مقدم الخريف، وهبوب العواصف من القارة على الهضاب العجفاء.

في اليومين التاليين عاد للجلوس إلى مكتبه على الشرفة، بينما لازمت أنا هيلينا كظلها. لم أحك لها أي شيء مما حدث لنا، أو رويت لها رؤية مخففة لا ضرر منها حتى لا تتعرف على نفسها في زوجة فالدنر. ولأنها قنعت بما حكيته، اعتقدتُ أنه لم يتحدث معها عن الأمر

أيضًا. نجحت في أن أتجنبه إلى حد أنني لم أعد أخشى ألا يوافق على قيامي معها برحلات، وكان ظهوره في المساء على الشاطئ يلفت انتباهي للغاية، لأنه لم يفعل ذلك في السابق أبدًا، لذا كنت أقول لنفسي إنه لا يجيء سوى ليرى ماذا نفعل.

اقترح عليّ ألا أسافر بالطائرة في موعدي، وأن أسافر معه ومع هيلينا ليلاً إلى سلافونسكي برود حيث اتفق على لقاء سلافكو في ظهر اليوم التالي، وحثتني هيلينا على الموافقة. وهكذا جلست على مقعد السيارة الخلفي كتلميذ، ثم تهورتُ ولمست هيلينا، ومددت يدي إليها من الخلف وضغطت على خصرها. لم تعترض بينما كان الظلام يبتلعنا. لم يتوقف عن العبث بمؤشر الراديو وكأنه لا يستطيع التصديق أن هناك محطة واحدة يمكن استقبالها. عندما كانت تغفو، ثم تفزع فجأة لأنه قاد السيارة بزاوية حادة في أحد المنعطفات، كنت أزيد الضغط عليها حتى أهدئ من روعها، وكنت أشاهدها وهي تستطلع بعينيها إلى أن يظهر في الشعاع المخروطي للكشاف منزلٌ على حافة الطريق، وفي اللحظة الأخيرة يتبين أنه عبارة عن كومة من الأنقاض، أو عندما نكتشف سكانًا يقطنون كالأشباح وسط الأطلال. مع طلوع الفجر سلمني عجلة القيادة، ولأن النوم تغلب عليه، كنا - هيلينا وأنا - وحدنا تقريبًا على الطريق السريع المستقيم الذي يمتد ناحية الشرق، دون أي سيارات أخرى، وعلى اليمين واليسار تنهض مضخات

البترول تجاه السماء المسامية، الحقول المتسعة المزروعة بآلاف من أزهار عباد الشمس التي كادت تموت عطشًا، أسلاك الكهرباء وعليها عدد لا يحصى من الطيور، واسم مدينة ليبوفاتس، رغم قربها، مكتوب على كل اللافتات كوعد متكرر بالوصول إلى أبعد مكان، مكان مقفر على الحدود مع صربيا، نهاية العالم، وبعده يبدأ اللاشيء المُرتَقب بتشوق منذ أن اختفت بلجراد من الوجود، على ما يبدو على الأقل.

وصلنا مبكرًا جدًا، للوهلة الأولى بدت المدينة ناعسة بمنازلها المنكمشة على ذاتها، والممتدة على طول الطريق المؤدي للمدينة، ومباني الإمبراطورية في وسط المدينة التي تفتح على ميدان يطل على نهر السافه الذي يصنع انعطافة في تلك المنطقة، ثم يتلاشى في كلا الاتجاهين عبر الأشجار الكثيفة. هكذا انساب النهر في خمول. كانت الضفة الأخرى من النهر بتجمعاتها السكنية التي تعلو الشجيرات تقع في البوسنة، وبعدها باتجاه التيار يعبر جسر فوق المياه، جسر من الحديد الصلب وكأنه بُني في بدايات عصر السكك الحديدية، وفوق الجسر كانت تتكدس الشاحنات ليلاً ونهارًا طوال فترة إقامتنا هناك، وكانت الرياح تهب علينا في بعض الأحيان حاملةً هدير المحركات. لم يكن ثمة إنسان على ضفة النهر في هذه الساعة، المسبح كان مهجورًا، وخلفه - أمام الأكواخ التي كانت تبدو من بعيد كأنها عوامات على صفحة المياه - كان يقع الاستاد، كما عرفنا فيما

بعد، الذي كتب ألماير عنه أنه كان مكدسًا باللاجئين الذين كانوا يتعرضون للقصف بالقنابل من الضفة الأخرى للنهر.

ورغم أن المنظر الخارجي لم يكن يفتح الشهية، فقد نزلنا في فندق „بارك" الواقع على النهاية الأخرى من الساحة، على بعد حوالي مائتين أو ثلاثمائة متر من النهر الذي تطل واجهته عليه. آثار الطلقات على الواجهة ما زالت واضحة. عند دخولنا سألتنا موظفة الاستقبال من أين أتينا، ثم قالت وهي تهز رأسها، لو كنا أخذنا هذا الطريق في أثناء الحرب لمررنا على ست جبهات قتال. كان فندقًا مُهمَلاً، وقد بدأ انحداره بلا شك قبل مجيء أول مجموعات اللاجئين وإيوائهم ثم إجلائهم، الرجال الذين كانوا ما زالوا يتكئون على البار في هذه الساعة المبكرة ويتفرجون علينا، دون أن يحولوا أبصارهم عن شاشة التلفزيون الوامضة، لم يثيروا لدي شعورًا بالثقة. كان يبدو أن لا أحد ينتظر نزلاء مثلنا، وهكذا بقينا أيضًا وحدنا في أثناء الإفطار في صالة الاجتماعات الضخمة نصف الدائرية، وهو المكان الوحيد الفخم في الفندق بموائده ومقاعده المصفوفة على خط مستقيم صارم، والستائر الليلكية اللون التي تصل إلى الأرض أمام النوافذ، ومنبر المتحدثين وبجانبه إكليل زهور ضخم، وكأن سكرتير الحزب قد يظهر في أي لحظة ممثلاً للدولة وداعيًا إلى الإخاء والوحدة. ولكن المكان لم يشهد طيلة الشهور الأخيرة إلا حفلة طلبة الثانوية

العامة، عشاء لآباء الجنود الذين لقوا مصرعهم في الحرب دفاعًا عن الوطن، كما قرأنا على إحدى الدعوات التي نسوها هناك، وعرض مسرحيةLipa Smrt - أي „الموت الجميل" - لفرقة تسمي نفسهاHrvatski Emigranti ، وقبلها بأسبوع - في تعاقب منطقي برأيي - مسابقة انتخاب ملكة جمال سلافونسكي برود، حيث ما زالت هناك صور من المسابقة معلقة على الجدران، صور فتيات بشعر داكن، يبدون للوهلة الأولى وكأنهن خمسة أو ستة توائم من بويضة واحدة، بلباس البحر، والفائزة متلفحة بوشاح عليه رقعة الشطرنج المعهودة، وعلى رأسها تاج فضي بدا مثل عنكبوت ضخم جاثم على شعرها.

كانت „ميس سلافونسكي برود" هي أيضًا أول شخص يتحدث عنه سلافكو عندما قابلناه بعد ساعتين، لأنه هو الذي نظم بنفسه هذا العام المسابقة التي لم تقم لأول مرة منذ سنوات على جزيرة هفار. قابلنا في „جرادسكا كافانا"، حيث تعمل في ذلك المقهى الواقع على أطراف المدينة مقابل النهر مباشرة، أما موائده فقد وضعت في الساحة. على ما يبدو أراد أن يبين لنا أنها صنيع يده، وبينما كانت تقدم لنا المشروبات تطلع إلينا، وكأن علينا أن نبدي إعجابنا على الفور، ثم طلب منها أن تجلس معنا عدة دقائق، ووضع يده على فخذها ولم يرفعها. كانت في السادسة عشرة أو السابعة عشرة على أقصى تقدير، وبينما كانت تجلس هناك في فستانها

الرقيق، الشفاف تقريبًا، واضعةً ساقًا فوق الأخرى، ومشبكةً يديها، بدا أنها تبذل جهدًا كي تبقي عينيها مفتوحتين، ودون سيطرة منها كان رأسها يسقط في بعض الأحيان إلى الخلف، ولم يصدر عنها رد فعل إلا عندما كان يناديها بـ"برنسيسا"، ولكنها لم تكن في المعتاد تنطق بأكثر من: da, keptn, da أو ne, keptn, ne.

لم يستغرق الأمر طويلاً حتى أشار سلافكو إلى النهر قائلاً إنها من الناحية الأخرى، ليحكي عندئذٍ أنها فقدت خلال الحرب عائلتها كلها، ومنذ ذلك الحين لم تذهب إلى هناك أبدًا.

„في بيت والديها يعيش منذ فترة صرب من كنين".

انتظر هنيهة ونظر إليها، وكأنه - بحديثه شخصيًا عما جرى لها - يريد أن يخفف عنها، غير أنها ظلت تصوب نظرها على أظافر أصابعها لازمةً الصمت.

„لا تحب الحديث عن ذلك"، واصلَ في النهاية، وبدا عليه الارتياح. „لا ينطلق لسانها بالكلام إلا إذا شربت".

عندئذٍ التفت إليها ضاحكًا.

„صحيح؟".

لم تقل شيئًا، فعلا صوته.

„لقد سألتك سؤالاً".

وسواء فهمت ما قاله بالألمانية أم لا، فقد أومأت

برأسها، وبذلك سُمح لها بالانصراف. وإذا كنت قد تعجبت آنذاك من تلك الفجائية، فإنني أدرك الآن أنه كان يستخدم مصيرها كنوع من التأكيد لمصيره هو، وأن الأمر كان يعنيه عندما تحدث عنها هكذا. أيًا كان الدور الذي لعبه في أثناء الحرب، فقد كان عليها أن تعطيه الحق، قلت لنفسي؛على شبابها، أو جمالها، أن يجعله مدافعًا عنها، لا سيما عندما كانت لا تزال طفلة. كانت قد ابتعدت عنا عندما ادّعى أنها ستلقي قنبلة يدوية لو تركوها تعود إلى بيتها، وما زلت أتذكر كيف ظل يلاحقها ببصره، وأتذكر بريق عينيه عندما تتبع كل خطوة من خطواتها دون أن يلاحظ أنه ظل يفرك يديه طوال الوقت.

أن أقارنه بفالدنر - كما خطر على بالي على الفور - كان أبسط من اللازم، ورغم ذلك لم أستطع أن أطرد هذه المقارنة من رأسي. ربما يرجع ذلك إلى طريقته التي جلعتني أفكر في التشابه بين كليهما، الحيوية، هكذا قلت لنفسي لعجزي عن أن أجد كلمة أخرى مناسبة أكثر، ولكن لم يكن هذا وحده هو السبب. كان يشبهه بقامته الممتلئة، المشية نفسها، طريقة الجلوس المتربصة ذاتها، المستعدة - كما بدا لي - للانقضاض على الجالس مقابله؛ ولكن ليس هذا ما أعنيه، ربما أقصد بالأحرى البريق الذي ينبعث من رجل أعمال ليس جادًا تمامًا، نصاب من عُتاة النصابين.

على كل حال، كان يضع نظارة شمس أمام عينيه،

ويرتدي قميصًا أبيض وبنطلونًا أسود مغسولاً لتوه ومكويًا بعناية فائقة. شعره القصير مدهون ولامع، لذلك لا بد من أنها كانت مجرد حيلة عندما كان من حين لآخر يتأكد بكلتا يديه إذا كانت تسريحة شعره في مكانها، بل وفي بعض الأحيان كانت يداه تظل للحظات فوق شعره وكأنه تحت سشوار، رافعًا رأسه إلى أعلى قليلاً دون أن ينظر إلى أحد في أثناء الحديث. عندئذٍ علا صوته أكثر من المعتاد، وبدا معجبًا بذاته وهو يلقي الأسئلة التي كان يجيب عنها بنفسه، وهو شيء ليس صعبًا عليه بالتأكيد بصفته „مقدم برامج تسلية"، كما هو مكتوب على بطاقته.

هذا هو إذن، الرجل الذي لم أكن أعرفه إلا من صورة التقطت له مع بندقيته، وكأنه ينوب عن أهل مهنة محترمة مع آلته المهمة، الوجه مغطى بدخان سيجارته، وعندما سأله باول ما إذا كان يتذكر ألماير، حدجه بنظرة وكأن سؤاله إهانة له.

„سمعت ما حدث له"، قال بعد برهة. „لقد فقدت أشخاصًا كثيرين. لقد كان بالنسبة لي واحدًا منا".

كان قد اشتغل سنوات عديدة في دسلدورف، لذا كان يتحدث ألمانية معقولة، ولم يتكلم بالكروايتة إلا إذا كان شيئًا غير واضح، عندئذ كانت تتولى هيلينا الترجمة. إذن سوء التفاهم كان شبه مستبعد.

„واحدًا منكم؟"

حاول باول أن يزعزع هدوءه المفتعل، لكن مناورته كانت مكشوفة للغاية، لذلك لم يخرج عن هدوئه.

„كان من الممكن أن يكون واحدًا منا".

كرر هذه الجملة كي يتجاهل ببساطة كل الأسئلة حول ما يقصده بذلك، ثم راح يحكي كيف ظهر ألماير آنذاك على الجبهة:

„لم أصدق عيني عندما أتى إلينا من ناحية الحقول. وعلى الفور كان واضحًا بالنسبة لي أن المجنون فقط هو من يضل طريقه ويجيء إلى منطقتنا".

وكأنه كان يلوك عبارة مستهلكة فارغة المعنى، وعندما أضاف أنه كان على ألماير أن يجيء مع مترجمه عن طريق المجر، لأن الطريق لم يعد مفتوحًا بين زغرب وموقعه بالقرب من فينكوفيتشي، اتضح لي عندئذٍ أن الأمر لم يكن مجرد عبارة فارغة. حاول أن يصفه، ولم أكن متأكدًا تمامًا، هل يتذكره بالفعل، أم أنه يتصيد النوادر عندما قال إنه ما زال يراه أمام عينيه مرتديًا الصدرية الجديدة تمامًا، الواقية من الرصاص، والثقيلة لدرجة أنها تجبر ثورًا على الركوع، وأنهم جربوها ضاحكين الواحد إثر الآخر، وسألوه إذا كان يريد بهذه الصدرية أن يعيش إلى الأبد، أم أنه يرتديها على سبيل الزهد والتقشف، أم أنها حزام عفة، لكنه يرتديه بالمقلوب. على حين غرة اكتسب كلامه ملمحًا وحشيًا وهو يتحدث عنه، واصفًا إياه بأنه شخص „عظمه

طري"، كان يريد أن يعرف كيف يقتل الإنسان شخصًا، وكأنه نسي ما قاله عنه لتوه، وفي النهاية لم أصدق أذني عندما تفوق على نفسه قائلاً: „على الأقل يعرف الآن كيف يموت الإنسان".

للحظة خيم الصمت التام، ولم تنقذ الموقف محاولة باول الادّعاء بأنه يريد أن يتحدث معه عن ذلك.

„ولكن بإمكانك حتمًا الرد على سؤاله".

لم يعقب سوى بضحكة.

„ماذا تريد أن تسمع مني؟".

كان من الواضح أن الموقف يرضي غروره، أن يُسأل عن رأيه كمتخصص يشعر بالسعادة عندما يعترف الآخرون له بالمهارة والخبرة.

„لا أستطيع أن أقول لك إلا ما قلته له أيضًا"، واصل أخيرًا كلامه. „يمكنك أن تفكر في الأمر، مثله، حتى يصيبك الصداع، ولكن طالما أنك لم تجرب بنفسك، فسيبقى كل شيء مجرد كلام".

نزع نظارته الشمسية، فرأيت لأول مرة عينيه اللتين لم تتناسبا مع مظهره العام، عينين زائغتين، عصبيتين، زرقتهما شاحبة، وتلمع فيهما الدموع. على منبت الأنف شامة راح يتحسسها كأنها دمل، وكلما استدار برأسه يمينًا ويسارًا كنت أتوقع أن يشم تحت إبطيه حيث ظهرت بقعتان كبيرتان من العرق، إلا أنه كان يتلفت حوله فحسب وكأنه يبحث عن شخص ما. قرّب يديه

إلى بعضهما إلى أن تلامست أطراف الأصابع الممدودة، ثم ترك هنيهات تمضي قبل أن يتجه فجأة إليّ ويسألني عما إذا كنت أعرف كيف كانوا فيما مضى يطفئون الشموع في هيكل الكنيسة، وقبل أن أستطيع الإجابة كان قد أجاب قائلاً:

„بنفخة وديعة من ماسورة رفيعة طويلة".

ونفخ في الهواء كأنه أراد أن يستعرض ذلك.

„ليس أكثر من ذلك".

التشبيه الكنسي الذي استخدمه جعل كلامه أكثر إثارةً للتقزز مما هو بالفعل، ولا أعرف لماذا لم أنهض وأنصرف، لماذا أصغيت إليه، لماذا تحملت أصلاً نظراته الشامتة عندما واصل قائلاً إن السفلة على الجانب الآخر كانت لهم بالطبع طرقهم الخاصة.

„كانوا يفضلون التنشين على الركبة"، أضاف من غير أن يسأله أحد عن ذلك. „عندئذ كانوا يخرجون صائحين من خنادقهم وينهالون بالسكاكين على رقبة الضحية".

كنت أعرف أنه تقاضى أجرًا لقاء الحديث، وربما لذلك راح يسلك على هذا النحو، وربما كانت هذه طريقته لتقديم شيء مقابل المال، أو ربما أن هذا هو ما يقوله دومًا للصحفيين الأجانب، النسخة التي يقدمها لأحد لوردات الحرب، لا سيما أنه يصف نفسه بكلمة specijalista، وعندما سئل ماذا تعني الكلمة، اغتصب

ابتسامة متعالمة، متطلعًا إلينا الواحد تلو الآخر بنظراته القلقة. صعُب عليّ أن أحدد: هل كان يمثل ذاته فحسب حتى نرضى، أم يمثل دور الشرير لأننا - في رأيه - نتخيله هكذا؟ ولكن سلوكه كان غير متقن، عندما أفرغ كأس العرق في جوفه بطريقة استفزازية، أو عندما أخرج تليفونه بعد أول رنة من جيب الصدر وكأنه يخرج مسدسًا، ثم فح ببضع كلمات مرتبكًا، ناهيك عما فعله بمجموعة من الصبية الذين مروا بنا وأحدثوا صخبًا، فقبض على مَن وقع في يده، وحذره متهكمًا أن يحترس عندما يقترب منا، وإلا سيجد نفسه مُرحلاً إلى لاهاي. كان واضحًا أنه يستمتع بوجوده معنا، لكنني لم أكن في حالة تسمح لي بالضحك، وعندما أخرج بعد كل ذلك صورة له ولفرقته آنذاك وعرضها علينا - وكأنه يعرض علينا صورة التقطت له في الكرنفال، كيف وقفوا متحلقين حول دبابة بدت ماسورتها وكأنها ستخترق الصورة، أمام عين الرائي مباشرة - فقد أحسست بالاختناق من وقاحته وصفاقته.

كان في صدر الصورة، معتمرًا كاسكيت أهل الباسك، الوحيد الذي لا يرتدي قناعًا، نظرته مستقيمة مفعمة بفخر واضح، نظرة غير مهزوزة كما لاحظت من قبل، أما المرتدون الزي العسكري وراءه فقد وضع كل منهم جوربًا على وجهه، وأتذكر كيف توقف بغتةً عن ممازحاته عندما تحدث عنهم. ورغم صعوبة التفرقة بينهم، راح يشير إلى كل واحد ذاكرًا اسمه، وكادت رقته

في أثناء ذلك تقترب من الشذوذ، ما زلت أرى المنظر أمام عيني، كيف تحدث إليهم، وكأن عليه أن ينادي الواحد بعد الآخر، كما كان يفعل في أثناء الحرب، الفارق أنه فعل ذلك الآن هامسًا، وكأنهم سيجيبون بصوت غير مسموع. إذا كان ثمة شيء غير مزيف فيه، فهو تأثره الذي انقبض له صدري آنذاك والآن أيضًا عندما أفكر في ضعف صوته وهشاشته لما حكي عن مصيرهم، تعداده لهم بدا وكأنه خبر يُتلى من سلطة عليا، تحتم عليه أن يقدم أمامها كشف حساب، اثنان قُتلوا، اثنان تزوجا، وكأن الموت كالزواج، اثنان يعملان ضمن فرقة مرتزقة في مكان ما في أفريقيا، واحد مريض في رأسه، على حد تعبيره، وواحد عاد إلى كندا، حيث كان يعيش قبل أن يأتي خصيصًا لينضم إليهم للقتال. هكذا كما صور الأمر، كانت الخسائر كبيرة، وما زلت أتذكر كيف اشتكى قائلاً: هذا ما جنيناه من وراء إنجاز العمل القذر، عندما أطعنا وقبلنا أن يرسلونا إلى أماكن تافهة ليست لها قيمة. ثم أعاد الصورة وصمت، كتلة من البؤس ترثى لحالها، إلى أن سأله باول عما إذا كان ذهب مع فرقته إلى كوسوفو أيضًا.

„وماذا كنا سنفعل هناك؟".

هكذا أجاب قبل أن يفهم ما وراء السؤال، ثم توقف بغتةً لينفي كل شك عن نفسه.

„هل تقصد فعلاً أن لنا علاقة بما حدث هناك؟".

اعتقدت أن باول سيقول „نعم“، إلا أنه لم يعطه فرصة وواصل كلامه واصفًا ألماير بالصديق، وحاول أن يستظرف: „أنت ربما تعرف أنني رأيته آخر مرة على جزيرة هفار. ولكن صدقني، لقد تصرف وكأننا لا نعرف بعضنا على الإطلاق“.

كلامه يتعارض مع ما ادعته إيزابيلا، غير أنه أصر على أنه خاطبه، لكنه لم يجن منه سوى الإعراض. ثم واصل قائلاً:

„كان هناك مع امرأة، تصرف وكأننا لم نلتقِ ولم نتحدث أبدًا على الجبهة. ربما لم أكن أليق بمستواه، ولهذا لم يقدمني للسيدة“.

لم أعرف: هل أصدقه؟ ولكنني من ناحية أخرى لم أجد سببًا يحمله على أن يكذب علينا، وأن يتظاهر بأنه لم يتحدث معه إذا كان في الحقيقة قد تكلم معه. ليس ثمة دافع لذلك، قلت لنفسي، ورغم أن الأمر كان بلا شك له علاقة بالنساء، إذا كان ضبطه بالفعل في أثناء نزوة غرامية كان يفضل ألماير أن تظل في الخفاء، ولذلك عامله بجفاف. من ناحية أخرى لا يستطيع أحد أن يدّعي أن الإنسان يحب أن يلتقي شخصًا مثل سلافكو مرة أخرى، وعندما أتصور كيف سار في اتجاهه، بشعره الدهني اللامع، وكأس في يده، مثل غندور متأنق، يعرف المرء بمجرد رؤيته من بعيد أنه جندي متقاعد، قضى سنوات في الدفاع عن الوطن ثم عُزل من

الخدمة، فإنني لا أستغرب أن يكون قد أنكر معرفته.

لم نستطع استدارجه ليقول أكثر من ذلك. ولم يعد يبدو أنه يريد أن يتحدث عن ألماير على وجه العموم. تجاهل أسئلة باول حول الرصاص في أثناء عملية تبادل الأسرى، ولم يقل سوى إن ذلك كان أمرًا عاديًا تمامًا على الجبهة.

„إذا كنتم تريدون أن تستنتجوا شيئًا آخر، فأنتم أحرار“، قال بعد برهة. „أطلقوا لخيالكم العنان كما تشاءون“.

ألقى نظرة على الساعة وقال إن الوقت المتفق عليه قد مر، ومقابل كل كلمة أخرى لا بد من أن يأخذ حسابًا إضافيًا، ولكنه في الواقع ليس لديه ما يضيفه. وضع النظارة الشمسية مرة أخرى أمام عينيه، ثم أمال كرسيه إلى الوراء وشبك يديه خلف رأسه، ولم يكن في مظهره يختلف شيئًا عن الشباب الذين كانوا يجلسون إلى المائدة المجاورة ويرسلون البصر إلى النهر. إذا لم يعرف الإنسان هويته، فإنه قد يعتبره أي شيء وأي شخص: رجل أعمال مرهق في أثناء استراحة الغداء، مندوب مبيعات أتى إلى المدينة ليوم واحد، أو النسخة البلقانية من دون جوان الباحث عن عشيقة. وعندما سلم علينا في النهاية وودعنا، اختفى على الفور بين الناس الذين ملأوا الساحة الآن، بين حركة الرائحين والغادين في سرعة إلى هدفهم، أو المتمهلين الذين يظهرون ثم

يختفون كما ظهروا فجأة، أعداد من البشر، لكل منهم - كما يقولون - سيرة ذاتية، وحياة تخصه وحده، كل منهم يتخيل أنه لن يموت الآن، ولكل منهم موت يختلف عن الآخر.

ما زلت أتذكر أنه في أثناء النهوض راح يحذرنا من ألا ننخدع من الهدوء ومظاهر السلام، فالحرب البوسنية بدأت هنا وليس في سراييفو كما يعتقد الجميع. ثم ذكر أهمية المكان الاستراتيجية، الممر - إذا كنت أتذكر كلماته بحرفها - الذي يضمن طريقًا مباشرًا بين بلجراد وكراييناء، ومعامل التكرير على الجانب الآخر، إلى أن وقف بغتة بعد أن لاحظ هو نفسه أن كل كلمة إضافية لن تزيد الموقف إلا عبثية. أشار إلى الجسر الواقع خلفي، حيث كانت طوابير من الشاحنات تتحرك بسرعة السلحفاة، وكان آخر ما سمعته منه أن هذا الجسر كان في النهاية الوصلة الوحيدة بين ضفتي السافه التي بقيت من غير تدمير ولم تقع في أيدي الصرب.

كنت لا أزال أفكر في كلامه عندما تمشيت بعد ساعات وحدي على الطريق الموازي لضفة النهر، على امتداد صفوف شجر الكستناء، وكل بضع خطوات أجد تحت شجرة بائع „فيشار“ أمام طاولة البيع الصغيرة جدًا. كنا قبل الغروب بقليل، الشمس قرص مسطح، أجواء المساء كادت تكون أسطورية؛ من بعيد تبدو المياه وكأنها لا تتحرك، أشباح السابحين الذين كانوا يتحركون قرب الشاطئ في الأماكن الضحلة من النهر،

وكان يكفي أن أفكر في أن الأيام آنذاك كانت شبيهة بهذا النهار، في الربيع والصيف، وعلى الفور ينتابني دوار اللاواقع. عندئذ تطلعت إلى البريق الذي لمع على الضفة الأخرى، السماء التي شرعت أضواؤها تخفت هناك ببطء، وحاولت التخيل كيف كان الأمر في تلك الأيام، تيار اللاجئين في الأسابيع والشهور التي سبقت إغلاق الجسر أمام العابرين، لم يُسمح سوى للنساء والأطفال بالعبور، بينما أجبر الرجال على البقاء على الناحية الأخرى كي يكافحوا، اليائسون الذين حاولوا الهروب سباحةً ولكنهم لقوا مصرعهم غرقًا على نحو يبعث على الحزن والرثاء.

على بعد أقل من مائة كيلومتر، عند مصب الأونا، كان يقع يازينوفاتس، أكبر معسكر اعتقال لأنصار حركة الأوستاشا في الحرب العالمية الثانية، حيث قُتل عشرات، بل مئات الآلاف منهم، أغلبيتهم من الصرب، وأتذكر أن ألماير كتب في إحدى مقالاته بشعور تام من العجز أنه لم يستطع تحمل لامبالاة الطبيعة هناك عندما زار المكان. على حين غرة تراءى أمام عيني وصفه للمتنزه النهري هناك، الخمول في أثناء قيظ الصيف، ومن بعيد يبدو النصب التذكاري، التمثال الخرساني المنهار، الذي يشبه زهرة أوركيديا ضخمة تسمو بهامتها شاكيةً للسماء، والقطار الذي كان يقف على السد، ضائعًا بين المروج، القاطرة وخلفها خمس عربات لنقل المواشي، والقضبان التي تمتد نحو اللاشيء. حسبما

زعموا نُهب المتحف ودُمر تدميرًا تامًا، قام بذلك على الأرجح أعضاء الميليشيات الكرواتية الذين أقاموا ثكنتهم العسكرية هناك قبل أن يتم طردهم. حاولت أن أتخيله يسير عبر صالات العرض، والجدران ملطخة بالبراز، الكتب والصور ممزقة، ولم تعد ثمة نافذة سليمة تمامًا. حدث ذلك بطريقة منهجية، كل شيء فقد معالمه وهويته، ورحت أفكر كيف كان يصحح نفسه بنفسه عندما يرى صورة عليها وجه يتعرف عليه، أو إذا كان ثمة اسم يمكن قراءته، كيف فكر في اللحظة الأولى أنهم نجوا من الحرب، ثم يقول لنفسه إن هذا لا يعني شيئًا، إن السواد الأعظم منهم قضى نحبه تمامًا مثل الآخرين الذين لم يتركوا أي أثر. ما تبقى في النهاية كانت رسومات الأطفال التي تناثرت في كل مكان، وعليها أشكال مكدسة في خوف خلف الأسلاك الشائكة، مرسومة بألوان مائية باهتة، أبراج الحراسة وأسوار مصنع الطوب التي لونتها أيادي التلاميذ، وكذا الحكاية التي تدمي القلوب وتثير الرعب في آن، حكاية ميلان كوفوتشيفيتش، وهي حكاية - وكما يتضح على الفور لدى قراءتها - لا يمكن أن يكون قد اختلقها.

استدرت ورحت أسير ضد التيار في اتجاه الجسر، مارًا بالقلعة النمساوية التي كادت تغطيها النباتات والأعشاب، وعندئذٍ لفتت انتباهي سيرة هذا الرجل مرة أخرى بكل المعلومات المرعبة التي أعرفها عنه: ولد في ياسنوفاتس طفلاً لسجين، ثم بعد ذلك بخمسين عامًا،

وغير بعيد عن هناك، أصبح هو نفسه قائدًا عسكريًا في البوسنة، في منطقة بريدور، مسؤولاً عن المعسكرات في أومارسكا وكيراتيرم وترنوبوليه، تلك الأماكن التي لن تغفلها في المستقبل أي خريطة للفظائع والجرائم التي يرتكبها البشر في كل مكان. كان من العبث أن أحاول مجرد محاولة تخيل الصبي الذي ارتعب رعبًا مميتًا لم يفارقه منذ ذلك اليوم، الصبي المختبئ الآن داخل الرجل ذي المئة كيلوجرام الذي كان يفضل استقبال الزوار الأجانب - حسبما يُروى - مرتديًا الـ"تي شيرت" ذي الألوان المموهة وعليه مكتوب U.S. Marines ، ورغم ذلك لم أستطع أن أطرده من رأسي، عندما عبرت النهر وسرت على الجانب الآخر. Welcome to Republic Srpska ، هكذا كان مكتوبًا على لافتة على الحدود باللغة الإنجليزية وبجانبها جملة بالحروف الكيرلسية، إذن اسم المدينة الآن "صربسكي برود"، وليس كما هو مكتوب في الأطلس وخرائط الطرق "بوسانسكي برود"، وكما كانت المدينة التوأم لسلافونسكي برود تُدعى حتى الآن، وبالنسبة لي فقد رأيت في تغيير الأسماء، ومحو الصفة البوسنية والتأكيد على الصفة الصربية، تعبيرًا عن الرغبة في الثأر ورد الاعتبار، ووددت لو عدت على الفور من حيث أتيت.

وبالفعل، لم أظل مدة طويلة هناك. تسكعت قليلاً في السوق، وهي منطقة من الأكشاك الخشبية

العشوائية التي أقيمت على النهر مباشرة، ثم انطلقت من جديد. في أثناء عودتي على الجسر كان معي هناك عدد غفير من الناس الذين عبروا الضفة للتسوق، وفي كلتا اليدين يحملون أكياسًا بها كل ما يمكن تخيله، كثيرون كانوا يحملون أيضًا خراطيش السجائر، وزجاجات تسع لترين من المشروبات الغازية ذات الألوان الصارخة. ساد التزاحم الشديد على الجسر، ما زال المرور في اتجاه كرواتيا يسير ببطء، صفير مزعج يصدر عن الهيكل الفولاذي للجسر الذي يتلقى الرياح، وشعرت بالبهجة عندما وصلت الفندق أخيرًا، حتى وإن أوقفتني موظفة الاستقبال هناك بمجرد أن حكيت لها أين كنت، ثم ورطتني في محادثة.

"أنا لا أفهم أولئك الأوغاد"، قالت مستنكرةً. "عندما أفكر في سرعة نسيانهم لما شاركوا في ارتكابه، فإنني أتساءل لماذا كان كل ما حدث".

رغم أنني خمنت ما قصدت، فقد فوجئت بوضوح رأيها الذي خرج من فمها بالأحرى كتنهيدة.

"قبل سنوات قليلة كانوا يتصرفون وكأن من المستحيل أن يعيشوا معًا تحت أي ظرف من الظروف، وفجأة باتوا يتبادلون التجارة ويساومون حول كل مليم".

لم أفهم ما العيب في ذلك.

"هذه بداية جديدة".

قهقهت متسائلة: "لأي شيء؟".

"لا أعرف"، قلت لها نادمًا على تورطي في الكلام. "ولكن ربما يكون أي شيء أفضل من لا شيء".

أخذت تنظر إليّ، غير أني لم أبادلها النظر، وتطلعت إلى العلم الشبيه برقعة الشطرنج خلفها والذي لفت نظري الآن لأول مرة، وانتظرت. بعد أن راحت تقلب في دفتر الزوار الضخم، وأغلقته دون أن تحول بصرها عني، ولم يفارقني الانطباع بأنها تعطيني وقتًا كي أصحح رأيي، أو أن أضيف بضع كلمات تسهل عليها الإجابة. عندئذ شرعت تقول شيئًا، ولكنها في اللحظة الأخيرة قررت أن تومئ فحسب، وتتمنى لي أمسية طيبة، وقبل أن أسألها عن الخطأ الذي ارتكبته، كانت قد أنهت الحديث.

بعد ساعتين كنت أجلس مع هيلينا وباول على العشاء، ولا أعرف إذا ما كانا قد اتفقا على عدم التحدث عن سلافكو، أم أن تجنب ذكرِه كان مجرد مصادفة، عموماً كانا يتطلعان إليّ في كل مرة أتحدث عنه، على نحو يكاد يقول إنهما لا يريدان أن يتذكراه. كانا قد ناما طيلة العصر، وعلى كل حال لم يتكلما كثيرًا، غير أنني لم أفهم أبدا هدفهما من التصرف وكأننا لم نقابله. ربما ينبع سوء التفاهم من صفة "كابوسي" التي حاولا من خلالها أن يصفا لقاءه، قلت لنفسي، فهما ينظران إلى المقابلة على أنها شيء غير حقيقي، وهمي، بينما

أعتبرها أنا العكس تمامًا، وأنني أفضل الصمت عن أن أعتبر كلامه مجرد هذيان.

وأتذكر أيضًا أن هيلينا سألته إذا كان يشعر بالسعادة، غير أنها تجاهلت ذلك الآن تمامًا. كان سؤالاً ساذجًا وصبيانيًا. تطلع إليها وضحك مكررًا الكلمة كأنها شيء داعر، والآن فحسب اتضح لي الاتهام الذي تخفى وراء سؤالها الهجومي، وعدم جدوى السؤال، وعبثية الحكم بالبراءة، سيان من أي شيء، لو كان رد بالإيجاب. بالطبع لم تواجهه بذلك إلا لأنها لا يمكن أن تتخيل أن يكون سعيدًا، وربما لذلك جاء رد فعلها دفاعيًا عندما سألتها عن موقفها لو كان بالفعل سعيدًا، إذا كان هذا سيعني أي شيء بالنسبة لها، أو كان سيغير مما فعله أو لم يفعله؟

"ما تتوهمه في رأسك ليس في رأيي إلا هراءً"، قالت عندئذٍ. "على كل حال، بالنسبة له تسري قوانين أخرى".

ذُهشت من ردها لدرجة أنني أصبت بالخرس.

"لو أن الأشياء بهذه البساطة". كانت هذه الجملة هي كل ما استطاعت في النهاية قوله، قبل أن تضيف جملةً قطعت الشك باليقين قطعًا نهائيًا وحاسمًا: "إما أن تكون إنسانًا، أو لا تكون".

وبهذه الجملة انتهى الحديث. ذهبت للنوم مبكرًا، ولكنني استيقظت مبكرًا على صيحات طيور النورس

التي تجمعت في الفناء وراحت تتنازع حول شيء بين صناديق المشروبات التي رُصت فوق بعضها حتى وصلت إلى الطابق الأول. نوافذ الممر كانت مفتوحة، والريح تتلاعب بالستائر، ولكن عندما اتكأت على النافذة لألقي نظرة إلى الخارج لم أستطع تبين سبب صياح الطيور. ورغم أن النهار طلع، كان القمر ما زال في السماء، في ثلاثة أرباع حجمه المكتمل، وبدا لي وكأنه منعكس على الجسر، في اتجاه التيار، هناك حيث غابت الشمس ضد التيار. أمام مدخل الفندق كان يقف باص بعربتين مربوطتين من المنتصف بمفصل متحرك يشبه الأكورديون، من الطراز الذي كان يعمل سابقًا في خدمة البريد النمساوي، حيث ما زالت عليه دعاية لقضاء إجازة عائلية في قرية ما على الجبال، وبينما رحت أحملق في الجملة غير مُصدق - وهل هناك ما هو أكثر مفارقةً؟ - بدت لي وكأنها خبر من عالم زال ولم يعد له أثر.

لا أعرف السبب الذي حملني على فعل ذلك، ولكنني أخذت أول قطار إلى زغرب، ومن هناك اتصلت بهيلينا وباول وطلبت منهما أن يمرَّا لأخذي. كانت هي التي ردت على التليفون، وأتذكر أنها لم تطرح أي أسئلة، فاستنتجت أنه كان يقف بجانبها. قالت لي إنهما سيكونان هناك خلال ساعتين، إذا كان هذا يناسبني. عندئذٍ ذهبت إلى المقهى في ساحة يلاتشيتش، حيث ظلت هيلينا تنتظر باول دون جدوى إثر وقوع الحادثة

له، وعندما ظهرا في الموعد تقريبًا، لم أحتج إلى بذل مجهود كبير حتى أقنعهما بمواصلة السفر على الفور إلى ألمانيا، لذلك ما زلت أسأل نفسي: هل فعلاً ذلك من أجلي فقط، أم أنهما هما أيضًا كانا قد سئما كل شيء؟

الفصل الخامس
حكاية جميلة

لم يكن قد مرَّ على عودتنا سوى أيام عندما ظهر كتاب ليلي Lilly في الأسواق. انتهزتُ فرصة صدور الكتاب كي أسافر إلى فيينا لإجراء حديث صحفي معها. لم يكن سهلاً أن أبرر سبب رحلتي أمام قسم التحرير، إذ لم يكن أحد قد سمع حتى باسمها، ولكن في نهاية الأمر كنت أجلس في الطائرة وفي يدي الكتاب الذي كدت أنتهي منه عند وصولي. لم يكن يزيد على ثمانين صفحة إلا قليلاً، غير أنها ترسم فيه صورة لألماير لم أكن أريد أن أتخيل أنها صحيحة، إلى هذا الحد تامة وكاملة، خيوط النهاية منسوجة منذ البداية، وكأن شيئًا آخر لم يكن من الممكن أن يحدث في حياته.

تضمن الكتاب وصفًا موفقًا صائبًا، موفقًا في بساطته، مثلاً عندما وصفت رحلتها معه للتزحلق على الجليد، أو قضاءها أمسيات بأكلمها معًا يتحدثان عن الكتب. وكانت هذه الجملة موفقة في تلقائيتها، رغم لهجتها المنبرية المؤثرة، الجملة التي وجدتها في رسالة بعث بها الشابُ البالغ العشرين من عمره: *"أريد أن أكتب وأدرس وأكافح من أجل عالم أفضل"*؛ أو الفقرات التي كتبتها عن شتاء قضاه في إنسبروك، عن مدينة خلت تقريبًا من البشر عندما كانا يخرجان ليلاً للتمشية،

والجليد المتساقط حديثًا على الشوارع يبرق ويلمع كما لم تره منذ طفولتها. كانت تعتبره - أيًا كان رأيها فيه كإنسان - شخصًا حالمًا، وهذا تحديدًا ما جعلها تواجه صعوبات عندما قامت الحرب، لأن كلامها كان يبدو ضعيفًا وهي تتحدث عن حبه لبلاد البلقان، ثم تختلق الأساطير حوله قائلة إن الدم السلافي كان في الحقيقة يجري في عروقه. كان، حسبما كتبت، مثقفًا، ومن ناحية أخرى ساذجًا على نحو لا يُصدق، وهو قول نمطي شائع ربما يصفها هي أكثر مما ينطبق عليه، أو ما زعمته حول تعلقه بالتراجيديا. وإذا لم يكن الأمر بالفعل مصادفة، فقد سرقت عنوان كتابها من الكاتب الكرواتي ميروسلاف كرليدجا[7]، „*ألف موت وموت*“، العنوان مع الشعار حدد النبرة التي كتبت بها عنه. والغريب أن الشعار في الكتاب بالإنجليزية، وهو عبارة عن خمسة سطور مأخوذة من أغنية عن أسطورة „حقل الشحارير“[8]:

Look upon the clear night sky and tell me / If the silver moon is sinking westward / If the morning star is shining eastward / If the time has come for us to travel / To the fair and level Plain of Blackbirds.

وعن هذه القصيدة أيضا كان سؤالي الأول، غير أنها

قالت إنها لم تعد تعرف الكثير عنها، وإنها على كل حال لم تفهم شيئًا من كل هذا الكلام الذي يُكتب عن هزيمة الصرب أمام الأتراك قبل ستمائة عام، والتي لا يكفون عن نبشها مرة تلو الأخرى لإذكاء الضغائن والكراهية في الحروب الجديدة. وواصلت قائلةً:

"لقد أحببت الجمال الخافت الذي ينبعث من الأبيات الشعرية، دون أن أسأل نفسي من أين ينبع. مع أن هذا التشوق الكئيب إلى الموت فيها كان ينبغي أن يلفت نظري".

كنا قد التقينا في مقهى بروكل، وفجأة غيّرت موقفها قائلة إنها تفهم ذلك الكلام، لأنها هي أيضًا تعرفت إلى هويتها عبر الخسائر التي تكبدتها، فحاولت أن أحدد ما إذا كان هذا الحكم مصيبًا أم أنها استخدمت صورة بلاغية فحسب، وتريد أن تتطابق حياتها مع تلك الصورة، كنوع من الدلال والمداعبة مع خيال رومانسي. مظهرها كان يوحي بالهم والحزن، فم مُحبَط، تعبت في صباغته حتى يبدو على نحو لائق، وكأنه سينساب ويهرب منها إن لم تفعل ذلك، عينان متشوقتان تشوقا يائسًا، وكأنهما محترقتان من الداخل. وعندما ضحكت وتوارى وجهها خلف شعرها مثل فتاة صغيرة، تساءلتُ: هل ثمة ما يمكن أن نطلق عليه "الشعور بالإهانة كموقف في الحياة"، الشعور بالإهانة لأن جسدها - هكذا

أظن - يقف عائقًا في طريقها، لأن السنوات تنساب من بين أصابعها، لأن كثيرين قالوا لها إنها جميلة دون أن يحميها ذلك من أي شيء. لم أكد أجرؤ على التطلع إليها، ففي كل مرة كنت أصطدم على الفور بنظرتها المتسائلة. كانت تجلس مستقيمة وتنتظر، ككائن ليلي أفزعه ضوء مفاجئ، شاحبة في ثيابها السوداء، ولم أستطع إلا بالكاد أن أتخيل أنها هي التي أقحمت نفسها لتحتل صدارة الاهتمام في جنازة ألماير، حسبما حكى باول، وأنهم لم يستطيعوا إبعادها عن قبره إلا بصعوبة، وفي النهاية مثلت إصابتها بانهيار هستيري.

كانت مقابلة بلا جدوى لأنها لم تقل شيئًا يذكر عنه، ولأنها أصرت على الصورة التي ابتدعتها في كتابها. لم ترو غُلة فضولي، وهو فضول كان بالتأكيد متلصصًا عندما سألتها أين ومتى تعرفت إليه، أو كيف افترقا في النهاية. لم تجب سوى بقولها إن هذا ليس مهمًا، وعندما سألتها ما المهم إذن، قالت إن عليّ أنا أن أستنتج ذلك إذا كنت أريد بالفعل أن أتحدث معها. ربما أكون مخطئًا، غير أنها بدت وهي تقول ذلك وكأنها تلقي نظرةَ مَن يلتمس الموافقة من المائدة المجاورة، حيث كان يجلس رجل وحيدًا، يبدو أنه كان ينصت إلينا، وبين حين وآخر كان يشخبط شيئًا في دفتر صغير أمامه، لذا لم أستطع أن أتخلص من فكرة أنه صديق لها وأنها أجلسته هناك كرقيب.

وعندما بدأت مرة ثانية تقول إنه لا جدوى من توجيه أسئلة عن تفاصيل حياة ألماير الحميمية، قلت لنفسي أيضًا إن ما نطقت به كان بالأحرى موجهًا له، لا لي، ثم علا صوتها إلى درجة من المستحيل ألا يسمعها الرجل.

"هل تريد أن تعرف ما إذا كان يقوم بالواجب على السرير؟".

اختبأ الرجل الآن خلف الصحيفة، وأعتقد أنني لاحظت كيف ارتجف، إذ ظهرت عيناه فوق الجريدة، بينما راحت هي تعض شفتها السفلى وكأنها نادمة على ما قالت. لم أعرف كيف أرد عليها، وأخذت أصوب نظرات لا تتحول تجاه الرجل ذي الستين عاما تقريبا والنظارة النيكل، وقد تطايرت فوق جبهته خصلة شعر مكوية لم تلائمه وقد بدا في المقهى بكوفيته الحريرية المضحكة وكأنه فيلسوف فرنسي من الذين يظهرون في التلفزيون. كان من الواضح أنه يخشى أن تتورط في تقديم اعتراف سطحي، ولكن لم يكن هذا هو ما أدهشني، كلا، ما أدهشني أنها لم تنتبه إلى سخريتي عندما أومأت برأسي مترددًا، وذلك حتى يصدر عني أي رد فعل على هجومها.

"لستَ إذن العنوان المناسب لك"، قالت ذلك في نبرة وكأنني تسببت في إحراجها. "إذا كان هذا هو ما

تريد، فلا يمكنني أن أساعدك".

كان من الواضح تماما أنها ظنت أنني لا أستطيع سوى طرح أسئلة غبية، ثم قامت هي بطرح هذه الأسئلة لتتأكد ظنونها، ثم تصرفني مرةً باحتقار، ومرةً أخرى بعد أن تتظاهر أنها أُهينت. وعندما سألتها عما إذا كانت في كوسوفو، فقد أشعرتني أن كل سؤال لا جدوى منه، وكل كلمة زائدة عن الحاجة، ثم هزت رأسها بعد أن سألتها هل كانت لديها خطط للسفر إلى هناك، ولم تزد ردودها في كل الأحوال عن: نعم، لا، ربما، هزة كتفين؛ إجابات مقتضبة ومبتسرة. لم أعرف ما انتظرته مني، وهل كان بإمكاني عمومًا أن أرضيها، هل كان السبب فعلاً يرجع إليّ وإلى سلوكي المباشر ربما للغاية، أم أنني كنت سأجني الردود نفسها لو كنت التزمت الحذر وتعاملت معها بتحفظ؟ ولكن في نهاية الأمر لم يكن هناك فارق، فلم أعد أهتم بها ولا بتظاهرها بأنها تعاني الصداع المزمن وأن كل شيء مرهق ومتعب بالنسبة لها.

وبينما رحتُ أرسل نظرات جانبية للرجل على المائدة المجاورة الذي كان يمر بكلتا يديه على شعره فاردًا إياه، تذكرت مرة أخرى ما قاله باول عن ألماير الذي اشتكى ذات مرة أن الحرب خلّفت لديه شعورًا بغرابة الحياة العادية، واستحال عليّ عندئذٍ أن أتخيل باول جالسًا بجانبها. ألحّت عليّ صورة إنسان يعمل في

منجم تحت الأرض، ويعود إلى منزله متسخًا، ولأنهم لا يسمحون له بالدخول، فإنه يلقي نظرة من النافذة إلى الداخل، فيراهم يجلسون على أضواء الشموع حول مائدة مغطاة بالمفارش البيضاء، يبعدون عنه أقل من مترين، ومع ذلك لا يمكن الوصول إليهم. كنت أود لو قلت لها: كيف تسمحين لنفسك بهذا السلوك الفظ، لكنني لزمت الصمت. صورته التي تراءت لي كان بها شيء لا يُمحى، شيء خارجي، مثل علامة قايين في التوراة، وسواء أعجبني الأمر أم لا فإن أول ما فكرت فيه كان أن أدافع عنه ضد براءتها الاستعراضية، وأن أحميه من لعنتها التي بدت لي رخيصة مبتذلة.

ولهذا سألتها عما إذا كانت نصحته بالتخلي عن مهنته في أثناء فترة حياتهما المشتركة، عندما سافر لأول مرة إلى منطقة من مناطق القتال، غير أنها على ما يبدو لم تفهم ما قصدته، وتصرفت وكأنها فوجئت بسؤالي: "ولماذا كنت أفعل ذلك؟".

لم أفكر كثيرًا: "حتى تنقذيه من نهايته".

ما زلت أتذكر كيف قهقهت، وكأن ما قلته لا يمكن أن يكون سوى نكتة أو سوء تفاهم.

"لم تكن هناك جدوى من وراء ذلك"، ردت بعد برهة. "إنه لم يبدأ بهذا العبث إلا بعد أن شعر أنه من دون الإثارة سيموت مللاً".

لم أستطع أن أحدد ما إذا كان كلامها صحيحًا، أم أنها تتملص من الإجابة، وتبحث عن التفسير السهل الذي يهتدي إليه المرء على الفور عندما يتساءل عن سبب اندفاع إنسان بمحض إرادته لملاقاة الأخطار.

"كان يقول دائمًا إن أسوأ ما يتخيله هو أن يدفن حيًا في أحد المكاتب"، واصلت كلامها. "كان شعاره: سواء اختبأ أم لا، ففي النهاية سوف يقبض الشيطان على روحه".

لم أكن أتوقع منها أن تقول كلامًا بمثل هذه الجرأة، وعندما عبرت عن شكوكي من أنها ربما رغم ذلك كانت تستطيع أن تؤثر عليه كي يعيد حساباته، لاحظت كيف نفد صبرها. وبالتأكيد كان سؤالي في غير محله عندما قلت لها إن الموت قد يكون مُعديًا طوال الوقت الذي يعرض الإنسان نفسه له، رغم ذلك ضايقني أنها راحت تجول ببصرها معبرةً عن مللها. وعندما قلت لها إنه ربما، وتحديدًا بسبب ما رآه، لم يخرج سليمًا بلا ضرر من مغامراته، فإنها تصرفت وكأنها لا تريد الإنصات إلى كلامي، ثم عارضتني معارضة عنيفة:

"إذا صح ما حكاه لي، فهو لم يرَ طوال هذه السنين إلا ميتًا واحدًا. حسبما زعم، كان يتمكن دائمًا من إغلاق عينيه في الوقت المناسب".

تركتها تتحدث، رغم أن كلامها - وفق معلوماتي - لا

يمكن أن يكون صحيحًا. أيًا كانت أسبابها، فإنها اختلقت هذه الحكاية، ومع ذلك فإنني فيما بعد كنت في الغالب أتذكر الحكاية بدقة، كلما وردت هي على ذهني، وكنت أتذكر أيضًا حكايتها الساذجة عن الجندي المجهول الذي بدا في أثناء الموت وكأنه نائم فحسب، وعن هذه الحكاية كنت أحب أن أكتب. في أثناء جلوسي أمامها قررت ألا أكتب أي شيء تحدثنا عنه، ولذلك بقيت تأكيداتي - عندما نهضت وودعتها - بأن أبعث لها بنسخة من المقالة بعد النشر محض وعود فارغة. الشيء الوحيد الذي مر برأسي لحظتها، أنني لم أحكِ لها شيئًا عن علاقتي بباول، وأنني لن أذكر أمامه حرفًا عن زيارتي هذه، وأنني سأتصرف وكأنني لم أقابلها في حياتي أبدًا، وكأن الصورة التي كونتها عنها ليست إلا ما أعرفه من باول، أي حصيلة تحفظاته عليها.

بعد أن خرجت من المقهى استدرت عائدًا كي أتأكد من ظنوني، وطبعًا كان الرجل من المائدة المجاورة يجلس الآن معها ويحاول إقناعها بشيء. ورغم أنني لم أقف بعيدًا عنهما، فإنهما لم يلاحظا وجودي، ولذا كان لدي الوقت كي أتفرس في وجهها، ورأيت مرة أخرى البؤس مرسومًا عليه، قلة الحيلة التي جعلتني أفكر في شيء ورقي قابل للكرمشة إذا لم يتناوله المرء بحذر، وأدركت أنه - سيان ما يحكيه الرجل - فإن قطارها قد فات. كان لا يني يمسك بيديها، وحتى لو لم أكد أسمع

من حديثهما شيئًا، كنت أحدس أنهما يتكلمان عني، لكنني لم أفهم سبب انفعالها ولم أرد أيضًا أن أفهم، كانت تكفيني الكلمات القليلة التي التقطتها والتي كانت تنطبق علي، ومن بينها بدت كلمات مثل "الألماني الشمالي المتعجرف" الأكثر لطفًا.

كنت لا أزال أفكر في ذلك عندما دخلت بعد حوالي ساعة المكتبة الإنجليزية في "شترن جاسه"، وكنت شاهدًا على حديث جعلني أتذكر فالدنر مرة أخرى، إذ إن صاحبة المكتبة كانت تصرخ بالطريقة نفسها في سائحة أمريكية. لم أسمع بداية الحديث، ولم ألتفت إليهما إلا عندما راحت تتكلم عن الفاشيين، رافعةً صوتها ومثبتةً نظرتها على المرأة المحملة بأكياس التسوق. فاتني أن أنتبه من تقصد بذلك، وبينما حاولت أن أستنتج ذلك، إذ كلما كررت المرأة الكلمة، بدت أكثر شمولاً، وكأنها - مصحوبةً بحركات يديها الكثيرة - تتسع لتحيط بالعالم كله، وفي النهاية كان يمكن أن تكون كل شيء وكل أحد، أما المرأة المنصتة فقد بدت ضائعة في دوامة كلام صاحبة المكتبة، فوقفت أمامها ولم تزد عن أن تقول بلا صوت تقريبًا:

Oh my God, oh my God, I can’t believe it, oh my God.

كان لقاء غريبًا بين شخصين، المرأة الرقيقة

الحيوية التي رفعت أخيرًا إحدى يديها لتضعها أمام فمها في مزيج من الرعب والافتتان، والسيدة الواقفة خلف طاولة البيع والتي شاب شعرها قبل الأوان والطاعنة في السن كما يبدو، والتي على ما يظهر كانت قد شربت شيئًا، وراحت، في حالة النشوة التي استولت عليها، ترتجف وتهتز شاعرةً بالجرأة والإقدام.

"إنهم عصابة من الصبيان القتلة"، قالت بعد أن بدا لها أن اقتصارها على كلمة "فاشيين" ليس كافيًا. "إنهم لا يتورعون عن فعل شيء إذا لم يوقفهم المرء عند حدهم".

في هذه اللحظة أردت أن أنسحب في هدوء، لكنني شعرت بنظرتها عليَ، ثم توجهت إليَ بالكلام: "ألا ترى ذلك أيضًا؟".

باغتني سؤالها. لم أجد ردًا، فقلت مراوغًا: "لا أعرف"، لأنني لم أكن متأكدًا من هوية الذين تقصدهم. "لا أستطيع للأسف أن أقول شيئًا في هذا الموضوع".

لم يكن هناك خطأ يمكنني أن أفعله أكبر من ذلك، ولكن قبل أن أدرك ما فعلت، كانت قد حوّلت كل انتباهها إليَ، وحاولت أن تتأكد من مقصدي. "ولكن ليس من الصعب إلى هذا الحد إبداء رأي في الموضوع".

عندما سمعت النبرة المُتهِمة التي تحدثت بها، أدركت أنها الفرصة الأخيرة المتاحة لي كي أخرج من الأمر سالمًا، غير أنني تركتها تمر، وهززت كتفي فقط. نظراتها إليّ لم تدع مجالاً للشك من أن اتهاماتها - التي لا أعرف من تقصد بها - تشملني أنا أيضا. شعرت باستحالة أن أرد بشيء قد يوضح الحقيقة، ولكن سلوكها أصابني بالشلل، فوقفت هناك محملقًا فيها دون أن أفتح فمي بكلمة، مثلما فعلت هي تمامًا، إلى أن لاحظتُ أنها تنتظر مني أن أمضي، وأنها كانت عازمة على عدم قول شيء قبل ذلك. لم أعرف: هل ينبغي عليّ أن أغضب أم أضحك؟ بدت لي الإمكانيتان متساويتين في العبث واللاجدوى، البقاء مثل الانصراف، لأنها على أي حال ستشعر بأنها على صواب، وعندما حوّلت بصري عنها، ناظرًا إلى الأمريكية التي كانت لا تزال تتأرجح بين الحماسة والذعر، نجحت في كسر جمودي، ووجدت نفسي في اللحظة التالية أقف في الشارع، شاعرًا بالارتياح لأنني نفدت بجلدي، وإنْ لازمني الإحساس بأنني زودتُ السائحة - التي ربما تكون قد قامت برحلة بالحنطور وحضرت أحد عروض مدرسة الخيول الإسبانية - بمشهد تقليدي آخر من معالم مدينة فيينا.

بعد عودتي إلى هامبورج لم أستطع تصور كل ما حدث إلا بصعوبة بالغة، إلى هذا الحد كان الموقف

عبثيًا، وشعرت بأنني أكره فيينا كما لم أفعل منذ مدة طويلة؛ أكره اتساعها، وضوءها، وسماءها التي تتقلب بسرعة، والهواء والأنوار التي لا تشبع المدينة منها. وعندما تواعدت مع باول بعد عدة أيام من رجوعي، تراءى لي لقائي مع ليلي غير حقيقي على الإطلاق. شهد المقهى في أوتنسن لقائي مع باول مرة أخرى. كان قد طالع كتابها، إلا أنه لم يهاجمه كما توقعت، بل على العكس، لقد اتخذه مناسبة كي يتحدث من جديد بحماسة عن الفترة التي قضوها معًا في مدينة إنسبروك. تحدث عنها وكأنه لم يذكرها أبدًا بازدراء. ورغم أنني سمعت كلامه العاطفي عنها من قبل، فإنني فوجئت بابتعاده الكبير عن أقواله السالفة. راح يُتبع النادرة بالأخرى، حكايات لطيفة عادية، لسبب ما يحب إعادة حكايتها، إلى أن قال في النهاية إنه كان يشعر معها ومع ألماير بأنه في بيته، على الأقل طوال شهور في تلك الفترة، ولم يعاود الهجوم عليها بعد ذلك.

ولأن باول ظل يلحّ عليّ لمرافقته إلى مسرح ألتونا لمشاهدة "ثلاثية بلجراد"، وهي مسرحية لكاتبة صربية شابة، فقد استجبت له وذهبت معه إلى المسرح بعد ذلك بقليل، وهناك قابلنا إيزابيلا بالصدفة، ولأنني احتفظت بتذكرة الدخول أستطيع أن أذكر التاريخ بالضبط، وهو التاسع والعشرون من أكتوبر، بعد ليلة أو ليلتين من عرض الافتتاح. كانت المسرحية تقدم في

مدخل المسرح، وقد دخلت إيزابيلا قبل بدء العرض مباشرة، وجلست على درجة من الدرجات السفلية لإحدى الدرجين الجانبيين، حيث كان الجمهور يجلس، مباشرة عند أقدام الممثلين، وأتذكر كيف رحت أراقبها من أعلى وأنني لم أحوِّل بصري طوال الوقت عن بروفيل وجهها، بينما كانت هي تتابع المشاهد بلا حراك متكئةً على الزجاج المحيط ببئر المصعد. لم تخلع معطفها، وكأنها مستعدة للنهوض في أي لحظة والخروج بسرعة، بدت شاحبة للغاية، ومستغرقة تمامًا في الفرجة إلى درجة الترقب الوجل، مستقيمة في جلستها، شعرها مرفوع لأعلى تتطاير بعض خصلاته في ضوء الكشافات الذي كون بقعة مضيئة تحت الواجهة التي تخترقها النوافذ فوق المدخل، وفكرت لفوري أنها تنتمي للمشهد، وأنها جزء من الذي يُمثل أمام عينيها.

كان ذلك بعد ثلاثة أسابيع من إسقاط النظام في بلجراد، وعندما وقفنا نحن الثلاثة في الاستراحة وقال باول إن ما حدث في بلجراد لم يعد يفيد الشخصيات على خشبة المسرح، إنهم هاربون أبديون من مسقط رأسهم، وفي ليلة رأس السنة وجدوا أنفسهم قد تفرقوا عبر نصف بلاد العالم، أي في المنفى، بشكل نهائي، عندئذٍ ظلت إيزابيلا تتطلع إليه من دون تفهم.

"بالنسبة لي أيضًا حدث ذلك بعد فوات الأوان"،

هكذا قالت بعد برهة وكأنها تُعيده إلى الواقع. "لو حدث ذلك قبل عامين، لكانت حياتي تغيرت تمامًا".

كان من الواضح أنها تفكر في ألماير، ولذلك لم أندهش أيضًا عندما ذكرت شريط الكاسيت المسجل عليه المقابلة، ثم توجهت إلى باول متساءلة:

"هل ما زال يهمك الحصول عليه؟".

على ما يبدو لم يكن يتوقع ذلك.

"طبعًا"، أجاب مترددًا وكأنه لا يصدق أنها جادة في سؤالها. "أنا أنتظر فقط أن تسلميني إياه أخيرًا".

كان يود لو استطاع أن يقابلها في اليوم التالي، لكنها قالت إنها ستسافر في الصباح إلى فيينا لقضاء عدة أيام، وأن عليه الصبر طوال هذه المدة. وعندما اتضح أن ليلي قد دعتها لزيارتها، هز باول رأسه قائلاً: "إنني أتعجب من أنك على اتصال بها".

لم ينطق إلا بهذه الكلمات، ورغم أن معرفته بها سطحية، فإن نبرات صوته وشت بخيبة أمله. راح ينظر إليها، وقد بدا عليه التردد: هل عليه أن ينتظر ردًا على كلامه؟ أم أنه على العكس يخشى أن تبوح بأشياء أكثر إذا بدأت في الكلام وأن تفتح مواضيع ربما تكون شائكة بالنسبة له؟ كانت نظرته تنطق بالتحدي، إلا أنه كان ينسحب على ذاته بمجرد أن تلتقي عيناه مع عينيها، ولا بد أنها لاحظت أن الموضوع غير مريح بالنسبة له، ولهذا

تحسست النبض بجملة جاءت بين السؤال والتقرير: "أنت لا تحبها".

هز كتفيه، ولم يستطع هذه المرة أن يسيطر على نفسه، وانطلق يحكي عن جنازة ألماير وكيف تصرفت في ذلك اليوم.

"لقد حاولت أن تنتزع منك مكانة الأرملة".

لم يثر كلامه إلا ضحكها. "لو كان الأمر كذلك، فأنا سعيدة بما قامت به"، قالت في النهاية. "ما زلت لا أستطيع التخيل كيف كنت سأتحمل كل ما حدث".

وبهذا انتهى الحديث، وعندما دخلنا مرة أخرى تجنبت - أيًا كان السبب - أن تجلس بجانبنا، تريثت حتى جلسنا، ثم اتخذت مكانًا لم أستطع منه أن أراها إلا لو لويت عنقي تجاهها، بينما كان بإمكانها أن تراقبنا لو أرادت، غير أنني كلما خاطرت بنظرة كنت أجدها تنظر بعيدًا، إما لأن الأحداث على الخشبة حازت انتباهها، أو لأنها كانت تحملق أمامها في جمود، محاصرة برجلين يجلسان بجانبها، يشير مظهرهما إلى أنهما من الجنوب، وقد أثارت نظراتي انتباههما. لا أعرف ما الخطأ الذي ارتكبناه، ولكن قبل أن ينتهي التصفيق الختامي، كانت قد نهضت وانصرفت دون أن تودعنا. وظللنا نبحث أمام المدخل دون جدوى، لأننا ظننا أنها ربما تنتظرنا في مكان ما.

قد يبدو هذا غريبًا، ولكن لم يمض شهر حتى كان باول قد حصل على الكاسيت بالرغم من ذلك، وما زلت أتذكر أنه اتصل بي تليفونيًا وسألني عما إذا كنت أريد المجيء وسماع الشريط معه ومع هيلينا. كانت ماسورة ماء قد انكسرت في شقتهم، ولذلك سكنا لمدة أسبوع في أتيليه شاغر لصديق رسام في "كارولينن شتراسه". ولكن عندما أفكر كيف استقبلاني هناك - هو وقد استولى عليه الانفعال، وهي ربما هادئة للغاية - فقد شعرت بأن حكاية الشقة ربما تكون حيلة مسرحية. يقع الأتيليه في الطابق الأخير من بناء كان يُستخدم سابقًا كمخزن، ومنذ ذلك اليوم فإن وشيش جهاز التسجيل بعد تشغيله ونظرات باول التي تدعي الأهمية يذكراني بنظراتي من الشباك، والسكون المنساب في هسيس متعفف قبل بدء الحديث، وضوء برج التلفزيون المنزلق فوق أسطح المنازل والذي كان يبرق عبر آخر أشعة المساء، وطائرة الشحن المتضخمة الرأس التي كانت تشق طبقة السحاب بلا صوت وتقترب منا وهي تهتز في طريقها للهبوط. لا هو ولا هي، على ما أتذكر، نطقا بشيء، والأصوات الوحيدة التي تغلغلت من الخارج كانت الصيحات البعيدة من الملاهي في ساحة "هايليجن جايست"، وصرير انقطع بعد أن وصل إلى ذراه، ثم صمت تام، لبرهة، والرعب والمتعة قبل الهبوط مرة أخرى إلى الأرض.

ثم علت أصوات، خليط من الكرواتية والألمانية لا يُفهم منه سوى كلمات منفردة. تبادل التحية في البداية على ما يظهر، قبل أن يسود الصمت مرة أخرى. الوشيش من جديد. يبدو أنهم في غرفة صغيرة. وفي النهاية اعتقدت أنني تعرفت على صوت سلافكو.

"ماذا تريد؟".

استغرق الأمر برهة قبل أن نسمع الإجابة: "التحدث معك".

إنه حتمًا ألماير، ورغم أنني لم أتخيل أبدًا صوته، فقد فاجأتني نبرته. لم تكن النبرة الحاسمة التي تحدث بها تناسبه، وأعتقد أنه جمع كل شجاعته كي يتحدث هكذا. أتخيله وهو يقف هناك، مذعورًا بعض الشيء، متعبًا من الجهد الذي بذله خلال اليوم، وربما مفعمًا بالشكوك: هل كان مجيئه إلى هنا فكرة صائبة؟ أن يسافر كل هذه المسافة لمقابلة رجل يتركه ينتظر طويلاً، ثم، فوق كل ذلك، يقابله بتحفظ؟

"ليس لدي أي فكرة عما أستطيع أن أحكيه لك".

كان يتحدث ببطء، وعلى الفور لفت انتباهي أنه على الأرجح سكران، إذ إنه بذل جهدًا كبيرًا في فصل كل كلمة عن الأخرى.

"على كل حال، أنت تعرف كل شيء عني. سيان ما أقوله: إما أن تعتبره تأكيدًا لرأيك، أو دليلاً على أنني

أخبئ شيئًا".

لم أتوقع أن لديه شكوكًا كهذه، لا سيما عندما أتصور الموقف، وشعوره بالضياع في المنطقة الحرام، في مكان ما من الجبهة الصربية الكرواتية. كان مهتمًا بمعرفة تأثير ما يفعله، وهو ما يتبين في رغبته في أن يعرف لدى أي جريدة يعمل ألماير. ولم أستطع أن أصدق أذني عندما سأله فوق ذلك عما إذا كان ينوي أن يلتقط له صورة، وإذا كانت الإجابة بنعم، فعليه أن يسرع لأن الظلام ينتشر في المنطقة بسرعة. الطريقة التي كان يوجهه بها تدل على أنها لم تكن ربما المرة الأولى التي يقابل فيها مراسلين صحفيين، ولهذا لم أتعجب عندما قال بعجرفة: طالما أنه لم يقل شيئًا آخر، فإن كل شيء يجب أن يكون off the record .

هذا يعني أنه لم يكن يعرف أن جهاز التسجيل يدور، ولكن ما تحدثا عنه بدا غير ذي بال على كل حال، أسئلة ألماير عن سير خط القتال ثم الإجابات التي تميل إلى الحذر، مناوراته وإشاراته المتكررة إلى أنه لا يستطيع الإدلاء بتفاصيل أكثر حول أشياء معينة لأنه ملزم بعدم إفشاء الأسرار. لم يكن كل ذلك أكثر من مناوشات إلى أن قدم له شرابًا وألحّ عليه عندما رفض، وعندئذٍ سمعنا نبرة مختلفة، وإصرارًا لا يسمح بأي معارضة. التفت على ما يبدو إلى شخص آخر، ثم

تحدث فجأة بالكرواتية، وفي الخلفية سمعت ضحكات، بينما تدخل صوت قريب تمامًا، ربما مترجمه، بصوت خافت ولكن بإلحاح، وكأنه يتضرع إليه.

"لا يمكنك أن ترفض كأسًا من الشنابس".

عند هذه الجملة أوقف باول الشريط لأول مرة، ثم أرجعه كي نسمع مرة أخرى ما قاله سلافكو، ثم نظر إلى هيلينا متسائلاً.

"لست متأكدة، لكني أعتقد أنه وصفه أمام رجاله بأنه "ولد مِدلع تَلفان". ثم أضافت: "إذا كنت فهمت ما قيل، فقد تساءل: هل عليه أن يعلمه الأدب إذا رفض دعوته؟".

بدت جملتها ملتوية لدرجة أنني فطنت - دون أن تقول هي شيئًا - كيف كان كلامه مليئًا ربما بالبهارات النابية السوقية. من الواضح أنها تشعر بالإحراج، أخذت تحملق أمامها باحثة عن نظرتي قبل أن ترسل بصرها إلى النافذة، وكأنها تود لو استطاعت أن تضيع في مكان ما بالخارج. لاحظت أن باول لم يحد ببصره عنها، وعندما شغَّل الجهاز مرة أخرى وواصل سلافكو كلامه، لازمني الانطباع بأنها تحاكي بشفتيها ما يُقال مقطعًا مقطعًا، ولكن دون أن تصدر صوتًا، ودون أن تكون واعية لما تفعله.

واصل الشريط سيره لفترة، وكأن بقيته فارغ، ثم ارتفعت أصوات معربدة عالية، وقالت - دون داع، لأن الأمر كان واضحًا - إنهم يقرعون الأنخاب في صحته:

.Živio

بين حين وآخر كنت أسمع هذه الكملة، ثم لقب »كابتن« الذي كانت تخاطبه به البنت في سلافونسكي برود أيضًا:

.Živio, keptn, živio

ثم علا صوت المترجم مرة أخرى الذي طلب من ألماير أن يتناول الزجاجة ويشرب، بنفسه، حسبما كرر الكلمة التي قيلت له، ثم أعقبت ذلك ضحكة، من سلافكو بالتأكيد، هي بالأحرى سعلة طويلة، وكأنها لهاث بلا صوت.

.Vidite švabo

كانت نبرته مشجعة وساخرة، من الواضح أن كلامه كان موجهًا إلى رجاله. أومأت هيلينا برأسها فحسب ولم تترجم لأنه على الفور تحدث بالألمانية:

„هكذا الشرب وإلا فلا".

بدلا من الإجابة سادت الفوضى، برزت منها بين الحين والآخر عدة مقاطع، وبينما رحت أتنقل ببصري بين باول وهيلينا، ومن خلال قرع الأنخاب فهمت أن الزجاجة دارت عليهم الواحد بعد الآخر. كلاهما أنصت

باهتمام، أقل صوت غير متوقع كان يكفي لأن يتبادلا نظرات مستفهمة. باستثناء هسيس الجهاز كان الصمت مخيما. لم يكف باول عن لمسها، كانت إحدى يديه على زر تشغيل المسجل، والأخرى على ذراعها. كانت تجلس على حافة الفوتيه، حيث قعد، متكئةً على كتفه، وظلت ساكنة. بدا مرة أخرى وكأن الشريط انتهى، ثم فجأة سمعنا بوضوح صوت ألماير.

„ما هي المسافة حتى الحدود الصربية؟".

كان سؤالاً شائكًا، ويبدو أن باول أوقف الجهاز من الرعب. أرجع الشريط قليلاً ثم شغله مرة أخرى، وكأنه أخطأ السمع، وتوقع في المرة الثانية أن يسمع شيئًا مختلفًا. الكلمات نفسها لم تزد في الإعادة إلا بُعدًا عن الواقع. وضع باول إصبعًا على شفتيه حتى لا تتحدث هيلينا بين الكلمات عندما قام سلافكو بالترجمة إلى رجاله.

كنت أنتظر صرخة، ولكن لا شيء، ثم فجأة خامرني شعور أكيد بأن الفرقعات المستمرة إنما هي صادرة عن بندقية آلية. بالطبع ربما أتوهم ذلك، ولا سيما أن نوعية التسجيل سيئة، ولكن الآن لم يعد ثمة شك، كانت طلقات بكل تأكيد، أربع أو خمس، ردًا على ذلك، بين كل طلقة وأخرى فاصل واضح، صوت جاف بلا صدى، وللحظات بدا وكأن الشريط يلف دون أن يكون قد

سجل شيئًا من الأصوات في الخلفية. ظل السكون سائدًا، فأرسلت النظر من النافذة إلى الظلمة الزاحفة ببطء محاولاً أن أتخيل قسوة حلول الليل في مناطق القتال آنذاك، ثم تفجرت ضحكة سلافكو مرة أخرى.

„الحدود الصربية؟".

نبرته مفعمة بالتهكم، ولم ينتظر أن يجيب ألماير بأي شيء، بل واصل بنبرة مَن يوضح بصورة نهائية أنه لا يقبل المزاح.

„أخشى أنني لا أعرف ما تقصد، ولكن لدي هنا شخص قد يساعدك"، واصل كلامه، وكأنه يعيد جملاً حوارية التقطها من مكان ما. „اتبعني، سأعرفك بالسيد".

سمعنا وقع خطوات، ثم صوته مرة أخرى.

„هذا هو، إنه مِن هناك".

أعقب ذلك شذرات جمل باللغة الكرواتية نطق بها، وقالت هيلينا إن من الواضح أن الآخر أسير، زجره سلافكو لكي يغني.

كنت أود أن أسألها عما تقصد، ولكن عندئذٍ سمعت صوتًا محشرجًا، خافتًا وواهيًا للغاية في الغرفة هائلة الاتساع التي يبدو أنه كان فيها.

.Spremte se, spremte, četnici

تملك الخوفُ الرجل، وعندما صاح فيه سلافكو أن يعيد ما غناه، ولكن بصوت أعلى، لم يكن باول بحاجة إلى طلب شيء من هيلينا؛ من نفسها ترجمت ما قيل، وتحدثت بسرعة لافتة دون أن تحرك شفتيها تقريبًا.

„كونوا مستعدين، أيها التشتنيك، كونوا مستعدين".

لاحظت أن باول يريد أن يوقف الشريط مرة أخرى، ولكن في تلك اللحظة سمعنا شيئًا يشبه الصدى العالي، ارتجف باول فور سماعه، وإذا كنت لم أنتبه للأمر قبلها، فقد فهمت على حين غرة أن هذه هي نغمة صلاة الرجل.

.Spremte se

ضحكة سلافكو أيضًا بدت فجأة وكأنها تعبر عن بعض الاندهاش، لكن ربما أخطئ، لأنه عندما توجه إلى ألماير ثانيةً كان يفيض تهكمًا.

„يمكنه أن يجيب عن سؤالك".

وبهذا وجه كلامه إلى الرجل مرة أخرى.

?Koliko ima do Srbije

كنت أتوقع أن تقوم هيلينا بالترجمة، لكنها صمتت، وراحت تنصت إلى صوته الذي أصبح فجأة عذبًا شجيًا، أما ملامح وجهها فقد تقلصت وكأنها تشعر بالقرف. تركت لدي الانطباع وكأنها تود أن تقول: ليس معنى أنني الوحيدة التي أفهم لغته، أن ثمة أدنى علاقة

تربطني بهذا الرجل. ربما لهذا كانت حذرة ومتحفظة. رغم ذلك لازمني الانطباع بأنها تشعر أنه يكلمها هي شخصيًا، وبالفعل بدا حضور الرجل أقوى في أثناء انتظاره وسكونه، وعندما أجاب لم يكد المرء يستطيع سماع ما قاله:

Dvadeset kilometara.

قهقه فحسب.

Koliko?

رغم أن التردد كاد يشلّه، فقد تحدث بتردد أكبر:

Dvadeset.

أعقب ذلك تصفيق قوي، ثم تحدث وكأنه يتوجه إلى طفل عنيد لا يريد أن يفهم أنه لا يضمر له إلا كل خير:

Koliko?

مرة أخرى ترك لحظات تنساب.

Dvadeset kilometara, kažeš ، قال ذلك بلين، وكأنه يتحدث أبجدية أخرى.

A šta onda radiš ovdje?

نبرة هذه الجملة كانت تضمر برودة شديدة، لدرجة أنني تمنيت أن ينهال أخيرًا بالسباب واللعنات حتى يفعل ما يمكن أن يتوقعه المرء منه، لكن هدوءه كان يزداد مع كل كلمة، وهو ما اتضح عندما واصل كلامه:

?Zašto nisi u Srbiji

كانت هذه هي اللحظة التي تدخل فيها المترجم أخيرا، في البداية بحذر، وكأنه يتوقع أن يقاطعه أحد، ثم بالنبرة المهنية المعتادة:

"لقد سأله ماذا يفعل هنا. كما أنه يريد أن يعرف سبب عدم وجوده في صربيا، طالما أنها لا تبعد أكثر من بضعة كيلومترات".

لم يكد يفرغ من جملته حتى خفت صوت الرجل وأمسى واهنًا مرة أخرى، هامسًا، وكأنه يستغيث استغاثة مخنوقة.

.Srbije nema

اعتقد الرجل الآن - كما هو واضح - أنه توصّل بذلك إلى حل، ووفقا للضحكات يبدو أن الإجابة أعجبت سلافكو أيضًا، بينما راح المترجم ينقل الكلام في مزيج من الموافقة والذهول.

„صربيا لم تعد موجودة".

كان يمكن أن تكون هذه هي النهاية، ولكنها لم تكن بالطبع، رغم أن باول أوقف الشريط مرة أخرى. وكلما فكرت في الطريقة التي فعل بها ذلك، ينتابني شعور مؤكد بأنه كان يعرف عندئذ مدى وحشية ما يسمع. وربما كان هذا هو السبب الذي حمله على كتابة الكلمات

الكرواتية كلمة كلمة، وقد ساعدته هيلينا في التصحيح، وها هي أمامي، نسخة منها، مع كل الملاحظات التفصيلية مكتوبة بخط يده على هامش الصفحات القليلة. ورغم أنني ما زلت أتذكر الموقف جيدًا، فإنني سعيد بما قدمه لي من عون، لأن الدقة كانت مهمة فيما أعقب ذلك، وأحيانًا أقول لنفسي: من المستحيل أن أكون قد سمعت ذلك فعلاً، ولذلك أتناول الأوراق لأتأكد وأقرأ، وفي كل مرة تصيبني الدهشة من الحتمية التي بدا بها لاحقًا مسار الحديث.

ما زلت أتذكر أنه لم يمضِ وقت طويل حتى شغَّل باول الشريط من جديد، دقيقتين ربما ثلاثًا، وخلالها حاول ألماير دون جدوى أن يتحدث مع سلافكو، إلى أن جاء السؤال الذي لم يكن بعده رجعة:

„ما شعور الإنسان عندما يقتل شخصًا؟".

إجابة السؤال لم تجب على شيء.

„لماذا تعتقد أن بإمكاني أن أجيبك عن هذا السؤال؟".

„لا أعرف"، أجاب مراوغًا، لأنه لاحظ أن سؤاله كان جريئًا أكثر من اللازم. „ربما ظننت أن الموقف يتيح الإجابة ببساطة عن السؤال".

أعقب ذلك مرة أخرى ضحكة غير حقيقية، هي بالأحرى تهتهة مصطنعة تبين عبثية الموقف كله.

„أنت تعتبرني قاتلاً؟".

أجاب بـ"لا".

„هل أنت متأكد؟".

لم يرد أحد، ثم سمعنا أصواتًا لم أستطع أن أميزها، وبعد ذلك تحدث سلافكو - متوجهًا إلى شخص آخر - بالكرواتية مرة أخرى. بدت الجمل وكأنها تطايرت مع الرياح، رحت أنصت لعلّي أتبين ولو أجزاء مما قيل، ولكن دون جدوى. هل كرر ما قال، وفق عادته المحببة، أم نطق ربما بشذرات ألمانية؟ تطلعت إلى هيلينا، غير أنها هزت كتفيها فحسب، على ما يبدو لم تفهم شيئًا، إلى أن التفت وتوجه إلى ألماير بسؤال مباشر:

هل أمسكت يوما ببندقية في يدك؟".

الصمت الذي أعقب السؤال كان ثقيل الوطأة، لا أعرف المدة التي انقضت، ولكن مع كل إعادة لاحقة لهذا المقطع من الشريط كنت أشعر بأن الوقت يمضي أبطأ من ذي قبل، إلى أن واصل كلامه:

„إذا أردت، يمكنك أن تأخذ بندقيتي"، قال ذلك وكأنه يُسدي إليه معروفًا. „عليك فقط أن تعيدها إلي، فربما أحتاج إليها".

شف صوته عن تلك الوداعة مرة أخرى.

„دعك من هذه الحركات"، أضاف بنبرة أكثر لينًا،

نبرة تقترب من الرقة، مغوية كما امرأة، وفي اللحظة نفسها تدخل المترجم من جديد.

„أرجوك، افعل ما يطلبه منك"، قال وقد تعثرت الكلمات في فمه من الانفعال. „لا بد أنك ترى أنه جاد فيما يقول".

بدا الشريط وكأنه لا يلف إلا بصعوبة بالغة، وأتخيل كيف وقف ألماير هناك، كيف ظل ساكنًا، كنت أعرف، لم تكن هناك احتمالية أخرى، لا يستطيع أن يرفض، وبلا شك تناولها منه. ورغم تعدد الطرق، فإنني كنت متأكدًا من أنه أمسك بها بطريقة صحيحة، وإلا كان أحد قد صحح له مسكته، ورأيته أمام عيني، مُهانًا ومأخوذًا على حين غرة، نظره مصوب إلى اللاشيء، وكأن كل ذلك لا يعنيه على الإطلاق.

ومرت ثوان بلا صوت إلى أن أصدر سلافكو أمرًا توجه به مرة أخرى إلى الأسير، شرح هيلينا جاء متزامنًا معه تقريبًا:

„يريد أن يعبر إلى الناحية الأخرى".

لم أفهم على الفور ما يعنيه ذلك، ولكن عندما أضافت أنه يطالبه بأن يمشي إلى الحدود الصربية، تراءى لي المشهد، الرجل - دون تغطية - يمشي وسط الحقل الخالي متلمسًا طريقه بين نقاط الحراسة المتعادية، وفق ما وصف ألماير الحقل في المقابلة، ثم

سمعت صوتها كأنه تعليق تلفزيوني يمكن الاستغناء عنه:

„يقول إن عليه أن يضع قدمًا أمام الأخرى، اليدين فوق الرأس، وألا يفكر إطلاقًا في أن يجري"، هكذا شرحت بالتواء القواعد. „وهو لا يدع مجالاً للشك فيما سيحدث، لو لم يطع".

رأيتها وهي تمنع باول من أن يعيد توقيف الشريط، بينما كانت هي تترجم فوريًا تعليمات سلافكو القصيرة، وكأنها هي نفسها تمر بموقف توجيه الأوامر كما يحلو لها للأسير، وكأنها هي التي أرسلته إلى العدم، واحتجت لمدة إلى أن أدركت أن هذا هو رد فعلها على ما سمعته من عهر وقذارة، أن تجلس هناك وتصغي دون أن تستطيع التدخل. كانت في أثناء ذلك مقنعة لدرجة أنني توهمت أن كل شيء يحدث الآن، في هذه اللحظة، وكلما حاولت لاحقًا إقناع ذاتي أنني فوجئت بما حدث له، فإن هذا غير صحيح، أو ليس تمامًا، إذ إنني في الحقيقة أميل أكثر فأكثر إلى الاعتقاد أنه كان ينبغي عليّ توقع ذلك خفيةً، والتنبؤ بمصيره.

على الأقل فإن الجملة التالية كان لها منطقها المرعب، ولم يكن المرء بحاجة إلى خيال واسع لتوقعها.

"الآن يمكنك أن تجرب ذلك".

كان هذا سلافكو مرة أخرى. وكان باستطاعة باول فيما بعد أن يرجع الشريط إلى الوراء كما يحب ليسمع هذه الجملة مرات ومرات، دون أن يغير ذلك من الأمر شيئًا، لقد قال سلافكو ما قاله.

"الأمر غاية في البساطة، إلا إذا كنت تريد أن تمثل فيلمًا سخيفًا"، واصل كلامه. "لستَ بحاجة سوى إلى الالتزام بما شرحته لك".

وفجأة اقترب الصوت جدًا.

"ماذا تنتظر؟".

كان لافتًا أن ألماير ما زال صامتًا، بينما حاول المترجم إقناع سلافكو راجيًا إياه بأن يتخلى عن مزاحه. الغريب أنه تحدث معه بالألمانية، ورغم أنه كان يثير انطباعًا بالخوف، فقد بدا فجأة واثقًا من نفسه، إما ثقة حقيقية أو كاذبة، بل لقد سمح لنفسه بنبرة تشي بالتهكم، عندما ناداه بـ"كابتن"، ولم يتوقف عن الإلحاح عليه إلى أن زعق فيه قائلاً: إنْ لم يخرس، فعليه أن يمشي وراء الأسير إلى الناحية الأخرى، حيث سيصغون إلى أقواله الغبية بكل صبر.

ما زلت أتذكر أنني في البداية لم أحسب أن الفرقعة ناجمة عن طلقة، وأنني حملقت في باول الذي أوقف الشريط برد فعل انعكاسي، ثم شغله على الفور ثانيةً.

ولكن كان يكفيني أن أرى ملامح وجهه حتى تهرب مني كل الشكوك، ورغم ذلك فيبدو أنني حاولت أن أرجئ التيقن من ذلك، حاولت الهرب حتى لا أفكر، ألا أقيم علاقة بين الفرقعة ومسببها، وبدلاً من ذلك رحت أتفرج على رد فعله. كانت على العموم لحظات فحسب، راقبت خلالها كيف تحجرت ملامح وجهه، ورغم أنني أخلط تتابع ذكرياتي دومًا ولا أعرف هل سمعت أولا صرخة ألماير أم أن هيلينا هي التي صرخت، فإنني متأكد من شعوري بالارتياح عندئذٍ.

بعدها تحدث سلافكو مرة أخرى:

Koja budala je pucala?

كانت هذه الجملة آخر ما سمعته، السؤال: مَن الغبي الذي أطلق النار؟ ولا أعرف لماذا أعقب السؤال هذا الوشيش الذي اخترق الغرفة اختراقًا، هل توقف التسجيل، أم أن ثمة سببًا آخر؟ إنني لا أستطيع حتى أن أقول من أين جاء يقيني بأن الرصاصة أُطلقت على الأسير، ولا لماذا لم تساورني أي شكوك في أنها أصابته أيضا. لذلك حتمًا علاقة بفزع ألماير وبأن سلافكو كذلك فقد هدوءه. استغرق الأمر عدة دقائق حتى انتهى الشريط، دقائق كنت آمل فيها أن أسمع تفسيرًا، أو أن أسمع ما يبدد مخاوفي رغم يقيني. انقضت دقائق ببطء، وما زلت أتذكر كيف زاد باول الطين بلة وشرع

يرجع الشريط، ليستمع إلى مقطع هنا أو هناك، ليتوقف دائمًا في النهاية عند الفرقعة التي كانت تبدو في كل مرة أضعف من سابقتها.

لم أره أبدًا هكذا، متراخيًا في جلسته، مستغرقًا تمامًا فيما يقوم به من حركات آلية لتشغيل الجهاز ثم توقيفه، إلى أن وضعت هيلينا يدًا على كتفه وكأنها تطالبه بأن يهدأ ويكف عما يفعله. بدا عليه التعب عندما تطلع إليها، ونظرته التي تصيدتُها كانت توحي باليأس، وكأن أحدًا تخلى عن أوهامه بعد أن لاحظ أن المحاولات التي يبذلها لإعادة شخص إلى الحياة قد أخفقت، وأنه ظل طوال تلك الفترة يبذل جهدًا بلا طائل مع شخص ميت. كان هذا أيضًا ما لمحته على وجهها، وعندما أشعل لنفسه سيجارة في النهاية، ثم وضعها على الفور مثلما كان يفعل في الأيام الخوالي دون أن يسحب منها إلا بضعة أنفاس، لم تتردد هي في أن تتناولها وتدخنها إلى النهاية، بينما توجهتُ إليه بالحديث، لا لشيء إلا لأكسر الصمت.

"وبهذا تحصل أخيراً على الحبكة".

اندفاعي إلى قول ذلك كان طفوليًا. كنتُ في هذه المرة البادئ بالحديث عن روايته، وهو ما كان يفعله في المعتاد، وربما لذلك تصنع عدم فهمي. لم يعد ممكنًا أن أسحب ما قلته، لذا كررت كلامي دون أن أسأل نفسي

كيف فهمه.

"طوال الوقت وأنت تبحث عنها. إذا أردت، يمكنك أن تضيف إليها كل ما تريد. لست بحاجة إلى أن تخترع شيئًا آخر".

ظل صامتًا، وأرسل نظراته من النافذة إلى الظلام الدامس تمامًا في الخارج، بينما تنبهت أنا فجأة إلى الصرخات التي كانت تتسلل من الخارج على فترات بدت منتظمة. تتبعت نظراته، وأرسلت بصري إلى البيوت مقابلنا التي يمكن بالكاد رؤيتها، والتي حجبت جدرانها أشعة النهار الأخيرة، حوافها غير الواضحة تبرز الآن بلون أبيض يميل إلى الزرقة من وسط الرمادي السائد. بدا وكأنه كان ينتظر حتى تتلاشى الخطوط الخارجية للمنازل قبل أن ينطق بشيء. غامت أخيرًا حدود برج التلفزيون المزين بحلقات حمراء كانت تشع ضوءًا في الليل، إلا أنه عندما بدأ يتحدث لم يقل شيئًا مثيرًا، مجرد شكوى عاطفية عديمة الجدوى من أنه في الحقيقة لم يكن يعرف ألماير.

"لو كان باح لي بكل هذا، لما صدقته. كنت سأعتبره "فشارًا" يريد أن يبهرني بحكايات وحواديت مرعبة".

لا أعرف إذا كان متأكدًا من حكمه، ولا أيضًا ما ادّعاه فيما بعد، أن ألماير لا يمكن أن يكون قد أطلق الرصاصة. هل لم يكن يريد أن يدع الفكرة تتسلل إلى

عقله، لأن الإمكانية في حد ذاتها أفزعته، وإنْ كانت ضئيلة جدًا؟ لديه حق، وفق كل ما سمعناه من الشريط لم يكن هناك ما يقطع بمسؤوليته، لكننا لا نستطيع أن نستبعد الإمكانية كليةً. رغم محاولاته المستميتة للدفاع عنه، لم يستطع أن يفسر لماذا لم يشر ألماير أدنى إشارة لهذا الموقف عندما نشر نص مقابلة سلافكو - التي ظهرت بعد أيام من ذلك اللقاء الغامض - هكذا كما حدث في الشريط، ولم يتحدث عن التهديد المستمر له، وكيف عاملوا الأسير، وأنه أمسك بندقية بيده. بقيت هذه نقطة ضعف، لم تزد بسببها الشبهات حوله، لكنها أثارت لغزًا لم يُحل إلا بعد شهور.

حدث ذلك عقب رحيل باول إلى زغرب ليختلي بنفسه من أجل الكتابة، وهو ما يتناسب مع الحكاية التي يرويها، ومع غرابة أطواره، لا يتحدث كلمة كرواتية واحدة، ومع ذلك يظن أن إقامته في كرواتيا لمدة ما "ستفيد روايته"، على حد تعبيره. استأجر غرفة في فندق بالاس في ساحة شتروسماير، عازما على أن يمكث هناك حتى يبدأ قيظ الصيف الذي ربما يطرده من المدينة قبل أن يود مغادرتها. وبذلك كان مرة أخرى في موقف يعتقد أن من دونه لا يستطيع أن يفعل شيئًا، وإذا كان قد اتفق مع هيلينا ألا تزوره في الفترة الأولى حتى يجد نفسه مجبرًا على أن يدبر أموره بنفسه، وألا تتصل به تليفونيًا إلا في أضيق نطاق، وألا تستغرب -

في حالة كتابة رسائل له - إذا لم يرد، فإن ذلك كله منبعه الجنون فحسب، تخاريف ترغمه على الاعتقاد بأن عليه أن يشق طريقه مستقلاً في بيئة غريبة، بل وربما التعرف إلى أناس جدد.

على الأقل هذا ما استشففته من تصويرها للأمور، وما زلت أتذكر كيف تحدثت عنه وهي تهز رأسها عندما التقيتها لأول مرة بعد حوالي أسبوعين من سفره. تكلمت بنبرة مَن يتحدث عن أحد أقربائه البعيدين، نبرة لطيفة وودودة لكنها مفعمة بالتهكم الهادئ، نوع من الازدراء يبين لي من دون شك أنها لن تقبل أن يصدر إليها أوامره. لم تستطع أن تفهم سر هذه الضجة التي يفتعلها حول الكتابة، والطريقة التي قالت بها ذلك وحدها - هذا المزيج من السخرية والجدية - فضحت كل شيء. كانت تتصوره شخصًا يرتدي سروالاً يصل إلى ما تحت الركبة، خرج إلى الشارع مع مصيدة فراشات وظل يحركها في الهواء إلى أن ينجح ربما في صيد فراشة، أو إلى أن يتخلى عن جهوده بعد أن يفقد أعصابه.

الاتصال الأول قام به هو، وكان مع شرايفوجل - ذلك الصحفي الذي كان من المفروض أن يرافق ألماير في رحلته آنذاك لإجراء الحديث الصحفي، لكنه بقي في النهاية في زغرب - وفي رأي هيلينا فإن أفضل ما خطر

على بال باول هو أن يعهد بنفسه إليه.

"كان يعلم أنه باعتباره مراسلاً لعدد من الصحف الألمانية عاد ليعيش في المدينة، ولهذا تواعد معه بعد وصوله بأيام". ثم أضافت: "ومهما توقع باول من وراء لقائه به، ورغم أنه لم ينجح في تفسير كل شيء، فإنه مع هذا أضاء بعض النقاط الغامضة على ما يبدو".

حسب زعم باول فإنه أراد أن يلقاه في المكان الذي تقابل فيه هو نفسه مع ألماير بعد عودته من الجبهة، وكان ذلك في فندق إسبلانادا، وعندما سمعتها تتحدث عن ذلك، تخيلت ظهوره هناك: رجل قصير ومع ذلك منكمش على ذاته، لا يتوقف عن مضايقة الجرسونات بأقواله وتلاعباته اللفظية التي عفا عليها الزمن، مثل "سأشرب الشاي في القهوة" أو "الحساب يوم الحساب"، ثم ينفجر عقب ذلك في ضحكة هستيرية. إذا صح ما قالته، فقد وضع على الفور شهادة نزع الملكية التي كان يحملها، "قرار مجلس تحرير الشعب اليوغسلافي المناهض للفاشية"، حسبما راحت تكرر باستمتاع، وبناء عليه تؤول كافة أملاك أجداده في سلوفينيا إلى الدولة، شهادة مؤرخة في صيف أو خريف ١٩٤٥، ورقة بالية مصفرة تميل إلى اللون البني، راح يعرضها وكأنها بطاقة هوية تمنحه حقوقًا إضافية، وهو ما جعله شخصًا أكثر إثارة للضحك مما هو في نظري، وبعد كل ما سمعته

عنه. قبل عشر سنوات، وفي أثناء الحرب في كرواتيا، كان شرايفوجل يدخل هذا الفندق ويخرج منه كما يحلو له؛ ووجدت نفسي مجبرًا على التفكير في صور المشاهير المعلقة في بهو الفندق عندما سمعتها تتحدث عن نوادره وهي لا تكاد تصدق حرفًا منها، حكاياته الوحشية عن الأشخاص الذين كان يقابلهم المرء في ممرات الفندق قبل بدء المعارك مباشرة، تجار السلاح وبارونات الحرب الذين كانوا يجلسون هناك تحيط بهم صحبة مشهورة من صور الممثلات والمغنيات المعلقة على مدخل صالة الاحتفالات.

البناية المربعة ذات اللون المائل للخضرة تشبه من الخارج القلعة، وهيلينا كانت مقتنعة بأن باول كان بحاجة إلى هذه الخلفية حتى يصدق ما يحكيه شرايفوجل عن وقائع لقائه بألماير.

ما أثار عجبي هو أنها تحدثت عن ذلك وكأنها كانت حاضرة معهما، وكأنها تراهما أمام عينيها، الأول ما زال متعبًا من رحلته إلى فينكوفيتشي، بينما الثاني ينتظر في انفعال وترقب.

" يقول إنه لاحظ على الفور أن ألماير كان منكسرًا بمجرد دخوله. لو لم يكن قد رآه قبلها بيومين، لما تعرف عليه إلا بصعوبة".

لم أجد في ذلك ما يخرج عن المألوف.

"على كل حال كان ألماير قبلها بيومين على الجبهة".

قلت ذلك حتى أقول أي شيء، ولكنني كنت مخطئًا عندما ظننت أنني سأعرف أخيرًا ما حدث هناك بالضبط.

"يبدو أنه لم يحكِ له كثيرًا عن المقابلة"، قالت ردًا على سؤالي. "من الواضح أنه حذره فحسب من القيام بمثل هذه الرحلات، مؤكدًا المرة تلو الأخرى أنه كان محقًا تمامًا في عدم سفره معه".

عندئذٍ شرب كأسين من النبيذ، متجرعًا كل كأس مرة واحدة، وجلس بيدين متشابكتين، ناظرًا إلى شرايفوجل، ومقدمًا اعتذاره لأنه لا يميل إلى الكلام. بعد برهة شرع من جديد في الثرثرة ليتوقف في منتصف الجملة ويسأله عما إذا كان يتكلم أكثر من اللازم. وانتهى اللقاء بأن دعاه ليسافر معه في الصباح التالي إلى جراتس، وهو يكاد ينفجر بالدموع، وانتزع منه عدة مرات الوعد بألا يتركه وحيدًا، ولم يتوقف عن رجائه واستعطافه إلى أن أجبر على التوقف عن كلامه الممل، إذ إن رجلاً اقترب من مائدتهما، وما زلت أتذكر أنني اعتبرت في البداية وصف هيلينا له مبالغًا فيه، إلى أن أضحى في رأسي أنا أيضًا رسمًا كاريكاتوريا لذاته، رجل غليظ الأطراف بشعر دهني - إذا صدقت وصفها -

أتى ووقف سادًا الطريق على ألماير. وقف أمامه مسترخيًا وكلا إبهاميه في حزام البنطلون وقطعة من السواك في فمه. لم يكن المسدس الذي برز من تحت الجاكيت هو مصدر التهديد المنبعث منه، وإنما تصرفه على نحو بديهي، سلوكه الذي كان يشبه أبطال الأفلام، على حد قولها، أراه الآن أمام عيني وهو يتحدث إليه باحتقار من أعلى. لم أكن بحاجة إلى وصفها الدقيق، أنا أيضًا أستطيع أن أتخيله وهو يسأله عن المقابلة الصحفية، وكيف أظهر له بابتسامته المستفزة التي وضعها طوال الوقت على شفتيه أنه يعرف كل شيء، كيف وضع يده على كتف ألماير تاركًا إياها برهة بكل ثقلها، وبصوت أخنف خافت ينطق الجملة التي كررتها هيلينا الآن بالحرف الواحد، أنه لا يشك أدنى شك في أنه سيصنع حكاية جميلة مما رآه، ثم وكرر مرة أخرى بلا داع، حكاية جميلة، أليس كذلك، حكاية جميلة.

طوال الوقت لم ينعم على شرايفوجل بنظرة واحدة، وقبل أن ينصرف أومأ إليه وكأنه يعرفه من زمان. ثم قالت:

"على ما يبدو طلب قبلها أغلى أنواع النبيذ ثم قرع معهما الأنخاب. في أثناء ذلك، وحسبما روى باول، قال لهما "سادتي!"، ولكنه انصرف كما ظهر فجأة دون أن يرشف رشفة".

كان هذا تحذيرًا بما فيه الكفاية. ولكن في اليوم التالي - في أثناء رحلتهما المشتركة إلى جراتس - جاءه اتصال تليفوني، وسمع من يقول بخفة إن حالة صديقك ليست على ما يرام، لقد ثرثر، وعرف ألماير على الفور أن المقصود هو المترجم. لم يحتج أكثر من نصف ساعة حتى تأكد من أنه قُتل، أطلق عليه الرصاص لدى مغادرته المنزل، وإذا لم يكن قد فهم الرسالة فيما قبل، فقط عرف الآن على أبعد تقدير ما كانوا ينتظرونه منه. كل شيء آخر كان معروفًا، المقابلة المنشورة في صورتها المخففة، دون ذكر القتيل بكلمة واحدة، وبقيت الحكاية بائسة، لم يعد بإمكانه أن يصححها، فراغ بين الكلمات، الشعور بالنهاية المفاجئة دون أن تكون هناك بالفعل نهاية.

لم تتحدث هيلينا عن هذه النقطة بعد ذلك، ولم أعرف التكملة إلا بعد أيام عندما اتصل بي باول قائلاً إن ألماير - حسبما زعموا - قد صعب عليه للغاية أن يتعامل مع الأمر.

"وجه لنفسه الاتهامات بأنه المسؤول عما وقع. ربما شعر بأن من الجبن الشديد ألا يكتب عن الحادثة، ولكن لم يكن لديه خيار آخر".

كنت أود أن أذكّره أن ذلك لم يمنع ألماير من أن يخطف زوجة باول إلى شلادمينج، غير أنه نفسه تحدث

عن الموضوع، وتكهن مرة أخرى عن سبب تقربها إليه وتآلفها معه إلى هذا الحد.

"ربما يكون حكى لها كل شيء"، قال ذلك وكأنه في الحقيقة ليس مقتنعًا بذلك. "لعله فضفض لها بما في قلبه خلال موجة الانفعال الأولى".

ثم تراجع عن كلامه.

"لو أن الأمر هكذا، لكانت أخبرتني".

مجرد ذكرها كان يكفي حتى تبدو نبراته ضائعة من جديد، ثم خفض صوته للغاية وهو يقول: لو كان قد عرف ما عايشه الرجل قبلها مباشرة، لتقبل بسهولة أن يراهما معًا. مرة أخرى بدا ذلك تجميلاً لما كان، ولكن من الواضح أنه يعتقد ذلك بالفعل، وكان متأكدًا من أنه عندئذٍ كان سيعرف كيف يواسيه، بدلاً من أن يقف هناك صامتًا، ويثير انطباعًا بأنه لا يريد أي علاقة معه بعد اليوم، وأنه لم يجئ سوى لاصطحاب زوجته. ثم ادّعى فجأة أن السماء أثلجت، وأنهم تمشوا ثلاثتهم - وهي في المنتصف - في الثلج الذي غاصت فيه أقدامهم، غير أن ذلك بدا له في اللحظة التالية أكثر من اللازم، وبدا له هو أيضًا تنميقًا وقحًا لما جرى، لذا قاطع نفسه في منتصف الجملة وضحك، وكأن ما حكاه هو قمة الجنون.

عندئذٍ قال إن ألماير سافر بعد يومين إلى جنازة مترجمه، ثم أضاع جهده في أتفه التفاصيل.

"أعتقد أنني ما زلت أعرف أين أقيمت"، قال وكأن هذا مهم. "إذا لم أكن أخلط الأمور ببعضها فإن المكان اسمه برزنيك، ويقع بالقرب من برتشكو على الحدود البوسنية الكرواتية".

لم يكن بإمكاني أن أقول شيئًا بهذا الشأن، لذا رحت أنصت إلى رنين الكلمات القاتم، منتظرًا ما إذا كان سيضيف شيئًا، لكنه صمت. وعلى حين غرة سمعت في الخلفية ضوضاء المرور بوضوح تام، فسألته إذا كان يقف في كابينة تليفون، لكنه نفى، وقال إن نافذته مفتوحة لأن الطقس حار. ثم قاطع نفسه مرة أخرى، وراح على ما يبدو ينصت، وكأنه يتحرق شوقًا إلى أن أطرح سؤالاً حتى يستطيع أن يواصل الحكي، وعندما استفسرت عما سيفعله في المساء، قال: لا شيء، الخروج والتمشية؛ فتخيلت الشوارع وضوء المساء يخبو، ووجدت نفسي أقاوم شعورًا فجائياً اجتاحني وولَد عندي شوقًا إلى أن أرجع مائة عام إلى الوراء، وأن أذهب إلى مدينة تهدأ فيها حركة الناس وتنتشر فيها الوداعة التي ربما لم تكن موجودة أبدًا، ولم تكن تنبع إلا من النوستالجيا المعششة في رأسي.

كان هذا بالتأكيد هو السبب الذي حملني على سؤاله فور اتصاله بي في المرة التالية عن دور شرايفوجل. كنت أود أن أعرف ما إذا كان يصدق أنه لم يكن بالفعل

يدري شيئًا عما حدث آنذاك على الجبهة في سلوفينيا، أم أنه يظن أنه يمتنع عن الكلام فحسب. أجاب بأنه لا يعرفه جيدًا حتى يحكم عليه، ولكن في الوقت نفسه ليس ثمة سبب يدعوه إلى أن يجعل من الأمر سرًا بعد أن توفي ألماير، لماذا يمثّل إذا كان في الحقيقة يعرف تمامًا ما حدث؟ ولهذا ليس هناك، في رأيه، داع للكلام في هذا الموضوع.

لا بد أنني في هذه المناسبة سألته مرة أخرى ماذا سيفعل بالمقابلة المسجلة على الشريط. كنت قد سألته بعد سماعنا الشريط معًا عن ذلك، لكنه راوغني ولم يجبني، والآن أيضًا لم يبد أنه فهم سبب اهتمامي به. من الواضح أنه لم يكن لديه أدنى فكرة عما يفعله بالشريط، غير أنه قال إنه ربما يرجعه إلى إيزابيلا في يوم ما، وعندما قلت إنه شيء لا يُحتمل أن رجلاً مثل سلافكو يسير حرًا طليقًا، بينما لدينا الإمكانية لإدخاله السجن، ضحك ولم يقل شيئًا.

"أنا لا أعرف ما الذي تريده مني. إذا سألتني عن رأيي، فسأقول لك إن الشريط لا يثبت أي شيء، أي شيء على الإطلاق". ثم أضاف بعد برهة: "هل عليّ أن أرسله إلى النائب العام؟".

رغم أنه لم يكن يراني بالطبع، أومأت برأسي، وتخيلت تخيلاً عبثيًا أنه رد عليّ بهزة رأس مستنكرة،

قبل أن يواصل:

"لا يمكن أن تكون جادًا فيما تقول".

لم أحب نبرته التهكمية.

"سيان إلى مَن"، أجبته دون أن أهتم بما قاله، "هناك حتمًا شخص مسؤول عن ذلك".

وبهذا انتهى الموضوع، فلا هو ولا أنا عدنا للحديث عن ذلك، وعندما أتذكر الأمر أجدني على اعتقادي بأنه كان عليّ أن أكون أكثر إصرارًا. لا أعرف لماذا صدني، بالتأكيد لأنه كان يتخوف تخوفًا مضمرًا لا عقلانيًا من احتمالية التورط في شيء له صلة، ولو واهية، بالواقع. إذا كنت اعتقدت في البداية أنه حريص على المعلومات التي حصل عليها ولا يريد التفريط فيها، بل يفكر في كيفية الاستفادة منها، فإنني أميل الآن إلى الظن بأن ذلك كان يرجع إلى موقفه فحسب، إلى لوثته الجنونية التي جعلته يتصور أن من التطاول والتكبر أن يفكر مجرد تفكير في التدخل والإقدام على فعل شيء جدي.

في الأسابيع التالية داوم على الاتصال بي كل عدة أيام، وبالكثرة نفسها تقريبًا كنت أقابل هيلينا. كنت أتواعد معها لنلتقي بعد العمل، وعندما أصل المنزل كان من الممكن أن أسمع جرس التليفون، ثم أجده على الخط، أو يتصل بي قبل الظهر، بينما كنت ألتقي بهيلينا في الظهيرة. كانت لقاءاتنا شبيهة بتلك بعد الحادثة

التي تعرّض لها، الفارق الوحيد هو أنها لم تعد تذكره بكلمة تقريبًا، وهو أيضا تجنب أن يذكرها، وإن كان في بعض الأحيان يهديني تحياتها، وكنت أتعجب من أنه لا يعرف أنني سألتقي بها بعد قليل، أو أنني رأيتها لتوي، ولهذا اقتصرت على قول "شكرًا".

رغم أنني غير متأكد على الإطلاق، فإنني أعتقد أن زوجته ربما تكون سافرت لزيارته في تلك الأثناء. ينبع ذلك من شعور مبهم لدي، فعندما سألته: "كيف حال الكتابة؟"، رد بالسؤال إذا كنت أريد أنا أيضًا أن أجعله يصرف نظره عن ذلك، وأن أنصحه ألا يظل مختبئًا طيلة حياته في حفرة ما لأنه يخشى مواجهة العالم. جعلني ذلك أظن أنها حاولت قبل قليل أن تنتشله مرة أخرى من مأزقه التعس، لكنه صمد هذه المرة ولم يذهب معها. لن يكون ذلك شيئًا غريبًا، ولكن الخشونة والفظاظة التي يتسم بهما أحيانًا لفتا انتباهي، وعندما أفكر لاحقًا في النتيجة التي ربما توصلت إليها، أشعر بالندم لأنني لم أستجب لرد فعلي الغريزي، ولم أسأله عنها.

بعد عيد القيامة نشرَ في الصحيفة أول ريبورتاج كبير عن إقامته هناك؛ تقرير كئيب عن بلد ما زالت عواقب الحرب فيه حية بعد سنوات على انتهائها. كان واضحًا أنه سمع عن إقامة جنازة في أجواء تبدو

شبحية، في قرية صغيرة من أرياف سبليت، فسافر إلى هناك ليرسم صورة تقشعر لها الأبدان. نُظمت الجنازة لدفن رفات ما يزيد على المائة من الجنود الكروات الذين اغتالهم - حسبما زعموا - الفدائيون خلال الحرب العالمية الثانية. استخرجوا الرفات قبل تسع سنوات، والآن - وبعد أن تعرفوا على هوية بعضهم - يريدون إعادة دفنهم. الضجة الكبيرة التي أثاروها، ومجيء أسقف خصيصًا ليتلو صلاة الموتى في حضور ما لا يقل عن ثلاثين قسيسًا، كل ذلك ولّد في قلبه انقباضًا لم يفارقه. حسب تقريره حضر مئات من الأقارب والمعزين، طابور طويل لا ينتهي من السيارات التي كانت تظهر فجأة لدى اقترابه من القرية، عدد كبير منها يحمل لوحات ألمانية، زحام في المقابر حول باص أبيض بداخله الصناديق المعدنية المرقمة، الصناديق التي تحوي العظام والمحكمة الإغلاق باللحام، لم يستطع أن يحول بصره عن العجائز المتشحات بالسواد اللائي كن يقتربن من نافذة صغيرة، لتقف الواحدة بعد الأخرى لحظات ملقيةً نظرة إلى الداخل، ثم تبتعد صامتةً أو تُسحب بعيدًا وهي تذرف الدمع. كانوا قد أخلوا الطريق إلى الكنيسة، وعلى جانبيه وقف رجال قصار ممتلئون يحملون شموعاً، يضغطون على ضروسهم لكظم تأثرهم، وعلى المدخل وقف اثنان يحملان الرايات، وسقط شيخ مغشيًا عليه دون أن

يصدر صوتًا في اللحظة التي بدأ فيها القداس الذي أذيع في الخارج عبر مكبرات الصوت. وربما أثار رجل أربعيني اهتمام باول على نحو خاص. لم يكن السبب هو حرف الـU على توكة حزامه، بل الطريقة التي وقف بها ناظرًا إلى الجموع، رجل ضخم الجثة، مزيج من الحارس والشماس، ترك بصره ينساب عبر الهضاب وصولاً إلى الجبال، وهو ما أثار قلق باول بشكل واضح. هوس باول بإثبات كل التفاصيل بشأن هذا الرجل توحي بأنه مارس عليه ما يشبه التنويم المغناطيسي الكامل. كتب أن صوت هذا الرجل تحديدًا كان هو الأعلى في الصلاة والتراتيل، وأنه كان أحد القلائل الذين يركعون في المواضع المحددة، يخلع البيريه ثم بخشوع يقرع صدره، وعندما ينهض يظل عدة لحظات عاري الرأس، ويظهر شعره المقصوص بعناية وفقًا لموضة الخمسينات، قفاه محلوق بصرامة، وخصلة شعر تقف في الأمام مثل ولد شقي. حاول غير مرة وصف وجهه، لكنه لم يتعد عبارة: أن ما يميزه هو مزيج عجيب من اللين والصلابة، في عينيه غربة عن هذا العالم، وهما تجمعان بين بلادة المتعصب وحماسته النارية في آنٍ واحد، بشرة الوجه الشاحبة محلوقة بعناية فائقة، والفم الصارم مزموم، يوحي لونه بأنه يخلو من الدماء.

وصفه له أمام المقابر الضخمة أثار في خيالي

أجواء عتيقة، وكأنني أرى أمامي مشهدًا من العهد القديم. حسب زعمه بدت السحب المارة في السماء أكبر من البيوت التي كان يمكن رؤيتها من الجبانة، وعندما حكيت له فيما بعد على التليفون عن الانطباع المتضارب الذي يثيره وصفه للرجل، تردد في البداية طويلاً وظل بحذر يتحسس إجابة، إلى أن قال:

„لقد أعاد إلى ذاكرتي شيئًا من طفولتي".

لذت بالصمت، وعندما سألني عما إذا كنت لا أزال على الخط وأجبت بنعم، تمهل لحظات قبل أن يواصل كلامه، وبدا أنه ينصت بعد كلمة يقولها ليتأكد من أنني ما زلت بالفعل أسمعه ولم أترك السماعة وأنصرف.

„كان الرجال في قريتي يمشون مثله بعد زيارة الكنيسة إلى المقهى للعب الورق قبل ظهر يوم الأحد. كان لهم نفس الكاريزما. كنت أخشاهم دائمًا، ولكنني في هذه الخشية بالذات كنت أبحث عن الشعور بالأمان".

وسرعان ما شعر بأنها مبالغة.

„على الأقل لم يكن لدي خيار آخر".

لم أستطع أن أتخيل سوى شيء غائم وضبابي للغاية، وعندما سألته عما إذا كان بهذه المقارنة مع رجل المدافن يظلم أهل قريته، لم يجب عن السؤال إجابة حقيقية. قال إن ثمة رائحة معينة، لا تختلف عما ذكرته

هيلينا ذات مرة. لم أستطع أن أستخرج منه أكثر من ذلك، محاولات متكررة لشرح ما كان يميز مظهر هؤلاء الرجال، حتى قبل أن يفتحوا أفواههم بكلمة، محاولات كانت تنتهي بالعبارة البائسة، أنني لن أفهم ذلك طالما أنني لم أمر بمثل هذه المواقف. الشيء الوحيد الحاسم الذي انتزعته منه - وإن كان نمطيًا شائعًا - أنهم رجال يعاملون حيواناتهم أفضل من نسائهم وأطفالهم، ومع ذلك، وإذا تطلب الأمر، فإن الواحد منهم يأمر كلبه بأن يمشي خمسين خطوة ثم يقف، وبسلاح الصيد يطلق عليه الرصاص بدم بارد.

ثم حكى لي أنه سافر إلى الهرسك، إلى شيروكي بربيك، كي يزور هناك دير الفرنسيسكان، حيث تم تجنيد العديد من قادة الأوستاشا خلال الحرب العالمية الثانية، وبدا صوته مهزوزًا وهو يقول إن الدير ذكّره بالمدرسة الداخلية والسنوات التي قضاها في „الكونفيكت" الكاثوليكي للصبيان. وصل إلى المكان في الظهيرة. كان اليوم الدراسي قد انتهى لتوه، ثم هجم سرب من البنات على الكنيسة، في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر، ورحن يتصرفن على نحو طفولي للغاية مقارنة بأعمارهن. شاهد باول البنات وهن يركعن على كراسي الصلاة بجفون منسدلة وأيد منبسطة. كل شيء أثار لديه الألفة على نحو مريع، على حد قوله؛ الضوء الواهن، رغم أشعة الشمس النافذة عبر

الشبابيك الجانبية، رائحة الهواء الرطب المكتوم التي تذكّر برائحة الأقبية، وقع الخطوات دون أن يرى المرء أحدًا، حفيف الأوراق، الظلال التي تمر سريعًا على الحائط. بأنفاس مكتومة ظل واقفًا هناك. شعر بالغموض نفسه والسكون ذاته الذي كان يشعر بهما آنذاك، هكذا تراءى له، أحس بالدوار نفسه الذي كان يصيبه من رائحة البخور عندما رأى راهبة تعزف على الباينو عند الهيكل، ورغم أنه حاول جاهدًا أن يستحضر الأجواء هناك، فإنه قاطع نفسه في النهاية قائلاً:

„هذه للأسف نصف الحكاية فقط".

ثم سألني ما إذا كنت أريد أن أسمع بقيتها، وعندما لزمت الصمت راح يتحدث عن الجنرال الذي كان باول يلحّ طيلة الوقت في الصيف الماضي على إحدى جارات والدي هيلينا كي تحكي المزيد عنه، ثم ذكر أن أمرًا باعتقاله صدر منذ شهور قليلة، وأن الشائعات المنتشرة تقول إن الرهبان خبأوه في الدير. ثم أضاف:

„بالنظر إلى تاريخهم المظلم لن يثير التعجب أن يكون قد وجد عندهم هم بالذات الملجأ الآمن، فهو لم يكن بالنسبة لهم بالتأكيد شخصًا يثير الريبة، خاصة إذا أخذنا في الحسبان أنهم كانوا في الماضي يعشقون الظهور بالصليب في يد وبالمسدس في اليد الأخرى".

وهنا ناسبه على خير وجه أن ميدشوجوريه -

المكان الذي ظهرت فيه العذراء مريم، ومنذ ذلك الحين يتوافد عليه أفواج من الحجاج - يقع قريبًا من الدير، غير أنني لم أعد أعره إلا نصف أذن عندما ذكر أنه في اليوم نفسه ذهب إلى هناك أيضًا. لم يكن ثمة جديد بالنسبة لي فيما أسهب فيه عن أكشاك التذكارات الدينية الرخيصة، وكيف سخر من الناس الذين يحجون من كل ربوع الأرض إلى هناك؛ بدا لي ذلك أمرًا لا طائل منه، أو أنه استمع لحظات إلى قس ألماني راح يخرف ويثرثر كلامًا أجوف قائلاً إن في هذا المكان بالضبط كانت الحدود الرومانية تمتد بين الراين والدانوب، ومنذ قرون فإن حدود العالم الذي يرضى الرب عنه تنتهي هنا. وافقته على كل ما قاله دون تحفظات، وربما ضايقني هذا، ضايقتني نبرة اليقين الذاتي التي هاجم بها ذلك السحر الخائب، ضايقني أن ما يفعله ويقوله مجاني، بلا مخاطرة، هذا الأمان النهائي، أنه محق ولا يمكن سوى أن يكون محقًا، وهو ما كان ينفره في المعتاد من الآخرين دائمًا، وهو أيضًا السبب في تردده، سبب إصراره على الشك حتى النهاية، اعتراضه المبدئي على الأشياء التي تبدو واضحة بشكل حاسم ونهائي.

ورغم أنني أتذكر بالضبط أشياء كثيرة، فإنني لم أعد أعرف ما إذا كان شرع عندئذٍ يتحدث من جديد عن عزمه السفر إلى كوسوفو حتى يرى أخيرًا المكان الذي قُتل فيه ألماير، لأنه سيعرف المزيد إذا تعرف إلى

الطبيعة هناك، أم أنه تحدث عن ذلك بعد الريبورتاج الثاني والذي وصف فيه رحلة إلى المكان الذي مثلوا فيه إحدى روايات كارل ماي، وتحديدا مشهد موت البطل فينيتو Winnetou. وما زلت مندهشًا من قدرته على خلط المستويات المختلفة، وربط الحادثة الحقيقية في الحرب بالموت في الفيلم، وكأن ثمة علاقة حقيقية، وليس مجرد تخاريف أفرزها عقله. وفق عادته راح ينفعل ويبالغ، وأنا لا أستطيع قراءة رحلته إلى مكان تصوير الفيلم سوى أنها رحلة على طريق الآلام، الطريق من أوبروفاتس صعودًا إلى المضيق الجبلي مالي آلان، ما يزيد على ألف متر فوق سطح البحر، الدرب الوعر المليء بالحصى والزلط، المنحنيات الكثيرة تحت الكتل الصخرية البارزة والمائلة، منظر الخليج من بعيد في الأسفل، وديان زرمانيا العميقة، ثم الأرض المنبسطة وبها الشريط الفيروزي الذي يبدو غير حقيقي، ثم البحر الرحب والجزر.

كنت أتخيل انفعاله جيدًا عندما عرف أن هناك بالضبط، على المرتفعات، كان مسار إحدى الجبهات أيام الحرب. ورغم أن هذه الحقيقة لم تكن ذات أهمية كبيرة، إلا أنه أولاها اهتمامًا خاصًا، وكان فخورًا بأن الجبهة كانت عند المضيق الجبلي، تمامًا كما في حالة ألماير، وأن المكان ما زال موجودًا خلف أسلاك حقل الألغام ولذا لا يمكن الوصول إليه، وهو عبارة عن

منخفض لا يبعد كثيرًا عن قمة الجبل. ثمة دبابة صدئة ظلت هامدة على الطريق، برجها قد انزاح قليلاً عن مكانه، ينقصها بعض الأجزاء في الجنزير وكذلك العجلات، ربما يكون العابرون قد انتزعوها وأخذوها معهم تذكارا، وهو ما أكمل الصورة الموحشة، وعلى حافة الطريق شواهد القبور الحجرية للجنود الصرعى، عليها تاريخ عام ١٩٩٣ أو ١٩٩٥، ثم على غير توقع أطلال منزل خلف أحد المنحنيات، وأكياس الرمل على ارتفاع كبير، مرصوصة فوق بعضها البعض، وكأن نقطة الحراسة لم تُهجر إلا قبل فترة قصيرة، وكأنها ليست موجودة في عبثيتها وخوائها هكذا منذ أمد طويل.

بالتأكيد كانت رحلته غريبة وعبثية. أخذ يتخبط في أرجاء المكان مع مرافقه، رجل عجوز بلا أسنان هو الذي أدخل فكرة السفر إلى رأسه عندما ادّعى أنه عمل آنذاك في الفيلم "كومبارسًا"، وعندما أتخيل الاثنين، باول برغبته الضبابية في أن يجد شيئًا لا يعرف هو نفسه كنهه، والرجل الذي كان يومًا هنديًا أحمر، وهو يقف في الريح بأعين مغرورقة بالدموع، فإن البؤس يجتاحني. اصطاده الرجل حسب زعمه في أحد البارات، والطريقة التي تحدث بها فيما بعد عنه - أنه قبل أن ينطق بكلمة راح يريه صورًا له ولأبطال الفيلم، صورًا قديمة، ضاعت ملامحها ولذا لم تتح له أن يتعرف عليه، وكيف وضع الصور أمامه منتظرًا - كل ذلك جعلني أفكر

أنه في النهاية لم يبقَ من الموتى الحقيقيين أكثر من موتى الفيلم. وإذا لم أكن مخطئًا فقد كان هذا بالضبط ما قصده عندما تكلم عن شعوره بالوحده القاسية معه، كيف شعر أنه ضائع في مكان ما بين السماء والأرض، وطبعًا كان لا بد أن يقول إنه لم يتذكر كل ذلك فحسب، بل شعر فجأة شعورًا مؤلمًا بمدى البؤس الذي أحس به طفلاً لدى موت فينيتو.

كنت أعرف ذلك، بل ولعلي كنت أنتظر هذا التحول عنده. لم يكن هو أول من يحكي لي أنه بكى في أحد مشاهد فيلم ما، ولكنني كنت أنجح دوما في أن أتجنب مثل هذه الأحاديث، لأنني لا أعرف لها جدوى. ولذلك زاد تعجبي عندما سمعت نفسي أوافقه على ما يقول، ليس هذا فحسب، بل دون أن أنتبه كنت قد شططت قائلاً إن ترنيمة "آفه ماريا" كانت تجعل الدموع على الفور تنهمر من عيني.

"أنت قرأت الكتاب إذن"، قال وكأن الفارق مهم جدًا. "لقد قرأت المشهد بالتأكيد في الكتاب لأن الترنيمة لا ترد في الفيلم".

كان قد سافر قبلها مباشرة من زغرب إلى جراتس لقضاء عدة أيام، وتفرج على المشهد مرة أخرى عند بعض الأصدقاء، وكان استمتاعه واضحًا برواية التفاصيل على التليفون، ورغم أنه حاول جاهدًا أن

يظهر سخريته المرة تلو الأخرى، فقد كنت أعرف أنه يفكر في ألماير، وشيء ما في صوته لم يطاوعه عندما سألني عما إذا كنت أريد أن أسمع الكلمات الأخيرة التي نطق بها المحتضر.

"فينيتو يسمع من بعيد الأجراس تناديه"، هكذا بدأ دون أن ينتظر ردًا مني، وربما بصوت أكثر جدية مما كان يريد. "أليس كذلك يا أخي؟".

وضحك، لكن رنين الضحكة كان متكلفًا للغاية.

"أخي، على روح فينيتو أن تصعد".

وفجأة تذكرت أنا أيضًا المشهد، وأكملت الجملة التالية كأنني مُعلّق في إحدى تمثيليات الراديو: "فينيتو مستعد".

ضحك، وأضاف في صوت هامس تقريبًا: "وداعًا".

لم أستطع سماع شيء آخر، إلى أن ضحك ثانيةً، وما زلت أتذكر الموضوعات الأخرى التي تحدثنا عنها في هذه المناسبة. وكأن الموقف لم يكن جنونيًا وعبثيًا بما فيه الكفاية، فإذا به يقحم هيلينا في اللعبة بعد عدة أيام، متحدثًا للمرة العشرين عن ألماير ومكان الحادث في كوسوفو. كانت الطريقة التي فعل بها ذلك تكفيني لكي أنظر إليه، بصورة نهائية، باعتباره مخبولاً. كان لديه دومًا أكثر الأفكار تطرفًا ومغالاةً إذا تعلق الأمر بروايته، وكان دومًا يسألني عن رأيي، ولكن ما فعله بي

الآن فاق كل ما سبق، وما زلت أتعجب من أنني سايرته من الأساس، وأنني احتجت إلى كل هذا الوقت حتى أطلب منه أن يتوقف عن إشراكي في تخاريفه وأن يتركني في سلام. لعله لم يكن يعرف إطلاقًا أنه تجاوز هذه المرة كافة الحدود، كان ينبغي عليّ أن أشرح له ذلك، ولعله كان سيسأل في براءة تامة لماذا أتصرف هكذا، وعما حدث لي، وهل وقعت في حبها، أو أن عليّ أن أذكر له سببًا واحدًا لحساسيتي المفرطة وانفعالي الفجائي هكذا.

كنتُ معها طيلة العصر، ودعوتها أيضًا أن تأتي معي إلى البيت، وفي اللحظة التي فتحتُ فيها الباب رن التليفون، وشرع على الفور في الحديث حتى قبل أن يذكر اسمه. كنت قد تمشيت معها على نهر الإلبه، ثم جلسنا في مقهى في شارع الميناء كنت قد جلست فيه معه ذات مرة. بدا أنها تتصرف بخفة أكثر من المعتاد، وكأن ماضيها بكل ثقله قد انزاح عنها، كانت تكثر من الضحك، وأمسكَت عدة مرات بذراعي، وعندما حاولتُ مرارًا أن أدير رأسها، قالت بصوت حلقي إنني لن أتغير أبدًا. لذا فإن آخر ما كنت أتصوره أن أتحدث معه الآن. سمعتها تقول لي إن علي أن أتوقف عن حماقاتي، وتناهت إلى أذني كركرتها عندما واصلت معابثتها، ولم أكن أريد على الإطلاق الاستماع إلى هذيانه. ولكن كلمة جرّت الأخرى، ولم أستطع التخلص منه.

كلا، لم تكن هي المرة الأولى التي يتحدث فيها عن دورها في الرواية، وربما يرجع السبب في نفوري الحاد هذه المرة إلى حضورها، أو لعله يرجع إلى صفاقة خياله، أو إلى أنه لم يعد يبذل أي جهد في التفرقة بينها وبين الشخصية في الرواية التي من الواضح أنه رسمها على نمط هيلينا.

"يمكنني أن أصحبها معي في الرحلة إلى مكان الحادث"، قال مباشرة، بعد أن ظل لحظات مترددًا يلف ويدور. "أرى أنه سيكون من الشيق أن يحدث لها هناك مكروه".

هذه الجملة وحدها كان عليها أن تحذرني، غير أنني لم أكن حاضر البديهة بما يكفي حتى أوقفه. حاولت أن أتهرب منه، بينما سألتني هيلينا همسًا إذا كان هو على الخط، وعندما أومأت واصل قائلاً:

"من الممكن أن نتورط في كمين".

كان هذا من العبث بحيث أنني لم أقل شيئًا، بل حولت بصري عنها، وراح هو يرسم تفاصيل ما يمكن أن يحدث، بصوت يخلو من الانفعال، صوت رتيب مبحوح.

"المشهد مثير إلى حد كبير عندما أتخيل أن تقع في يد زعيم إحدى العصابات"، واصل كلامه دون أن يبدو عليه أي درجة من القلق. "ليس ضروريًا أن يحدث لها

شيء فظيع، ولكنني سأجد بالتأكيد شيئًا يناسبها".

لم أعرفه هكذا أبدًا في كل المواقف التي عشناها معًا، وعندما رجوته أن يكبح خياله الجامح، تجاهل ما قلت، وواصل ببساطة كلامه وكأنني لم أقل شيئًا. "من الممكن أن تخطو فوق لغم"، أضاف، "بل ربما تكون حاملاً". حاولت أن أنظر في عينيها. كان يتصرف وكأنه يعرف أنها موجودة عندي، مُصرًا على الحديث عنها، ثم أطلق تكهناته عنها، وهل يجعلها تواصل الحياة أم لا، ووجدتني عاجزًا مرة أخرى عن النطق بحرف واحد. رحت أشاهدها فحسب وهي تزداد حيرةً إلى أن لمع في النهاية شيء من الفزع في عينيها. ذهبَت إلى النافذة حيث وقفَت مرتكزة على مرفقيها، ونظرت إليّ وكأنها تستطيع من ملامح وجهي قراءة التخاريف التي يطلقها، وفي الوقت نفسه راحت تسخر منه، مقلصةً عضلات وجهها وكأنها تقلده، فنظرت إليها مبتسمًا، وفي اللحظة نفسها قاطعته أخيرًا، فحاول أن يبرر موقفه:

"هذا هو ما يريد الناس قراءته".

لم أكن أحب أن يرى فيّ حليفًا، وكأن ذلك من بديهيات الأمور. عارضته قائلاً:

"أنت نفسك لا تصدق ذلك". ثم علا صوتي: "ولماذا تحكي لي كل هذا؟".

لم يجب، وانتظرت لحظات اعتقدت خلالها سماع

أبواب تُصفق في الخلفية، وكنت أريد أن أسأله عمن عنده، لمجرد مواصلة الحديث، غير أنني غيرت رأيي، وبكل بساطة أهنته قائلاً:

"لا تتصل بي إذا كان هذا هو كل ما يدور في رأسك". ولم أكن مطلقًا بحاجة لبذل جهد كي أتحدث بصوت خافت، إذ أن صوتي تهدج وانخفض وأنا أقول ذلك. "لا أريد أن تكون لي أي علاقة بأوهامك وتخاريفك".

وقبل أن يستطيع التعقيب بشيء، كانت هيلينا قد وضعت يدها على التليفون وقطعت الخط. أحببت البديهية والتلقائية التي فعلت بها ذلك. لم ألحظ اقترابها مني، وأنها ظلت قريبة مني للغاية. وعندما حاول الاتصال بعد ذلك مباشرة، لم أرفع سماعة التليفون، وتركت الجرس يرن، ثم بعد فترة قصيرة حاول من جديد، ثم تخلى عن محاولاته. فجأة خيّم الصمت، ومن الخارج أيضًا لم ينفذ صوت. احتضنتها عندما سألتني عما كان يقوله، ورحت أتلمس بوجهي شعرها دون أن أجيب، أخذت أشم شعرها دون أن أشبع من شذا قربها. لبرهة ظللت واقفا هناك معها، ألاحظ الإظلام التدريجي في الخارج، متمنيًا ألا أكون قد سمعت حرفًا مما حكاه عنها وعن مصيرها، مستقبلها كما رسمه لها، أو غياب المستقبل بالنسبة لها، ووجدت

نفسي أكافح حتى أتغلب على مخاوفي، التي ربما كانت محض خزعبلات، مخاوفي من أن كل شيء تم النطق به يومًا سيبقى على الدوام ولن يختفي من هذا العالم.

لكن مبالغاته هذه المرة بدت لي عبثية، وبرأيي لم يكن ذلك يتناسب معه، فهو دائمًا يفيض تهكمًا تجاه كل الذين يملأون الدنيا صياحًا قبل الحرب وبعدها، أولئك الذين لا يشبعون - على حد قوله - من التغني والتفاخر بما عايشوه. كان بإمكانه أن يكون حساسًا سريع التأثر، مثلما وصفت إيزابيلا ألماير ذات يوم، وكأن وصف كارثة أشد هولاً من الكارثة نفسها، ولم أشك في أنه كان أحيانًا يعاني جسديًا من وراء ذلك عندما يرى شيئًا لا يستطيع أن يتقبله.

وتذكرت من جديد كيف تحدث مرة عن صحفيّة التقطت لها صورة في مكان ما بالبوسنة، وهي ترفع رأسها مستطلعةً من كوة دبابة سائرة وكأنها شخصيًا ستصدر أمرًا جديدًا بإخضاع البلاد المنهكة تحت إمرتها، ثم قال لي إنه - بخططه عن الرواية - ليس لديه الحق في أن يتعالى عليها أو ينتقد سلوكها. ولكنه سرعان ما راح يلعنها، رغم أنه لا يعرف الرحمة إذا تعلق الأمر بحكايته هو، أو إذا انتقده أحد بسبب سماحه لنفسه بفعل كل شيء. وبقدر ما نفر هو من سلوك الصحفية، كرهت أنا تعجرفه، وعندما تذكرت الوقت الذي قضيناه

معًا في مناقشة العنوان المحتمل للرواية بدا لي كل شيء لا طائل منه، بدا لي وكأن اختياره يوضح تناقض وعبثية أي جهد يُبذل في هذا الشأن، لقد كان بالفعل وصفًا لما "بعد المعركة" - حسب عنوانه - ولكن الوصف لن يصحح أي شيء، لأن الوقت، منذ البداية، قد فات، ولأن الكتابة لن توقظ أي ميت من مرقده.

كنت تحدثت مع هيلينا حول ذلك في العصر، وعندما شرعت أتكلم ثانية عن الموضوع نفسه وقلت إن العكس هو الذي يحدث بالأحرى، إن الكتابة قد تقتل، وإذا لم ينتبه باول فإنه في طريقه لأن يصبح أستاذًا حقيقيًا، فإن ردة فعلها لم تزد على توجيه نظرة متسائلة نحوي. لحسن الحظ لم تخمن أنها هي المقصودة بذلك، وقلت لنفسي، أي حياة هذه، أي أدب يجعل شيئًا كهذا ممكنًا على الإطلاق، بينما رحت أتشبث بها وكأنني بذلك أحميها من نواياه الشريرة. كنت أعرف أنها تنتظر تفسيرًا، ولكن بدلاً من أن أقول أي شيء، شرعت أتحدث عن جنون التسمية التي كان هو - وتحديدًا هو - يطلقها عليها: "ملاك الموت".

"ما زلت لا أعرف قصده من وراء ذلك"، قلت لها. "ولكن التسمية تبدو متناسبة تمامًا مع تعلقه بالدراماتيكية".

ورغم أنني كنت أنتظر ضحكتها، فإنها لم تضحك،

بل سألتني عن سبب تفكيري في هذا الموضوع من الأساس.

"هذه تخاريف".

وفجأة قبلتني.

"ألا تظن ذلك؟".

بالكاد لامست شفتاها شفتي، غير أنني أخذت على غرة، ولذلك لم كان إصغائي لها شبه معدوم عندما واصلت قائلة إن عليّ أن أتركه في حاله إذا كان بحاجه إلى خياله الملتوي كي يكتب. ثم أضافت:

"كان دائمًا يقول لي: إن الآخرين لديهم الإلهام، وبالنسبة لي يكفيني أنك أنتِ معي. إذا كان ذلك هو خطؤه الوحيد، فإن ما حدث يناسبني تمامًا".

تطلعت إليها، ولكن بدا أن نظراتي لم تلاقِ نظرتها. وعندما أفكر في تحمسه البالغ لها في البداية، فإنني لم أعد أفهم أي شيء. أراحت رأسها على كتفي، وعندئذٍ تذكرت أنه قال ذات مرة إنه لا يود الاستمرار في الحياة من دونها، ولكنه ما لبث أن صحح نفسه في اللحظة التالية وكما هي عادته. لم أنطق بحرف، لأنني لم أستطع أن أطرد من رأسي فكرة أنه ربما قال لها يومًا كل ما يمكن أن أقوله، وهكذا ظللت واقفًا أتفرج عليها كأنني لا أشارك في الحدث، بينما راحت يدي تمر على شعرها، الحركة نفسها المرة بعد الأخرى، من مفرق

الشعر حتى أطرافه، وكأنه تحتم علي أن أهدئ من روعها، ومن روعي أيضًا.

قضت تلك الليلة عندي، ولكنني لن أخطئ وأبوح بأكثر من ذلك، سآخذ حذري حتى لا أحكي كما في روايات الحب، كل ما سأقوله هو أنني طلبت منها أن تنطق بعض الكلمات الكرواتية من أجلي. وأتذكر أنها في البداية ترددت، إلى أن استجابت لإلحاحي، وشرعت في منولوج لين وداكن. وعندما سألتها عما قالت، أجابت أنها قلدت مذيعة في برنامج "ما يطلبه البحارة"، الذي ثُبث حلقاته بالتناوب من سبليت والمدن الساحلية الأخرى، صوت يهدي تحياته إلى سفينة مبحرة، عدة جمل كان وقعها رقيقًا وبلا معنى، كان هدفها أن تهدهدني وتهدئني، وبالفعل، نسيت باول، ولم أعد أفكر فيما سيقوله عن كل هذا، إلى أن سألتني هي في مطلع الفجر:

"هل تفكر فيه؟".

كنت أظن أنها مستغرقة في النوم، ومن ناحية أخرى لم أكن أعرف لماذا هي متأكدة إلى هذا الحد من أنني مستيقظ، فأنا مغلق العينين أرقد هادئًا تمامًا، ولكن لم يكن ثمة شك في صوتها:

"ماذا بك؟".

لذت بالصمت، فكررت السؤال.

"لا شيء"، قلت في النهاية، "لماذا؟".

"أنت تفكر فيه".

فتحتُ عيني، فوجدتُ وجهها قريبًا للغاية مني. أمسكَت عن التنفس، فانتظرتُ حتى زفرت الهواء بلا صوت تقريبًا.

"ألا يخطر على بالك أي شيء آخر؟".

بعد أسبوعين ونصف الأسبوع كان قد مات، دون أن يتحدث معه أي منا مرة أخرى. وجدوا جثته في غرفة الفندق بزغرب، أقراص منومة، لا رسالة وداع، لا أوراق غير ورقة واحدة عليها الجملة التالية: "سأكف عن الكتابة"، وتحتها اسم الكاتب الإيطالي شيزاره بافيزيه وعنوان كتابه "حرفة الحياة"، دون أي أثر لروايته. وعندما طلبت منها أن تبحث في منزله، لم تجد كذلك شيئًا. لم يكن الأمر مصادفة بالطبع، ولكنني كنت متأكدًا من أنه كتب أكثر من تلك الفوضى التي رأيتها مرةً عنده، على الأقل، وكما أكدت لي، كان فصلاً كاملاً محترم الطول. الأرجح أنها محقة في ظنها أنه دمر كل شيء، وعندما سمعت ذلك لم يعد يهمني في شيء أنني أصبحت بعيدًا جدًا عن الفكرة التي خامرتني يومًا، أن أكتب شيئًا عن ألماير، وقلت لنفسي إنه ينبغي عليّ أن أحاول بدلا منه، إنني أدين له بذلك، أن أبدأ أخيرًا بداية صحيحة، مدين له ولنهايته.

---

7 الكاتب الكرواتي 1981 -1893) Mirsolav Krleža) من أهم كتاب كرواتيا وأغزرهم إنتاجا. ولد وعاش طيلة حياته في مدينة زغرب. (م)

8 في القرن الرابع عشر وقعت صربيا الجنوبية ومقدونيا تحت الحكم التركي. وفي الربع الأخير من القرن الرابع عشر دعا الأمير الصربي لازار قومه إلى مقاومة الأتراك، وكوّن جيشا قاده نحو بريشتينا حيث جرت معركة أطلق عليها فيما بعد "معركة حقل الشحارير". هناك تجمع حوالي ثلاثين ألف صربي لمقاتلة ضعف هذا العدد من الأتراك. كانت معركة قاسية تكبد فيها الطرفان عددا ضخما من الضحايا، إلى أن اضطرت القوات الصربية إلى الانسحاب عام 1389 بعد أن منوا بالهزيمة. ومع ذلك كانت معركة "حقل الشحارير" أصل أسطورة ذاعت في كوسوفو عن شدة بأس المقاومة الصربية ضد العثمانيين. وقد أجبر الصرب في القرون التالية من الحكم العثماني على هجر كوسوفو مرتين، في عام 1690 و 1737، ثم سمحَ الأتراك للألبان بالاستيلاء على القرى والمدن الصربية المهجورة؛ ومن هنا تنبع العداوة التارخية بين الصرب المسيحيين الأرثوذكس والألبان المسلمين.

وقد استخدم سلوبودان ميلوسيفتش أسطورة "حقل الشحارير" بعد ستمائة عام أثناء حرب البلقان

الأخيرة، لاستنهاض همة شعبه للدفاع عن كوسوفو "التي ارتوت بدماء الشهداء الصرب"، على حد زعمه. (المترجم)

عن المؤلف

ولد **نوربرت جشتراين Norbert Gstrein** عام ١٩٦١ في النمسا، ويعيش اليوم في هامبورج ولندن. من أعماله "السنوات الإنجليزية" (١٩٩٩) و"بورتريه شخصي مع ميت" (٢٠٠٠). صدرت روايته "حرفة القتل" عام ٢٠٠٣، ونالت في العام نفسه جائزة الأديب الألماني "أوفه يونسون" المرموقة. ومما جاء في حيثيات الجائزة: إن "الكاتب قد ذهب في (حرفة القتل) إلى آخر الطريق لاستطلاع قدرات الرواية وإمكانياتها في سبر كنه أشد الأخطار هولاً وتهديدًا للإنسان: الحرب. عبر الشكل الأدبي الذي بنى عليه روايته يعري الكاتب وقائع الحرب الأخيرة في البلقان، مبتعدًا عن أسلوب التقارير الصحفية.. هذه الرواية تبين أن (حرفة الكتابة) يمكنها أن تبعث الموتى إلى الحياة مرة أخرى".

عن المترجم

درس **سمير جريس** الألمانية وآدابها في القاهرة وماينتس بألمانيا، وترجم من الألمانية عددًا من الأعمال الأدبية المعاصرة، منها: "عازفة البيانو" لإلفريده يلينك (ميريت، القاهرة ٢٠٠٥) و"الكونترباص" لباتريك زوسكيند (المشروع القومي للترجمة، القاهرة ٢٠٠٥) و"الوعد" لفريدريش دورنمات (دار أزمنة، عمان ٢٠٠٨) و"رجل عاشق" لمارتين فالزر (دار المسار، بيروت ٢٠٠٨). صدرت ترجمته لمجموعة هاينريش بُل القصصية "وكان مساء" في طبعة "الكتاب للجميع" الشعبية لدى دار المدى وصحيفة "السفير" اللبنانية (٢٠١٤).

حصل على الجائزة الأولى في ترجمة القصة من المجلس الأعلى للثقافة في مصر عام ١٩٩٦.